الدكتور محمد الأمين الخضري

من أسرار حروف العطف

في الذكر الحكيم

« الفاء و ثم »

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ، عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الدكتور محمد الأمين الخضرى

من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم

« الفاء وثم »

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبـــعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هيأ قلوب عباده لاستقبال فيض هداه ، وألقى على بصائرهم من أنوار بيانه ماجلّى لهم حقائق تنزيله، وأفاض على عقولهم من حكمته ما اهتدوا به إلى خفىّ أسراره، ومسّ أذواقهم بعذب كلامه فاستشرفت لطائفه وغرائبه، وأودع فى أسفارهم من إعجاز الفهم مايشهد بإعجاز النظم.

وبعـــد

فإن هذا البحث امتداد لعمل بدأته منذ أربعة عشر عاما ، حين سجلت موضوع رسالتى لنيل درجة الدكتوراه، بعنوان : "**الواو ومواقعها فى النظم القرآنى**"، وأسفرت نتائج البحث عن الدعوة إلى إعادة النظر فيما كتبه البلاغيون حول وجوه الربط بين الجمل فى مبحث الفصل والوصل، لعجزه عن استيعاب أسرار النظم القرآنى، وقصوره عن تفسير كثير من الشواهد التى امتلأت بها صفحات الرسالة، وخالفت ظاهر قواعدهم.

ودعوت إلى توسيع دائرة البحث فى أدوات الربط، لتشمل غير الواو من حروف العطف، وقلت مانصه : (نَبَّهَتْ هذه الرسالة إلى حاجة البحث البلاغى إلى تناول حروف العطف الأخرى بالدراسة التى تكشف عن وجوه بلاغتها من خلال النظم القرآنى، وتلمس الفروق البلاغية بينها فى متشابهات القرآن الكريم، وهو مانسأل الله أن يعيننا عليه فى مستقبل حياتنا" .

وماكنت أحسب أن كل هذا الوقت سيمضى قبل إنجاز ماوعدت، لكن الله صرفنى إلى مباحث أخرى تتعلق بإعجاز كتابه. وهاأنذا أعود - بتوفيق من الله - إلى شفع دراسة الواو بدراسة الفاء وثم، وهما

أكثر حروف العطف فى الكتاب العزيز بعد الواو، وأثراها فى تنوع دلالاتهما بين الحقيقة والمجاز، وأشدها استحواذا على جدل النحاة وأهل البيان.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن يغفر لصاحبه زلة القدم، وقصور الفهم. سبحانك اللهم لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

غرة المحرم ١٤١٤هـ

٢١ يونيه ١٩٩٣م

توطئة

إعجاز النظم وإعجاز الفهم

لعله من دلائل الإعجاز أن يفيض القرآن من ندى فصاحته على الدراسات التى تتناول نظمه مايجعلها أكثر ثراء وخصوبة، وأرحب فهما، وأبين قولا، ويشيع فيها من نور بيانه ماتبدو به أكثر ألقا، وأبعد رؤية، وأهدى سبيلا.

وآية ذلك أن ترى بعض رجالات البيان، ممن جمعوا بين التأليف فى علوم البلاغة وتفسير القرآن ، يدوّنون فى كتبهم من أصول الفن وقواعده، مايتجاوزونه، ويتسامون عليه حين تضيق أرديته عن استيعاب أسرار النظم الحكيم، حتى لتظن أنهم غير هؤلاء الذين أملوا تلك القواعد، وحبّروا تلك الأصول.

لاغرو أن يسمو بيان الرجال بسمو ما يتصدون له من البيان، ولاعجب أن يتسع القول فى القرآن، لما ضاقت عنه كتب أهل البيان ، ولا غرابة أن تندى الأذواق بنداه ، وتحلّق الأفهام فى سماء بلاغته، لتدرك من أسرارها مالاعهد لها بمثله فى بلاغة أهل الأرض.

فماذا يصنع من دبّج رسوم الفصل والوصل فى كتاب، إذا وجد فى الذكر الحكيم مايتحد لفظا ومعنى، ويُخَالَف بينه بذكر العاطف وتركه، أو بعاطفين مختلفين؟

إنه لامناص من أن يثب فوق رسومه ومناهجه، ويتسامى بفكره وذوقه لإدراك ماتعجز القواعد عن البَوْح بمكنون سره.

فأى قاعدة تتسع لمثل قوله تعالى على لسان قوم صالح يخاطبون نبيهم : **﴿إنما أنت من المسحّرين. ما أنت إلا بشر مثلنا ..** الشعراء ١٥٣-١٥٤﴾ فتتصل الجملتان بلا واصل لفظى. ثم يرجّع تلك

المقالةَ قومُ شعيب فى خطاب نبيهم ﴿إنما أنت من المسحّرين. وما أنت إلا بشر مثلنا... الشعراء ١٨٥ - ١٨٦﴾. فيصلون بالواو ماوصله أولئك بغير واصل من اللفظ؟

وماذا يقول صاحب الصناعة حين يرى فى القرآن بيض الوجوه وسودها تتدابر يوم القيامة، وتتباعد نزلا ومنزلة، فتتحاجز بحرف الوصل فى قوله تعالى .. ﴿وجوه يومئذ مسفرة. ضاحكة مستبشرة. ووجوه يومئذ عليها غبرة. ترهقها قترة. عبس ٣٨ - ٤١﴾ وتتمايز بغير حاجز فى قوله تعالى : ﴿وجوه يومئذ خاشعة. عاملة ناصبة. تصلى نارا حامية. تسقى من عين آنية. ليس لهم طعام إلا من ضريع. لايسمن ولايغنى من جوع. وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية .. الغاشية ٢- ٩﴾؟.

وما الذى جعل القرآن يفصل تارة، ويصل أخرى فيما تستغنى الجملتان فيه عن الرابط اللفظى لكمال الاتصال بينهما ، فتراه يفصل التوكيد عن المؤكَّد فى قوله تعالى : ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا .. الطارق ١٧﴾ ويصلهما بالواو، فى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله .. الحشر ١٨﴾ وبالفاء فى قوله : ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا .. القمر٩﴾. ويصلهما بثم فى قوله: ﴿فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر... المدثر ١٩ - ٢٠﴾؟ .

وماهذا الاختلاف بأدوات الوصل فيما اشتبه نظمه، بالواو والفاء حينا كما فى قوله : ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله .. الأحقاف ١٠﴾ وقوله : ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ... فصلت٥٢﴾؟

وبالفاء وثم حينا آخر، كما فى قوله : ﴿ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه ... الكهف ٥٧﴾

وقوله : ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ... السجدة ٢٢﴾ ؟

إن أسلات أهل الصناعة كثيرا ماتتجمد، وتخذلهم القواعد فى بيان وجه الاختلاف، فيهرعون إلى أرباب البيان من المفسرين، يستمدونهم ما أفاض الله عليهم من أنوار كتابه، وألقى على أذواقهم من عذب بيانه، فقرّب لهم ما اغترب، وكشف لهم ما احتجب، كما تراه فى مبحث الإطناب، حين غلب أهلَ المعانى على قواعدهم عطفُ المكرر، لمخالفته ماتقرر عندهم من فصل التوكيد عن المؤكد، فأسرعوا إلى جار الله الزمخشرى، يستهدونه وجها لهذا العطف، وعادوا يرددون ماقال.

إنه من السهل أن يخطّأ مبدع يخرج على أصول الفن، فإذا ماكان الخروج فى الكتاب المجيد، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، تسامت الأفهام والأذواق، بحثا عن أسرار العدول عن الظاهر، فأتت بما كانت تعجز عن الإتيان بمثله فى فهم كلام فرسان البيان، وكأن هناك إبداعا فى الفهم، ومستوى من الإدراك والتذوق لبلاغة القرآن، لاتجد مثله فى فهم كلام البشر.

هل أكون قد غاليت إذا قلت : إن هناك إعجازا فى الفهم يرتبط بإعجاز النظم، وإن الله ليهيىء العقول والقلوب لاستقبال فيض أسراره، بما يجعلها غير التى تقف على أسرار الإبداع فى بيان الناس؟

وإلا فقل لى ما السر فى غياب إدراك التجوز فى حرفى التعقيب والتراخى، وهو أسمى مواقع الحرفين ، وأكثرها ثراء، وأحفلها بأسرار البيان، حتى كان الزمخشرى هو الذى افتضّ عذرته، واهتدى إليه فى الذكر الحكيم، ليسرى منه إلى ماكان مجهولا فى كلام المبدعين؟ كأن القرآن يوجه إلى إعادة اكتشاف ضروب من المجاز فى كلام الفصحاء، لاتقع عليها عين قبل أن تستجليها البصائر فى الكتاب العزيز.

وإذا أردت دليلا على ما أقول ، فاقرأ ماكتبه المرزوقى فى شرح بيت الحماسة :

لايكشف الغمّاءَ إلا ابنُ حرة   يرى غمرات الموت ثم يزورها

حيث أسرع إلى سلب "ثم" دلالتها الأصيلة على المهلة، حين لم يبد له وجه للتراخى بين زيارة الغمرات ورؤيتها.

وقارنه بما قاله الزمخشرى فى هذا البيت، حين عرض لقوله تعالى : **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾** فخلع عليه من جلال الإعجاز فى فهم النظم الحكيم ماكشف عن وجه المجاز فيه، وأراكه لونا من الإبداع، بعد أن حسبتَه فى كلام المرزوقى ضربا من القصور، وهو ما سيجيئك فى موقعه عند الحديث عن إثراء الدراسات القرآنية لمعانى حرف التراخى.

فإذا كانت مناهج البلاغة قد ضاقت عن البحث فى حروف العطف سوى الواو، بحجة أنها وحدها بحاجة إلى دراسة الربط بها، لافتقارها إلى معنى زائد يوجب ذكرها أو تركها، كما هو شأن غيرها من أدوات الربط، فإن كتاب الله قد وسع هذه الحروف، فأثرى دلالاتها، وهيأ لها نوافذ للدراسة، بعد أن أوصدت أمامها الأبواب فى مباحث البلاغيين.

على أن هناك نافذة لدراسة حروف العطف، وإبراز مابينها من فروق فى النظم، كانت على وشك أن تفتح فى المباحث البلاغية، لكنَّ مانفذ منها ظل شعاعا خافتا لم يكتب له أن يمتدَّ ويتسع مداه، وذلك حين التقط السكاكى من كلام النحاة فى خصائص العطف مايهيىء لدراسة فى فروق المعانى وأغراض الكلام. فقال فى بحث المسند إليه : (وأمَا الحالة التى تقتضى العطف، فهى إذا كان المراد تفصيل المسند إليه مع اختصار، كقولك : جاء زيد وعمرو وخالد، أو تفصيل المسند مع اختصار، كقولك : جاء زيد فعمرو فخالد، أو ثم عمرو ثم خالد، أو جاء القوم حتى خالد) (١)

فحدَّد بدقة فرق مابين الواو وسائر حروف العطف فى أغراض النظم ودواعيه.، إذ أنها بدلالتها على الجمع المطلق تأتى لتفصيل المسند

---

(١) مفتاح العلوم ١٠٧.

إليه، فى حين يكون الغرض من باقى حروف العطف هو تفصيل المسند، لما تختص به من معان زائدة على الجمع هى الغرض من الكلام ومحط الفائدة فيه، لذلك أنت تستطيع أن تستبدل جاءنى رجلان بقولك : جاءنى زيد فعمرو، دون أن يفوتك شىء سوى التفصيل، لكنك لاتستطيع ذلك فى قولك جاءنى زيد فعمرو، لأن الغرض ليس إثبات المجىء، وإنما هو مجىء على هيئة خاصة، يعقب فيها الثانى الأول بلا تراخ، وكأن المخاطب يعلم مجيئهما ويعين الجائى، ويريد معرفة من سبق بالمجىء، وهل كان بين المجيئين فاصل زمنى أو لا ؟

هذا هو الاستثمار الحقيقى لمعانى النحو وتوظيفها للكشف عن دواعى الكلام وأغراضه، ومابين أنساقه من فروق فى الدّلالات. وهو مالم يفت أهل المعانى أن ينبهوا إليه، وإن جاء حديثهم مقتضبا خاطفا. يقول العصام مفيدا من كلام شيخ البلاغة فى تحديد فروق المعانى بين حروف العطف : (ذكر الشيخ مامحصّله أنه مامن كلام فيه أمر زائد على مجرد إثبات شئ لشئ أو نفيه عنه، إلا وهو الغرض الحاصل والمقصود من الكلام، وهذا مالاسبيل إلى الشك فيه، ففى نحو : جاءنى زيد فعمرو، يكون الغرض إثبات مجىء عمرو بعد زيد بلا مهلة، كأنه معلوم أن الجائى زيد وعمرو، والجهل إنما تعلق بالترتيب والتعقيب، فيكون العطف لإفادة تفصيل المسند لاغير) (١)

لكن هذه الومضة لم تتسع دائرة ضوئها، وظلت هى كل نصيب حروف العطف من دراسة البلاغيين عدا الواو فى باب الفصل والوصل، ومانكروه من عطف المكرر فى باب الإطناب، أو جاء عرضا فى باب الحذف مما أسموه الفاء الفصيحة، وكله تحدر إليهم من بيان المفسرين، وخاصة جار الله الزمخشرى.

وحين نعود إلى النظم الحكيم نجد من فاءاته عجبا، ومن الدراسة فى معانيها وأسرارها فهوماً لاتجدها فى دراسات دارت حول نص آخر.

---

(١) الأطول ٢٢٣/١

وكأن القرآن ينفخ فى عقل الباحث عن أسراره من روح إعجازه، وهدى أنواره مايرتفع بمستوى إدراكه إلى سماء نظمه، فنجد الفاء تلبس من أكسية المجاز ما تتنامى به معانيها، وتتكاثر إشاراتها بما تقصر عنه فى حقيقتها، فتُضمر فى أحشائها صفحة الزمن حينا، وتمطُّها وتمطلها حينا آخر، وتنشر ألوانا من الترتيب بين الألفاظ والمعانى غير ماعهد فيها، وتقلب أوضاع الكلم لتعكس لك انقلاب الأوضاع فى الواقع، واختلال الفكر والسلوك.

وتتأمل حرف التراخى فى الذكر الحكيم، فتقع لأول مرة على ضروب من المجاز، تستعار فيها أردية الزمن، لتُباعد بين المعانى، وتفاضل بين المنازل، وتبرز التناقض بين المقدمات والنتائج، وتضفى على المعانى من حركة الزمن مايجعلها أقدر على نقل حركات الفكر ونبضات الشعور.

وإنك لتعجب لهذه اللغة التى اختارها الله وعاء لكتابه، وكيف توائم بين الألفاظ ودلالاتها فى إحكام يشهد بأن الله أسبغ عليها مايؤهلها لاستيعاب أسرار الإعجاز فى القرآن المجيد. والدليل على ذلك أنها اختارت اللفظ الأقصر صوتا، والأسرع نطقا ليدل على سرعة تعاقب الأحداث، كما هو شأن الفاء، المكونة من حرف واحد، يمرّ بظاهر الشفة همسا، وكأن ماعبُّر عنه من الأحداث يمرّ بسرعة صوته. ثم اختارت اللفظ المطول نطقا، بما ضمه من حروف ثلاثة، وماصاحبه من تضعيف أثقل حركته على اللسان، ليدل على بطء حركة الأحداث، وتثاقل خطوات الزمن، إنها بحق لغة شاعرة كما أسماها الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد. وهى حقيقة بأن تكون لغة الكتاب المعجز.

وإذا كان حرفا التعقيب والمهلة يمثلان حركة الزمن، ويجسدان خطواته فى بطئها وإسراعها، فإن مقياس الزمن فى لغتنا الشاعرة إحساس قبل أن يكون حركة عقارب. وخفقاتُ شعور قبل أن يكون دقات ساعة، فكم يقْصُر زمن فى عين هو طويل فى عين سواها !! وكم يضمر الزمن فى لحظات الأنس والسعادة، ويتمطّى فى ساعات الألم والشدائد،

ولحظات الترقب والانتظار!!

أترى الأيام والليالى قد طالت وقصرت حقيقة على النحو الذى أتاح لشاعر أن يقول :

فى ليل صُول تناهى العرض والطول   كأنما ليله بالحشر موصول

ولآخر أن يقول :

ويوم كإبهام القطاة محبب   إلىّ صباه غالب لى باطله

أم أنه فيض إحساس عكسه كل منهما على وجه الزمن؟!

لقد كان العربى غاية فى الصدق حين ينقل إلينا إحساسه بالزمن، فلا يطلق الليل والنهار، وإنما يقيدهما بما يلقى فى نفسك أنه يعبر عن إحساسه لا عن حقيقة الزمن، كما تراه فى إضافة الليل إلى المكان فى البيت الأول، وكأن لهذه المدينة ليل خاص ليس لسواها من المدائن. وفى البيت الثانى جاء "محبب إلى" قيدا لليوم، ليشعرك بأن حبه هو الذى أضمر الزمن، وقصر لحظاته، وهكذا تجد امرأ القيس حين يستطيل الليل يضيفه الى نفسه :

تطاول ليلك بالإثمد   وبات الخلىُّ ولم ترقد

فتراك ليله طويلا بطىء الخطا، يقبض على أنفاسه، وهو غير ليل الخالى المستغرق فى نومه. فكانت إضافة الليل إلى المخاطب، إشارة إلى أنه ينقل إليك إحساسه، ولايعبر عن حقيقة عقارب الساعة.

إن هناك فرقا بين التعبير عن حقيقة الزمن، المتمثل فى المعانى الوضعية، للفاء وثم، وبين نقل الإحساس بالزمن حين يكتسى معه الحرفان رداء المجاز، فيضمر فيهما الزمن أو يتمدد.

ألا ترى كيف عبَّر القرآن عن حقيقة الزمن فى قصة أهل الكهف، فجاء حرف المهلة ليومىء إلى ثلاثمائة سنة أو تزيد فى قوله ﴿فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا. ثم بعثناهم لنعلم أى

الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ... الكهف ١١ - ١٢﴾ ثم ترى هذا الزمن الطويل الذى جسّده حرف المهلة بحقيقة التراخى فيه ضمر وانكمش فى تعبير أهل الكهف عن إحساسهم **﴿قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ... الكهف ١٩﴾** فصدقوا فيما نقلوه من إحساسهم بالزمن، وإن خالف ذلك حقيقته.

لقد كانت لفتة ذكية تلك التى أومأ بها صاحب الفرائد إلى اعتبارات تختلف معها نظرات المتكلمين إلى الزمن، حين قال فى عبارة دقيقة كاشفة : (ثم إنه يُستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتى بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين أخرى، لاعتبار آخر، فيؤتى بثم) (١).

فالزمان الواحد يُرى طويلا باعتبار، وقصيرا باعتبار آخر، وماذلك إلا لأنه فيض إحساس تجّسده الكلمات فى بعد حسى، وتعكسه على مرآة الزمن.

لاعجب إذا أن يكون هذان الحرفان بحاجة إلى لون من الدراسة، تبحث عن أسرار الحرف فيما فارق فيه حقيقته، وتكشف عن أغراض النظم فيما يتقارض فيه الحرفان مواقعهما، مثلما تجده فى قوله تعالى: **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فاصبح هشيما تذروه الرياح : الكهف ٤٥﴾** وقوله : **﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما .. الحديد ٢٠.﴾** لتكشف عن دواعى المغايرة بالفاء وثم، فيما يبدو شبيها بالموضع الواحد.

لقد كان ابن الأثير على وشك أن يقدم لنا النموذج لهذه الدراسة المقارنة فى بحثه الذى أفرده للحروف الجارة والعاطفة، حين أتاح له

---

(١) الفرائد فى شرح الفوائد ٢٤.

منهجه مالم يُتحْ فى مناهج الآخرين. فبعد أن أبان فروق المعانى بين حروف العطف، وإعجاز القرآن فى وضع الحرف موضعه، معتمدا على المعانى الحقيقية للحروف، توقف أمام مشتبه النظم، مما اختلف فيه العاطف، ليبين سر المخالفة، ولكن يد البلى طوت عنا محاولته، ولم تبق لنا غير اعتراض ضاع جوابه. قال ابن الاثير، وهو يعرض لقوله عز وجل : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة** ... المؤمنون ١٢-١٤﴾، (فإن قيل : إنه قد عطف المضغة على العلقة فى هذه الآية بالفاء، وفى أخرى بثم، وهى قوله تعالى : ﴿**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة من علقة ثم من مضغة**﴾ [١] فالجواب عن ذلك ...)[٢] وهنا طمست أصابع الزمن هذا الجواب ولم يعثر محققا الكتاب فى أصول المخطوطة على أثر لهذا الجواب، الذى كنا نتمنى أن نراه بذوق ابن الأثير. كما لم نجد عند صاحب الطراز - وهو الذى اقتفى أثره واستمد منه فيما عرض له من البحث فى حروف العطف - ظلاً لهذا الجواب.

ولعل هذا أحد الأسباب التى دفعتنى إلى استكمال ما بدأه ابن الأثير، على أن يكون الهدف هو رصد ماخالف الظاهر من الحرفين فى مواقعهما من الذكر الحكيم، والبحث عن وجوه البيان المستورة وراء هذه المخالفة، سواء فيما فارق الحرف دلالته الوضعية، أو اقترض موقعا لسواه، مستهديا بآثار المفسرين من رجالات البيان، واقفا على مادوّنه النحاة واللغويون فى معانى الحروف، ملتفتا إلى إشارات أهل المعانى.

وآمل أن يجد الباحثون فى استعارة الحروف من هذه الدراسة مايوسع مجال بحثهم، ويتجاوزون به حروف الجر التى غالبا ما تستأثر بالحديث كله عن استعارة الحروف، فلربما يدفع هذا الامتداد بالدراسة إلى إعادة النظر فى فهم آراء الرجال على ضوء نظراتهم فى استعارة

---

(١) الحج ٥ (٢) المثل السائر ٢/٢٣١

الفاء وثم من حروف العطف.

كما أن الحديث عن قرينة المجاز اللغوى بحاجة إلى الوقوف على نصوص القوم فيماصرحوا فيه باحتمال الحقيقة والمجاز فى حرف التراخى، وما إذا كان يستدعى النظر فيما استقر لدى أهل البيان من أن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة، بعد أن نرى من يجيز الجمع بين التراخى الحقيقى والمجازى فى الموضع الواحد.

إن إخراج الفاء وثم من الدراسة فى باب الفصل والوصل، اعتمادا على مالهما من خصوصيات زائدة عن مطلق الجمع يتغاضى عن أكثر مواقعهما ثراء فيما خرجتا فيه عن معانيهما الوضعية. كما أنه ليس هناك مبرر لإهمال دراستهما فى استعارة الحروف، أو فى مبحث التقديم والتأخير للكشف عن أسرار مخالفة الظاهر فى الترتيب بين المتعاطفات.

فهل آن لنا أن نعود إلى منهج ابن الأثير فى إفراد مبحث لحروف العطف، على ألا نقف عند معانيها الوضعية كما وقف، بل نتجاوزها إلى مافارقت فيه حقائقها، وخرجت عن ظاهر ماوضع لها، أو تعاورت فيه مواقعها؟ هذا مانؤمّله.

الفصل الأول

مواقع الفاء وأسرارها

عكس الظاهر فى الترتيب

قال سيبويه فى معرض التمييز بين الوار والفاء : (والفاء وهى تضم الشيء إلى الشيء، كما فعلت الواو، غير أنها تجعل ذلك متسقاً بعضه فى إثر بعض، وذلك قولك : مررت بعمرو فزيد فخالد، وسقط المطر بمكان كذا وكذا، فمكان كذا وكذا، وإنما يقْرُو أحدَهما بعد الآخر) [1]

وقال السيرافى فى شرح أبيات سيبويه : (الفاء التى للعطف من شأنها أن يكون المعنى الذى اشترك فيه المعطوف والمعطوف عليه حاصلا للمعطوف بعد حصوله للمعطوف عليه، بلا مهلة فصل، ويكون حصوله للثانى عقيب حصوله للأول، نحو قولك : زيد آتيك فمحدثك، أى يحصل الحديث من قبِله بعد إتيانه بلافصل، ولايجوز أن يكون الحديث الذى أخبرت به عنه حصل قبل الإتيان، ولا فى الحال التى حصل فيها الإتيان، وإذا أردت أن تخبر عن شخص من الأشخاص بخبرين، هما حاصلان له فى حال واحدة، لم يجز أن تعطف أحدهما على الآخر بالفاء، لأنهما حصلا فى زمان واحد، والفاء توجب أن زمان أحدهما بعد زمان الآخر، فإن أدخلت الفاء فسد معنى الكلام) [2]

غير أن القرآن فى كثير من نصوصه خالف ظاهر ما أوجبه النحاة من تقدم المعطوف عليه فى الوجود، فوقعت فيه الفاء عاطفة لماهو متقدم على المعطوف عليه حينا، ولما هو واقع معه فى آن واحد حينا آخر، فاضطر الكوفيون إلى القول بأن (الترتيب لايلزم فيها، واستدلوا بقوله تعالى : **﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾**[3]، قالوا : فالبأس فى الوجود واقع قبل الإهلاك، وهو فى الآية مؤخر عنه)[4]

أما البصريون الذين يرون الترتيب معنى لايتخلف فى الفاء،

---

(١) الكتاب ٢١٧/٤
(٢) شرح أبيات سيبويه ١٠٠/١
(٣) الأعراف ٤
(٤) رصف المبانى ٤٤٠.

فإنهم يؤولون ذلك بأحد وجهين : إما بالتأول فى الفعل على سبيل التجوز بالمسّبب عن السبب، وإما بالتأول فى الترتيب، وجعله ترتيبا لفظيا، أطلقوا عليه الترتيب فى الإخبار.

وبالرجوع إلى ماقاله الفراء - وهو إمام الكوفيين - نجده يذكر فى الآية عدة تأويلات يفسر بها وجه المخالفة، وكأنه يقرّ بأن الترتيب هو الأصل فى العطف بالفاء، وأن العدول عنه يحتاج إلى بيان السّر فيه (يقال : إنما أتاها البأس من قَبْل الإهلاك، فكيف تقدم الهلاك؟ قلت: لأن الهلاك والبأس يقعان معا، كما تقول : أعطيتنى فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولاقبله، إنما وقعا معا، فاستجيز ذلك، وإن شئت كان المعنى : وكم من قرية أهلكناها، فكان مجيء البأس قبل الإهلاك، فأضمرت كان. وإنما جاز ذلك على شبيه بهذا المعني، ولايكون فى الشروط التى خلفتها بمقدم معروف أن يقدم المؤخر أو يؤخر المقدم، مثل قولك ضربته فبكي، وأعطيته فاستغني، إلا أن تدع الحروف فى مواضعها. وقوله : "أهلكناها فجاءها قد يكونان خبرا بالواو : أهلكناها وجاءها البأس بياتا) [١]

فى تساؤل الفراء وجوابه عليه، دليل على أن الترتيب هو الأصل، وإلا فما كان بحاجة إلى التأول، ثم إنه يعترف بأن للحروف خصائص، وللعطف بها شروطا توجب ألا يقدم المؤخر فى مثل قولك : ضربته فبكي، وأعطته فاستغني، وهو حين يقول أخيرا قد يكونان خبرا بالواو، فإنه لو سلم بصحة وقوع الواو موقعها فإن بابا ينفتح أمام الباحثين فى أسرار النظم، للكشف عن سر إيثار الفاء على الواو فى مثل هذه المواضع.

والوجه الأول فيما ذهب إليه الفراء قال الطبرى بمثله فى أكثر من موضع. ففى قوله تعالى : ﴿**وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون**﴾[٢] قال أبو جعفر : (وإذا كان الأمر فى قوله جل ثناؤه : (وإذا

---

(١) معانى القرآن ١/٣٧١ (٢) البقرة ١١٧

قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ") هو ماوصفنا من أن حالَ أمره الشيءَ بالوجود حالُ وجود المأمور بالوجود، فبيَّن بذلك أن الذى هو أولى بقوله "...(فيكونُ) الرفع على العطف على قوله (يقول)، لأن القول والكون حالهما واحد، وهو نظير قول القائل : "(تاب فلان فاهتدى) و (اهتدى فلان فتاب)، لأنه لايكون تائبا إلا وهو مهتد، ولامهتديا إلا وهو تائب، فكذلك لايكون أن يكن الله آمرا شيئا بالوجود إلا وهو موجود، ولاموجود إلا وهو آمره بالوجود)[١].

. لقد استلهم الطبرى أسرار قدرة الله تعالى، المُسَاوقة لإرادته فى إيجاد الأشياء، وتكوّنها حال إرادة الله لها أن تكون، لكنه لم يكشف عن دور الفاء فى سرعة استجابة الموجودات للأمر الإلهي، وإبراز طاعتها للآمر العظيم، وكأن وجودها ذاته إذعان لأمر موجدها، على ماصوَّره قوله تعالى : **﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾**[٢]، حيث دلتا بوجودهما على الإذعان لخالقهما.

ان الزمن يتلاشى فى أفعال القادر الحكيم، فلا يتصور أن يتخلل الزمن بين أمر القادر وفعْلِه، حتى نبحث عن ترتيب وجودى فى دلالة الفاء، وإنما هو ترتيب ذهني، يتيح للمخاطب أن يتصور ترتب الموجود على إرادة الموجد، وليس ترتيبا خارجيا يقع فيه المكوَّن بعد أمره أن يكون. وتدل معه الفاء على الطواعية المطلقة والمسابقة إلى الانصياع لأمره. وهو نوع من الترتيب نبَّه إليه الجو نفورى فى عبارات يُعَضُّ على مثلها بالنواجذ. قال رحمه الله : (ويجب أن تَنَبَّه أولا، لأن الترتيب قد يكون خارجيا، نحو : **﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم﴾** [٣] و **﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾** [٤] وقد لايكون كذلك، فإما أن يكون بحسب الحكم القاطع من العقل، كما بين العلة والمعلول، وإن كانا مقارنين فى الوجود فى الخارج، نحو : **(أن يقول له كن فيكون)**[٥]، أو بحسب اعتبار مناسب بين الأمرين، إما بلحاظ ذاتهما،

---

(١) تفسير الطبري ٢/٥٤٩. (٢) فصلت ١١. (٣) الذاريات ٢٦ - ٢٧.
(٤) يونس - ٣٤ . (٥) يس ٨٢ .

أو وجودهما في الخارج. كما بين الأدنى والأعلي، والأيسر والأصعب، أو باعتبار حصولهما في الذهن، أو استحقاقهما الذكر في اللفظ بين المجمل والمفصَّل(١).

في هذه الاعتبارات التي ذكرها الجونفوري تكمن أسرار النظم، وبها نتجاوز أقوال النحاة إلى إشارات أهل المعاني، نَعْبُر حدود الزمن، لننفذ إلى أعماق المتكلم، ونصغى إلى مايهمس به من أغراض، ونَسْبُر أغوار المخاطب، لنرقب حركة فكره في مواكبته لما يلقى عليه، وكيف تترتب المعاني في ذهنه، على النحو الذي يربط فيه بين العلل ومعلولاتها، والمقدمات ونتائجها، فيقدِّم له المتكلم العلةَ على معلولها حينا، والمعلولَ على علته حينا آخر، طبقا لتشوُّفه وترقّبه، ويقدّم له المجمل على المفصل، لينتقل من النظرة الكلية إلى النظرة الجزئية الفاحصة، ويفاجئه بالنتيجة حينا ثالثا قبل ذكر مقدماتها، لتكون بمثابة الصدمة التي تنبه مراكز الإحساس عنده، فيتلقى الخبر بما يجب أن يتناسب مع خطره وأهميته. ثم ننظر إلى حال الخبر في ذاته، حيث تترتب المعاني وفقا لوجودها الخارجي تارة، ولأهميتها في سياقها تارة أخري، وكل ذلك تُمليه دواعي الأحوال، وأغراض السياق، وذلك هو صميم البحث البلاغي، وبه ننطلق من المعاني الوضعية التي قررها النحاة لهذا الحرف وغيره، إلى معان أخرى مجازية هي في كتاب الله الأثرى والأدلّ على أسرار إعجازه.

وإذا كنا نسلم بأن الصورة التعبيرية ترجمة للحركة الذهنية والنفسية، تقوم الألفاظ فيها بدور الناقل لسبحات الفكر وخطرات النفس، على هيئة تتابعها في نفس المنشيء وترتُّبِ أغراضه، أو على الهيئة التي يراد للمتلقى أن يتصورها عليها، فإن الفاء تؤدى دورها في ترتيب المعانى طبقا لقصد المتكلم، أو مراعاة لحال مخاطبه، وحركة فكره في تصوره للمعاني وربطه بينها.

---

(١) الفرائد في شرح الفوائد ٢٤.

وللسهيلى عبارة جامعة هى أصل من أصول النقد، وأحرى بأن تتصدر كل حديث عن ترتيب الألفاظ والمعاني، قال فيها : (ماتقدم من الكلام فتقديمه فى اللسان على حسب تقديم المعانى فى الجنان، والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق من المعانى إلى الخلد والفكر، بأحد هذه الأسباب الخمسة، أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق، وكان ترتيب الألفاظ بحسب ذلك) (١)

وبالرجوع إلى آية الأعراف فإننا يجب أن نسلم بأن تقديم الإهلاك على مجيء البأس خروج عن الظاهر فى الترتيب، وهو ماقرره ابن عطية بقوله: (وقوله (فجاءها) يقتضى ظاهره أن المجيء بعد الإهلاك. وذلك مستحيل، فلم يبق إلا أن يعدل عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل : الفاء قد تجيء بمنزلة الواو، ولاتعطى رتبة. قال القاضى أبو محمد : وهذا ضعيف، وقيل : عبَّر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك، قال مكى فى المشكل : مثل قوله : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ﴾(٢). قال القاضى أبومحمد : وهذا يحتج به فى تأويل من قال : الفاء فى هذه الآية لتعقيب القول، وقيل : المعنى أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق، فجاءها بأسنا بعد ذلك) (٣)

بعد استسقاط الوجه الأول الذى يلغى الفروق بين معانى الحروف، ويُسَوِّى بين الفاء والواو فى الدلالة، يبقى مما ذكره ابن عطية ثلاثة أوجه، وجهان يعودان إلى التأول فى الفعل، ووجه يتأول فى معنى الترتيب.

ولست أرى فى تأويل الإهلاك بالإرادة إلا محاولة لتصحيح معنى الترتيب الوجودى فى الفاء، لأن إرادة الفعل من الله تنجيز له، فإذا تعلقت إرادة الله بالشيء على سبيل الإيجاد، وقع مساوقا للإرادة،

---

(١) نتائج الفكر ٢٦٧ .
(٢) النحل ٩٨ .
(٣) المحرر الوجيز ٨/٧ .

متزامنا معها دون تأخير. وقرْنُ إرادة الله التنجيزية بإرادة العبد السابقة لفعله، على النحو الذى تضم فيه هذه الآية إلى قوله تعالى : **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾** فيه سهو كبير.، لأنه إذا صح أن تؤول القراءة بإرادتها، لتقع الاستعاذة مترتبة عليها، مسبوقة بها، فإن ذلك لايصح فى إرادة الله تعالى التى يصاحبها تحقيق المراد دون تأخير. وقد ردَّ بعض المحققين هذا الوجه فيما نقله الشهاب : (حيث قال : فيه إشكال أصولي، وهو أن الإرادة إن كانت باعتبار تعلقها التنجيزي، فمجيء البأس مقارن لها، لامتعقب لها وبعدها، وإن لم يُرَدْ ذلك فهى قديمة، فإن كان البأس يعقبها لزم قدم العالم، فإن تأخر عنها لزم أن يعطف بثم)(١)

ثم إن نكتة التجوز بالمسبب عن السبب، كما صرحوا بها فى قوله تعالى : **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾** وقوله : **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾**(٢) هى الحث على المبادرة بالقراءة والقيام عند العزم عليهما، حتى لاينفك الفعل عن الإرادة (٣)، وهى لاتصح فى الآية. والوجه الثانى من التأول فى الفعل هو تفسير الإهلاك بالخذلان وعدم التوفيق، وهو تفسير اعتزالى لايعتدّ بمثله أهل البيان.

وخير ماقيل فى تأول الفعل ماذهب إليه الشهاب (فالصواب أن يقال : معناه خلقنا فى أهلها الفسق والمخالفة) (٤)لأنه يتجاوب مع قوله تعالى : **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا﴾** (٥)

فإطلاق المسبَّب وإرادة السبب، تعبيرا بالإهلاك عن الفسق، فيه تحذير شديد من الوقوع فى المعاصي، وإيحاء بقوة العلاقة بين المعصية

---

(١) حاشية الشهاب ١٤٩/٤.　　(٢) المائدة ٦.

(٣) يراجع تفسير أبي السعود ١٣٩/٥، وروح المعاني ٦٨/٦.

(٤) حاشية الشهاب ١٤٩/٤.　　(٥) الإسراء ١٦.

والهلكة، وشدة الارتباط والتلازم بينهما.

أما التأوّل فى معنى الترتيب بما أسْمَوْه الترتيب اللفظي، أو الإخباري، فأحسب أنه ضرب من التحوز، يُشَبَّه فيه الترتُّب بين الألفاظ فى الذكر، بالترتب بين المعانى فى الوقوع، وتستعار له الفاء، لتدل على تقدم الأول فى المنزلة، أو علو الثانى فى الرتبة. والآية صالحة لكليهما، فيكون تقديم الهلاك لأهميته، والتنبيه من أول الأمر على أن إرسال العذاب لم يكن بقصد الزجر والابتلاء، وإنما كان دليلَ غضب، وانتقامَ إبادة، لايترك معه من باقية، وهو سر التعبير بالقرية، دون أهلها، وكأن الله تعالى قد محاها من الوجود، فهو عذاب استئصال، لاتخويف وإنذار. وإلى هذا الوجه يلمح قول السهيلى : (دخلت الفاء لترتيب اللفظ، لأن الهلاك يجب تقديمه فى الذكر) (١)

أو يكون تأخير المعطوف على سبيل التدرّج والارتقاء، لأنه بدلالته على الإهلاك المباغت فى أوقات الأمن والدَّعة، المعبَّر عنهما بالبيات والقيلولة، صار أشد وأفظع من الإهلاك، والفاء مستعارة للترتيب الرتبى، ولذلك حديث مفرد يأتيك قريبا.

ومما خولف فيه ظاهر الترتيب، قوله تعالى فى وصف الكتاب المجيد : **﴿كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين. لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم. فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون. فيقولوا هل نحن منظرون﴾** (٢)

فإن حلول العذاب بالمجرمين، المدلول عليه بقوله (فيأتيهم بغتة) لايسبق فى الوجود قولهم : (هل نحن منظرون)، لاستحالة أن يكون من الهالك قولٌ بعد هلاكه، مما دفع الزمخشرى إلى القول بأن الترتيب فيه رتبي، ذكرت معه ألوان العذاب على سبيل التصعّد والارتقاء. قال جار الله : (ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته، وسؤال النَّظِرة فيه فى الوجود، وإنما المعنى ترتبها فى الشدة، كأنه قيل : لايؤمنون

---

(١) نتائج الفكر ٢٥٠ .   (٢) الشعراء ٢٠٠ - ٢٠٢ .

بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب، فماهو أشد منها، وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه، وهو سؤالهم النَّظِرة. ومثل ذلك أن تقول لمن تعظه : إن أسأت مَقَتَك الصالحون، فمقتك الله. فإنك لاتقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين، إنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين، فما هو أشد من مقتهم، وهو مقْت الله).(١)

إن القول بالترتيب الرتبى تجوزا بفروق الزمن عن فوارق الدرجات والمنازل، هو أعظم مواقع الفاء فى الذكر الحكيم، وأمسُّها رحما بعلم البلاغة، وللزمخشرى فضل الكشف عنها، وتتبع مواطنها، وإن كان أقلُّها إقناعا هذا الموضع، فإن النفس لاتستريح إلى كون سؤال النظرَة أشد من المفاجأة بالعذاب. وهذا ماجعل المرحوم عبد الرحمن تاج يردّ ماقاله الرمخشري، ذاهبا إلى أن الترتيب جاء على حقيقته : (إن الفاء فى هذه الآيات من سورة الشعراء لم تغترب عن معناها الأصلي الذى هو ترتيب المعطوف بها على المعطوف عليه فى الوجود، والأمر فيه ظاهر وقريب، ولاموجب للعدول عنه. وذلك أن الآيات تريد أن تقول : إن أولئك الكفار لايؤمنون بالقرآن حتى يروا مايلجئهم إلى الإيمان به، وهو بوادر العذاب ومقدماته، هذه المقدمات التى يعقبها من غير تراخ، وبطريق المفاجأة والمباغتة نزول العذاب دفعة، فتدركهم حينئذ الحسرة والندامة على مافرّطوا، ويتمنون لو أعيدوا إلى الدنيا ليؤمنوا يقولون : هل نحن منظرون، وذلك أن نزول العذاب بهم بغتة، ليس معناه هلاكهم وموتهم فى لحظة، وأنهم لايمهلون ليتحسروا على مافرّطوا، ويتمنوا أن ينظروا، لا بل إن ذلك العذاب الذى يباغتهم قد تمتد بعضَ الوقت مدتهُ، وتستمر عليهم زمناً ما [illegible] وفى هذه الفترة يمكن أن تكون الحسرة، ويكون سؤال النظرة) (٢)

وأرى - والله أعلم - أن قوله تعالى : ﴿فيقولوا هل نحن منظرون﴾ معطوف على قوله ﴿[illegible] يروا العذاب الأليم﴾ [illegible]

---

(١) الكشاف ٣/١٢٩. (٢) الشيخ عبد [illegible] بحوث قرآنية ولغوية ١٦٤.

عليه، فيكون سؤالهم النظرة أعقب رؤيتهم العذاب، ولايمنع من ذلك أن يكون قد عطف على الجملة الأولى جملة أخرى تابعة لها، فهو من عطف جملة على مجموعة من الجمل، كما ذهب إلى ذلك الإمام عبد القاهر فى قول المتنبى :

تولـواْ بغتـة فكأنّ بَيْنـاً تهَيَّبنـى ففاجأنـى اغتيـالا

فكان مسير عِيسهُم ذَمِيلا وسير الدمع إثرهم انهما لا

حيث جعل قوله (فكان مسيرعيسهم ...) معطوفا على (تولوا بغتة) لا على جملة (ففاجأنى اغتيالا) حتى لايفسد المعنى بدخول المعطوف فى معنى (كأن) (١).

ويكون الغرض من تقدم جملة (فيأتيهم بغتة) على قولهم، تيئيسهم مما تمنوه، واستهانة بما قالوه، وقطعَ الأطماع فى الاستجابة لما حدَّثوا به أنفسهم، فكان ذكر حلول العذاب بهم قبل ذكر ماتمنوه، إيماء إلى أن مثل هذا القول مما لايُعتدُّ به، ولايرجى لصاحبه نفع، لوقوعه بعد فوات الأوان، كما أن تأخر قولهم هذا فى الذكر، يوحى بأنهم كانوا يرددونه منذ رؤيتهم العذاب حتى لفظوا آخر أنفاسهم، وتقطَّعت بهم أسباب النجاة.

مثل هذا الذى نقول به فى عطف الجملة على مجموع جمل أو عكسه اقتفاءً لأثر الشيخ عبد القاهر قال به العيْنى فى قوله عليه السلام : (إن الله لايقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) (٢) قال الإمام العينى : (فإن قلت: الضلال متقدم على الإفتاء، فما معنى الفاء؟ قلت : المجموع المركب من الضلال والإضلال هو متعقّب على الإفتاء، وإن كان الجزء الأول مقدما عليه، إذ الضلال الذى بعد

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ٢٤٤. (٢) أخرجه البخارى فى كتاب العلم .

الإفتاء، غير الضلال الذى قبله) [١]

وكأنى بالعينى - رحمه الله - يرى أن تصدُّر الجهال للفتوي، وترؤُّسهم القومَ بغير مؤهلات الرئاسة ضلال، وفتواهم بغير علم يجمع بين الضلال والإضلال، فهم ضالون فيما أفتوا فيه، مضلون لغيرهم ممن يعمل بفتواهم، فلو قيل إن المعطوف بالفاء هو (ضلّوا) وحده، لما كان مرتَّبا على الإفتاء، لأنهم كانوا قبل ذلك فى ضلال، أما مع الإضلال فإن ذلك واقع بعد الإفتاء وبسببه.

قلت : إنه ليس بلازم فى قصّ الأحداث أن يقع ترتيب الإخبار بها على الوجه الذى وقعت عليه، فقد يعمد القاصّ إلى المخالفة فى الترتيب وبناء الأحداث، بقصد التركيز على موضع العظة، أو التشويق والإثارة، فتقع الفاء مرتبة الأخبار ترتيبا فكريا، تتعانق فيه الأحداث على وجه يحقق أغراض القصة وأهدافها، من أجل ذلك نجد القرآن فى القصص التى تكررت يعمد إلى التقديم والتأخير فى بنائها، تبعا لاختلاف الأغراض من قصّها فى موضعها، وحينئذ يكون من التطاول القول بأن القرآن تناقض فى عرض أحداثه، ومن التساهل أن يقال إنه من الافتنان فى العرض، بل علينا أن نلتمس وجه الترتيب مرتبطا بأغراض السورة ومقاصدها، فإذا وقعت الفاء فى موضع ترتبت فيه المعطوفات ترتيبا وجوديا، وفى موضع مشابه خولف هذا الترتيب، وجب علينا أن نتلمس وجه المخالفة بالإصغاء إلى همس السياق وماتوسوس به الأغراض.

فهذا القرآن يحكى قصة صالح عليه السلام مع قومه فى سورة الأعراف فيقول : **﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بيّنة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد**

---

(١) عمدة القارى ٢/٩٠.

وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون. قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون. فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين﴾ (١).

فقدّم هلاكهم بالرَّجْفة على تولّيه عنهم، وقولِه لهم. ماقال، وظاهر الترتيب أن يقدّم ما أخَّره، لأن خطابه لقومه لايقع بعد أن هلكوا وأصبحوا فى ديارهم جاثمين، فخالفت الفاء ماوضعت له من ترتيب المتعاطفات ترتيبا وجوديا.

وفى سورة هود خولف هذا النسق، فقدّم القول على الهلاك، فى قوله تعالى : ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب. قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب. قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربى وآتانى منه رحمة فما تزيدوننى غير تخسير. وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولاتَمسُّوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب. فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز.

---

(١) الأعراف ٧٣ - ٧٩.

وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾(١) فجاء قوله ﴿**فقال تمتعوا فى داركم**﴾ مرتبا على عقرهم الناقة، وسابقا لهلاكهم بالصيحة، وهذا هو الأصل فى الترتيب الزمانى، كما وقعت عليه أحداث القصة.

وقد اختلف المفسرون فى بيان سر مخالفة الظاهر فى سورة الأعراف، وأوجز الجمل فى حاشيته هذه الآراء، فقال : (وفى وقت هذا التولى قولان : أحدهما أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا وهلكوا، ويدل عليه قوله : ﴿**فأصبحوا فى دارهم جاثمين**﴾ فتولى عنهم، والفاء للتعقيب، فيدل على أنه جعل هذا التولى بعد جثومهم، وهو موتهم.

والقول الثانى : أنه تولى عنهم وهم أحياء قبل موتهم وهلاكهم. ويدل عليه أنه خاطبهم بقوله : ﴿**وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين**﴾ وهذا الخطاب لايليق إلا بالأحياء، فعلى هذا القول يحتمل أن يكون فى الآية تقديم وتأخير، تقديره : فتولى عنهم، وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين. وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا بأنه خاطبهم بعد هلاكهم وموتهم توبيخا وتقريعا، كما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم الكفار من قتلى بدر) (٢)

وبالتأمل فى سياق القصة من سورة الأعراف نجد أنها بدأت بخطاب صالح لقومه، دعاهم فيه إلى الله تعالى، وقدم إليهم معجزته المتمثلة فى (ناقة الله)، وحذَّرهم من أن يمسُّوها بسوء، ثم انتهى خطابه عند هذا الحدّ، ولم يدُرْ بينه وبينهم حوار، كما هو الشأن فى سورة هود، ليتغيرَّ مجرى الحديث، ويدور الحوار بين المستكبرين والمستضعفين، يُنهيه المستكبرون بعقر الناقة، والتوجه بخطابهم إلى صالح، الذى لم يكن طرفا فى الحوار، قائلين : (ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فكان جواب الله العملى أسرع من جواب صالح، ردًا

---

(١) هود ٦١ - ٦٧. (٢) الفتوحات الإلهية ٢/٢٦١.

على تحدّيهم لله بعقرهم ناقته، واستخفافهم بعذابه، ليحيق بهم ماكانوا به يستهزئون.

إن تخلُّل أى حديث بين استعجالهم العذاب استخفافا، ووقوع ما استعجلوه يقطع هذا الخيط الفكري، الذى يربط بين طلبهم العذاب، وحلوله بهم، ويذهب بما يوميء إليه الترتيب من سرعة انتقام الله تعالى بالمتسهزئين بعد أن قطعوا كل أسباب الحوار، حتى لو كان قد وقع تولّى صالح وما أعذر به إلى قومه قبل هلاكهم، فإن ترتيب حلول العذاب على فعلهم وقولهم، ربطاً بين الأسباب ومسبباتها هو الأليق ببلاغة النظم.

على أنه لامانع من أن يكون تولّى صالح وحديثه بعد وقوع الهلاك بقومه، فهو حديث نفس، استبدَّ بها الحزن والحسرة على ماصار إليه القوم، جرى على لسانه تعبيرا عما يعتمل فى صدره، وليس بلازم أن يكون الخطاب للأحياء، فقد خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلى بدر بعد هلاكهم، وهو الوجه الذى استظهره الزمخشري، وإن كان قد أجاز فى وجه أن يكون مؤخرا من تقديم. قال جار الله : (الظاهر أنه كان مشاهدا لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعد ما أبصرهم جاثمين تولّى مُغتمٍّ متحسّر على مافاته من إيمانهم، يتحزّن لهم) (١).

إن القرآن حين يعدل فى بعض المواضع عن الترتيب الوجودى بالفاء، تحقيقا لأغراض النظم ، لا يخالف طرائق العرب، ولايخرج عن سَنَنهم فى كلامهم. فهذا المساور بن هند، وهو شاعر مخضرم يصف فى قصيدة مطلعها:

أودى الشباب فماله مُتفقّر وفقدت أترابى فأين المغبر

يصف إعراض الغوانى عنه، فيقول :

ورأين شيخا قد تحنّى صلبه يمشى فيُقْعى أو يُكِبُّ فيعثر

فيقدم الإكباب على العِثار، مع أن الأخير أسبق فى الوجود، وقد

---

(١) الكشاف ٢/٩١.

علق المرزوقى على ذلك بقوله : (وكان الواجب أن يقول : أو يعثُر فيُكبّ، لأن العثار قبل السقوط للوجه، لكنه لم يبال بتغيير الترتيب، لأمنه من الالتباس، وهذا دون مايجيء فى كلامهم من القلب)[١].

هذا التعليل للخروج على الترتيب المألوف بالأمن من الالتباس ، لايرتفع إلى مستوى الكشف عن المعانى المخبوءة فى النفس، والتى أراد الشاعر أن يبثّها فى نفس مخاطبه، من خلال تعمّده عكس الترتيب.. فقد صار إلى حال انعكست فيها الأمور، وانقلب ذنَبُها رأسا، وأدبرت عنه الغوانى من بعد إقبال، وعفِن لقاءه بعد أن كُنّ يتحرقن شوقا إليه، وتسرب الوهن إلى بدنه ونفسه، وتقدَّم ماكان متأخرا، وتأخر ماكان متقدّما، ولايعبر عن هذا الانقلاب فى حياته وحيوات الناس من حوله، إلا أن يعكس ترتيب الألفاظ على لسانه، ليومىء إلى هذا الاختلال الذى يحس به، والتناقض بين أمسه ويومه على مايتزاحم فى نفسه. ألا ترى إلى قوله قبل هذا البيت :

ورأين رأسى صار وجها كله إلاَّ قفاى ولحية ماتُضفر

كيف قدم لنا فيه صورة ساخرة لسقوط شعر رأسه، حتى صار وجها بلا رأس، مضيا إلى الغاية فى رسم الصورة المقلوبة لنفسه ومجتمعه.

ومما وقع فيه قلب الترتيب بالفاء، ماحكاه الله تعالى فى قصة المعراج: **﴿علّمه شديد القوى ذو مِرّة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدني﴾**[٢].

قال الفراء : (كأن المعنى : ثم تدلّى فدنا، ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا، أو كالوا حد، قدمّت أيهما شئت، فقلت : قد دنا فقرب، وقرب فدنا، وشتمنى فأساء، وأساء فشتمني، وقال الباطل، لأن الشتم والإساءة شيء واحد) [٣]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٤٦/١ .
(٢) النجم ٥ - ٩.
(٣) معاني القرآن ٩٥/٣ .

هذا التعليل لتأخير التدلى مع كونه أحق بالتقديم غايته تصحيح العطف على الصورة التى جاء بها النظم، وهو فى سبيل ذلك لايبالى أن يعطف الشيء على نفسه، لأن الفعلين فى نظره مترادفان، وهو مالايليق بالنظم الكريم.

وإذا كانت المعاجم قد ذكرت فى معانى التدلى : النزول من العلو، والقرب بعد علو، والتواضع، والإدلال[1] فإن أنسب المعانى هنا هو النزول من العلو، ليتناغم مع قوله تعالى : ﴿وهو بالأفق الأعلي﴾ ويكون المعنى على نزول جبريل ليدنو من الرسول عليه السلام. وكان ظاهر النسق يقتضى أن يقال : تدلى فدنا، لكن القرآن عدل إلى ماعليه النظم على سبيل القلب، كما نصّ عليه أبو البقاء، وعدّه من قلب العطف، قائلا : (أى تدلى فدنا، لأنه بالتدلى مال إلى الدنوّ) [2] ولعل الغرض من هذا القلب هو الإشعار بأن هذا الحدث قد أحاطت به خوارق العادات، فهو يجرى فى عالم الغيب، حيث لايمكن تصور وقائعه على قياس مايجرى فى عالمنا، ولايمكن إخضاعه للقوانين التى اعتدناها فى عالم الشهادة، إنه رمز للإعجاز فى الزمان والمكان والحدث، ولاغرابة فى أن تسبق الغايات الوسائل، ويقع الدنوُ قبل التدلي، فى عالم يعجز العقل عن تصور حقائقه. المهم أن يكون سبق التدلى مشيرا لأهميته فى إجلال النبى وتكريمه، حين يكون سعى جبريل إليه فى محاولة للتقرب منه تشريفاً وتعظيما لمن استضافته السماء فى هذه الليلة الكريمة.

أما ماذهب إليه المفسّرون من تفسير التدلى بتعلّق جبريل بالنبى عليه السلام كما تتدلّى الثمرة من أغصانها [3] فهو كذلك لايعدو أن يكون محاولة متكلّفة لتصحيح الترتيب فى الفاء، وإلا فما الغرض من هذا التصور العجيب لتعلق جبريل فى الهواء معتمدا على الرسول عليه السلام؟ أفلا يتعارض هذا التعلق مع قوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدني) بحكم أن التعلق ملاصقةُ لاقرب، فلا يكون حينئذ مجال

---

(١) ينظر لسان العرب مادة : دلا.　　(٢) الكليات ٧/٤ .

(٣) ينظر الكشاف ٢٨/٤.

لتقدير مسافة القرب بقوسين أو مادونهما؟!

ومما خالف ظاهر الترتيب فى العطف بالفاء، قوله تعالى : **﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾** (١)

فإرادة تعييب السفينة فى الحقيقة مترتبة على مجموع أمرين، هما : كون السفينة لمساكين، والخوف من اغتصاب الملك لها، إذ لولا هذا الخوف لكان عمل الخضر عليه السلام إضرارا بالسفينة وأصحابها، وهو الأمر الذى خفى على موسى عليه السلام فاعترض عليه، وكان سببا فى فراقه، ولو روعى أصل الترتيب، لقيل : وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا، فأردت أن أعيبها، لكن النظم الحكيم عمد إلى تقديم إرادة العيب، بحيث تقع مترتبة على كون السفينة لمساكين، إشارة إلى أنه هو السبب الأصيل فى حرصه على تعييبها واستنقاذها من استيلاء الملك عليها، وإلا فإنه لم يفعل ذلك فى غير هذه السفينة، وهى معرضة مثلها للاغتصاب، فلو أخر المعطوف على الأصل من الترتيب لأوهم فى بادىء الأمر أن التعييب مسبب عن صنيع الملك، وليس هو الأساس فى فعل الخضر عليه السلام، وذلك ما أحسن العلامة أبو السعود الوقوع عليه حين قال : (ولعل تفريع إرادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب، مع أن مدارها كلا الأمرين للاعتناء بشأنها، إذ هى المحتاجة إلى التأويل، وللإيذان بأن الأقوى فى المدارية هو الأمر الأول، ولذلك لايبالى بتخليص سفن سائر الناس، مع تحقق خوف الغصب فى حقهم أيضا). (٢)

ومن تقدم الغاية على الوسيلة فيما عطف بالفاء قوله تعالى فى حكاية دعاء ابراهيم عليه السلام : **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة**

---

(١) الكهف ٧٩. (٢) تفسير أبي السعود ٥/٢٣٨.

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ (١)

لقد كان المقصد الأسنى من ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى هذه البقعة المباركة من أرض الله، وإسكان ذريته بجوار البيت المحرم الذى رفع هو وإسماعيل قواعده، هو إحياؤه بالعبادة، وإقامة الصلاة فيه، ولكى تتوافر ذريته على تحقيق هذه الغاية السامية، دعا إبراهيم ربه أن يعطف إليهم قلوب خلقه، ويربط أفئدة العباد ببيته، ويسبغ على حراسه وسدنته من رزقه مايعينهم على إقامة الشعائر فيه، لذلك جاء ترتيب الألفاظ على غير الأصل من تقديم الأسباب والوسائل على المسببات والغايات، إذ لو روعى ذلك لقيل : فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات ليقيموا الصلاة، لكنه خالف هذا النسق حتى لاينشغل من وكل الله إليهم أمر بيته بالوسائل عن الغايات، التى من أجلها عانت هذه الأسرة ماعانت، وحتى لايربط آل إسماعيل خدمتهم للبيت، وقيامهم على أمره، بعرَض من أعراض الدنيا، فهم أصحاب رسالة يؤدونها، وإن ضاقت بهم سبل العيش. هذا إلى جانب الإشارة إلى أن إخلاصهم لبيت الله وتفانيهم فى الحرص على إقامة الشعائر فيه، هو الذى يحقق لهم ماضمنه الله للمتقين من العيش الكريم، كما نطقت به الآية الكريمة : **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾** (٢)

---

(١) ابراهيم ٣٧ .   (٢) الأعراف ٩٦

التفاوت الرتبى وأسرار التجوز فيه

التفاوت الرتبى من أعظم مواقع الفاء وأكثرها امتلاء بالمعانى والإشارات التى تغرى الباحث بالكشف عنها، واستجلاء أسرارها، وهو معنى افترعه الزمخشرى وأكثر من تطبيقه على النصوص القرآنيه فى حرفى التعقيب والمهلة، وسيتضح لك عند الحديث على "(ثم) الفرق بين التفاوت الرتبى فى الحرفين.

ولعل الزمخشرى قد اهتدى فى قوله بالتفاوت الرتبى بإشارات لمن سبقه من العلماء، منها إشارة للراغب فى المفردات سنذكرها فى الحديث عن (ثم)، وإشارة نذكرها الآن للزجاج منقولة عن لسان العرب، فى قوله تعالي: **﴿ثم دنا فتدلي﴾** (١). قال الزجاج : (معنى دنا فتدلى واحد، لأن المعنى أنه قرب فتدلي، أى زاد فى القرب) (٢) فكأن دخول الفاء بين لفظين متحدين معني، يضفى على الثانى زيادة فى المعني، بما يحقق لونا من التغاير يصح به العطف، فيكون ترقيا من دنوّ إلى دنوّ أشد منه، وإلا كان الترادف ودخول العاطف بين المترادفين عبثا يتنزه عن مثله كلام الفصحاء، فضلا عن الكلام المعجز.

التفاوت بين المفردات

دلالة الفاء على التفاوت الرتبى من المعانى المجازية التى يستعار فيها الترتب الزمانى للدلالة على التدرج فى الفضل والشرف، وهو مادرج عليه المفسرون تبعا للزمخشري، لكن الشيخ الطاهر بن عاشور أضاف وجها آخر فى التجوز بها عن هذا المعني، وهو أن تكون مجازا مرسلا بعلاقة الإطلاق والتقييد، فقال فى قوله تعالى : **﴿إن الله لايستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾**(٣) (والفاء عاطفة (مافوقها) على (بعوضة) أفادت تشريكهما فى ضرب المثل بهما، وحقها أن تفيد الترتيب والتعقيب، وإنما استعملت فى معنى التدرج

---

(١) النجم ٨. (٢) لسان العرب مادة دلا . (٣) البقرة ٢٦.

فى الرتب، بين مفاعيل (أن يضرب). ولاتفيد أن ضرب المثل يكون بالبعوضة، ويعقبه ضربه بما فوقها، بل المراد بيان المثل بأنه البعوضة، ومايتدرج فى مراتب القوة، زائدا عليها درجة تلى درجة، فالفاء فى مثل هذا مجاز مرسل علاقته الإطلاق عن القيد، لأن الفاء موضوعة للتعقيب الذى هو اتصال خاص، فاستعملت فى مطلق الاتصال، أو هى مستعارة للتدرّج، لأنه شبيه بالتعقيب فى التأخر فى التعقل، كما أن التعقيب تأخر فى الحصول) (١)

ولاشك أن حمل المجاز على الاستعارة فى معنى الحرف هو القول الفحل، والأبعد عن التكلف فى العلاقة، وذلك على تشبيه الترتب فى الشرف والفضل بالترتب فى الوجود، وهو ماينبيء عنه كلام رجالات البيان.

ثم إن الترتيب المجازى بالفاء قد يكون تصعّدا من الأدنى إلى الأعلي، على سبيل الترقى فى الفضل أو الشدة، وقد يكون بالعكس، على سبيل التنزُّل، بدءا بالأهم، وانتهاء بما هو دونه أهمية.

وقد تجاذب الترقى فى هذه الآية وجْهَاه، وهما على ماقال الرازى : (أحدهما أن يكون المراد : فما هو أعظم منها فى الجثة، كالذباب، والعنكبوت، والحمار، والكلب، فإن القوم أنكروا تمثيل الله تعالى بكل هذه الأشياء، والثانى أراد بما فوقها فى الصغر، أى بما هو أصغر منها، والمحققون مالوا إلى هذا القول لوجوه، أحدها أن المقصد من هذا التمثيل تحقير الأوثان، وكلما كان المشبه به أشد حقارة، كان المقصود فى هذا الباب أكمل حصولا، وثانيها أن الغرض ههنا بيان أن الله تعالى لايمتنع عن التمثيل بالشيء الحقير، وفى مثل هذا الموضع يجب أن يكون المذكور ثانيا أشد حقارة من الأول) (٢)

هذه الدلالات فى الفاء، تصعّدا وتحدرا، دليل على ثراء معانيها المجازية، فهى تعطى معنى الترتُّب فى الأحداث والصفات، بدءا بالأدنى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٦٣/١.

(٢) تفسير الرازى ١٤٨/٢.

وانتهاء بالأعلي، إبرازا لعلو درجة المعطوف، أو بدءا بالأعلي، ليتجاوب تقديمه فى اللفظ مع تقدمه فى المنزلة والشرف. وقد مال المحققون إلى الوجه الثانى من التفاوت، لأنه أبلغ فى الرد على من أنكروا ضرب الله الأمثال بالمحقَّرات من الأشياء، فقيل لهم : إن الله لايستحيي أن يضرب المثل المقّرب للمعنى بما هو حقير كالبعوضة، بل ولابما هو أحقر منها، وهذا وإن كان تنُّزلا بدرجة المعطوف، فهو فى الوقت نفسه ترقٍ فى الرد، وتناه فى بيان الحكمة من ضرب الأمثال.

من هذا الضرب قوله عليه السلام - فيما أخرجه الترمذى - حين سئل (أى الناس أشد بلاء؟ فقال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) فبدأ بالأشرف وانتهى بالأقل شرفا. ولعلك تلمس بعد المنزلة بين الأنبياء ومن سواهم من صالحى المؤمنين، حيث دل على ذلك بإدخال حرف التراخى بين الأنبياء وعامة المؤمنين، وهو دال على عظيم التفاوت بينهم، وأدخل حرف التعقيب للدلالة على تفاضل المؤمنين فيما بينهم، وهو تفاوت لايرقى إلى درجة التفاوت بين الأنبياء والصالحين.

وعلى العكس من ذلك جاء قوله عليه السلام : (أعظم الناس أجرا فى الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشي) (١) حيث يتعاظم الأجر كلما ازداد البعد، وطال المشي.

والحديث عن التفاوت الرتبى فى عطف المفردات فى الذكر الحكيم محدود، لقلة نماذج هذا النوع من العطف فى القرآن، حتى قال المرحوم الشيخ عضيمة : إن عطفها للاسم المفرد جاء فى نوع معين لم تتجاوزه فى القرآن : هو عطف الصفات، فكل ماوردت فيه الفاء عاطفة للاسم المفرد فى القرآن كان اسم فاعل، معطوفا على اسم فاعل) (٢)

ولعل المثال السابق استدراك على الشيخ، فهو من عطف المفردات وليس المتعاطفان صفتين، ولا اسم فاعل.

---

(١) أخرجه البخارى في كتاب الأذان .

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم - القسم الأول ٢/٢٣٤ .

والحق أننى لم أجد ما أستدرك به على الشيخ سوى هذا المثال، وماعداه من عطف المفردات فهو - فيما أحصيت - من عطف الصفات، ولذلك كان هذا العطف مدار الحديث فى التفاوت الرتبى عند الزمخشرى ومن تابعوه.

ففى قوله تعالى : ﴿**والصافات صفا. فالزاجرات زجرا. فالتاليات ذكرا. إن إلهكم لواحد**﴾ (١) قال الزمخشرى : (فإن قلت : ماحكم الفاء إذا جاءت عاطفة فى الصفات؟ قلت : إما أن تدل على ترتب معانيها فى الوجود، كقوله :

يالهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب

كأنه قيل : الذى صبح فغنم فآب.

وإما على ترتيبها فى التفاوت من بعض الوجوه، كقولك : خذ الأفضل فالأكمل، واعمل الأحسن فالأجمل، وإما على ترتب موصوفاتها فى ذلك، كقولك : رحم الله المحلقين فالمقصرين، فعلى هذه القرائن الثلاثة ينساق أمر العاطفة فى الصفات، فإن قلت : فعلى أى هذه القوانين هى فيما أنت بصدده، قلت : إن وحّدت الموصوف كانت للدلالة على ترتب الصفات فى التفاضل، وإن ثلّثته فهى للدلالة على ترتب الموصوفات فيه) (٢)

فالترتيب على ماذهب إليه الزمخشرى فى هذه الآيات، لايصحّ إلا على وجه مجازى هو ترتبها فى الفضل، إما بين الصفات إذا أجريت على موصوف واحد، كالملائكة الصافات أجنحتها فى الهواء، فالزاجرات السحاب سوقا، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزّلة، ويكون ترتبها ترقيا من الأدنى إلى الأعلي، أو العكس، بدْءاً بما هو أهم ، تنبيها على فضل المقدّم واعتناء به. وإما بين الموصوفين، إذا أجْريت الصفات على طوائف مختلفة، كأن تكون الصافات وصفا للملائكة، والزاجرات لقواد الغزاة الذين يزجرون الخيل جهادا فى سبيل الله، والتاليات

---

(١) الصافات ١ - ٤. (٢) الكشاف ٣/٣٣٤.

الذكر للعلماء. والترتيب بين الموصوفات ترتيب رتبى أيضا، بدءا بالأهم أو ترقيا من الأدنى إلى الأعلي، وهو على الوجهين المحتملين ترتب مجازى ، تستعار فيه الفاء الدالة على الترتيب الوجودى للترتيب ، فى الفضل والشرف.

وقد حمل الزمخشرى هذه الآيات وماشابهها من عطف الصفات بالفاء فى الذكر الحكيم على التفاوت الرتبى، واستبعد الترتيب الوجودى الذى قال إنه أحد وجوه الترتيب فى البيت الذى مثّل به، وكذلك قال المفسرون من بعده، وكأنهم رأوا عدم إمكان الترتب الحقيقى بين صفات لاتتابع فى وقوعها، إذ الصفّ، والزجر، وتلاوة الذكر لايظهر فى نسقها مايدل على سبق صفة لأخرى، كما لايظهر فى الموصوفين بها على القول بتعدّدهم مايدل على تقدم موصوف على آخر تقدّما وجوديا.

وعلى الرغم من وجاهة القول بالتفاوت الرتبى، ومايشيعه التجوز فيه من إيحاءات، فإننى أرى حمل الفاء على أصلها من الترتيب الحقيقى فى هذا الموضع وما أشبهه، أدقّ تصويرا لحركة الأحداث وتتابعها، شريطة استبعاد دلالة هذه الصفات على موصوفات مختلفة، مما لايتلاءم مع طبيعة الفاء، التى تتميز عن الواو بربط الأحداث على وجه يظهر فيه بناء الثانى على الأول، وهو خصوصية فى الفاء كانت سببا فى إبعادها من مبحث الفصل والوصل، فلو أن هذه الصفات لموصوفات مختلفة لكانت الواو بما فيها من التمايز والاستقلال بين المعطوفات أحق بهذا الموضوع من الفاء.

والدليل على ذلك أنه حين اختلفت الطوائف التى جرت عليها الصفات، جاءت الواو فارقة بينها، فى قوله تعالى : **﴿والمرسلات عرفا. فالعاصفات عصفا. والناشرات نشرا. فالفارقات فرقا. فالملقيات ذكرا﴾**(١) فلما دخلت الواو بين الناشرات والمرسلات دلت على أنهما طائفتان، كل طائفة اتصفت بصفتين على سبيل التعاقب،

---

(١) المرسلات ١ - ٥.

ويشهد لذلك صاحب الكشاف حين قال فى تفسيرها (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن فى مضيّهن، كما تعصف الرياح تخفُّفا فى امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع فى الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر، والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكرا إلى الأنبياء) [١] فجعل ماقبل الواو طائفة من الملائكة، ارتبط وصفها بالإرسال بوصفها بالعصف على سبيل التتابع الحقيقي، وجعل مابعد الواو طائفة أخري، موصوفة بثلاث صفات متتابعة هى النشر فالفرق، فالإلقاء، وأدت الفاء دورها فى تتابع حركات هذه الطائفة، بما يُنبيء عن ترتّب وجودى بين هذه الصفات. وكان الألوسى صريحا فى إيضاح الفرق بين العاطفين، حين قال : (وعطف الناشرات على ماقبل الواو ظاهر للتغاير بالذات بينهما، وعطف العاصفات على المرسلات والفارقات على الناشرات، وكذا مابعد الفاء لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات)[٢].

ومثله قوله تعالى فى سورة النازعات حيث دلّت الواو على التمايز بين طوائف مختلفة : ﴿**والنازعات غرقا. والناشطات نشطا. والسابحات سبحا. فالسابقات سبقا. فالمدبّرات أمرا**﴾[٣] وفيه قال الزمخشرى : (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة التى تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التى تنشطها، أى تخرجها، من : نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التى تسبح فى مضيها، أى تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر أمرا من أمور العباد)[٤]

لاحظ قوله بعد كل واو : (وبطوائف) ثم قوله مع الفاء : (تسرع، فتسبق، .. فتدبر) وهو لايحتاج إلى تعليق.

---

(١) الكشاف ٢٠٢/٤.
(٢) روح المعانى ١٦٩/٢٩ .
(٣) النازعات ١ - ٥ .
(٤) الكشاف ٢٠٢/٤.

لذلك أميل فى تفسير المواضع التى تعطف فيها الصفات بالفاء، إلى جعلها لموصوف واحد، تتوالى أفعاله فى تحدّر واتساق يتلاءم مع طبيعة هذا الحرف، ففى سورة الصافّات أرجح أن يكون المقصود هو قواد الغزاة، الذين يستعدون لشن الغارة على عدوهم، فيصفّون جنودهم، فيزجرون الخيل حثًّا لها على الإسراع إلى مواقع القتال، فيسبحون الله ويضرعون إليه طلبا لنصره، بعد أن استنفدوا وسائل الاستعداد البشرية، وهى أفعال متتابعة، ربطت بينها الفاء، على وجه يظهر تواليها دون انقطاع، بما يدل على استغراقهم فيما رموا إليه من أهداف، دون أن يشغلهم عن وجهتهم شاغل من أمور الدنيا، وفى ذلك تعظيم للجهاد والمجاهدين.

ويمكن أن يكون الموصوف هو العلماء العاملين، الصافّين أنفسهم فى صفوف جماعات المسلمين، فيزجرونهم عن المعاصي، فيذكرونهم بآيات الله يتلونها عليهم، وهى كذلك أفعال متوالية، تبرز جهادهم المتواصل ودأباً فى الدعوة إلى الله لايملّ ولايتخاذل، وهى معان أو ردها على نحو قريب من هذا أبو السعود (١).

ويبدو هذا التعاقب فى حركات الأفعال جليًا فى قوله تعالى : **﴿والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسّمات أمرا، إنما توعدون لصادق﴾** (٢) فهى ترسم صورة لحركة الرياح، تثير السحاب، فتسوقه إلى حيث يقسم الله تعالى به أرزاق العباد، فتسقط الأمطار، حيث أراد الله تعالى لها أن تسقط، كما جاء فى سورة فاطر : **﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾**(٣) وفى الموضعين حرّكت الفاء الأحداث ووالت بينها، على وجه يبرز ترابط الأفعال وتتابعها، مضيا إلى الغاية التى رسمها الله تعالي. وهو وجه ذكره الألوسى وجعل الترتيب فيه حقيقيا، بعد أن ذكر وجوها تدل فيها الفاء

---

(١) تفسير أبي السعود ١٨٤/٧ (٢) الذاريات ١ - ٥ .

(٣) فاطر ٩ .

على الترتيب الرتبى. قال : (وإن حملت على واحد، وهو الرياح، فهى لترتيب الأفعال والصفات ، إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولا، حتى تنعقد سحابا، فتحمله ثانيا، وتجرى به ثالثا، ناشرة وسائقة، إلى حيث أمرها الله تعالي، ثم تقسم أمطاره) (١)

ومثله قوله تعالى : **﴿والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا. فالمغيرات صبحا. فأثرن به نقعا. فوسطن به جمعا﴾** (٢)

تقول بنت الشاطىء : (مشهد مثير لغارة مفاجئة، تُصبح القومَ على غير انتظار. وموقف المباغتة يلائمه قصر الآيات بما فيه من حسم، وسرعة الانتقال، وتلاحق الأحداث، مابين العدْو، وإيراء القَدْح، وإثارة النقع، إلى توسّط الجمع، فما إن تعدو الخيل ضبحا، حتى تكون قد توسطت الجمع فى النقع المثار ..... والعطف بالفاء فيه مع ملحظ السببية، ترتيب دون تراخ أو تمهل أو إبطاء) (٣)

غير أن للفاء الدالة على التفاوت الرتبى بين الصفات خلابتها وسحرها، حين تجعل الصفة الواحدة المستمرة صفات متغايرة، متفاوتة فى الرتبة والشدة ، للمبالغة فى الوعد أو الوعيد، ومثالها قوله تعالى: **﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم﴾**(٤) فإن الفاء تنتقل بالمشاهد من أمر عجيب إلى أمر آخر أعجب، ومن عذاب شديد إلى عذاب آخر أشد، مبالغة فى تهديد المكذّبين، فأنت ترقب الضالين يأكلون شرماكل، وهم مع ذلك يقبلون عليه فى نهم عجيب حتى تمتلىء بطونهم، فيقدمون على الشراب من ماء تناهى فى الحرارة، يقطّع أمعاءهم، ومع ذلك فهم يواصلون الشرب لايرتوون أبدا.

فإذا عدت إلى حقيقة الفاء بدلالتها على الترتيب الزمنى ضاعت المبالغة التى يوميء إليها الترتيب الرتبي، متدرّجا بالقاريء من أمر

---

(١) روح المعانى ٣/٢٧ .

(٢) العاديات ١ – ٥.

(٣) التفسير البيانى للقرآن الكريم ١/١٠٧.

(٤) الواقعة ٥١ – ٥٥.

عجيب الى ماهو أعجب، وكأنه يقول : إن تعجب من أكلهم من الزّقّوم، فان نهمهم فى الأكل منه إلى امتلاء البطون أعجب، وإن غرابة شُرْبهم من الحميم دون غرابة إفراطهم فى الشرب منه.

وانظر بعد ذلك كيف يتسلّط المعنى الوضعى للفاء من الترتيب الزمنى على بعض المفسرين، فيطفئون جذوة الفاء، ويميتونها بين أيديهم، كما نجده فى قول أبى حيان : (والفاء تقتضى التعقيب فى الشربين، وأنهم أولا لما عطشوا شربوا من الحميم، ظنا منهم أنه يُسَكِّن عطشهم، فازداد العطش بحرارة الحميم، فشربوا بعده شربا لايقع به رىٌّ أبدا، وهو مثل شرب الهيم، فهنا شربان من الحميم، لاشربٌ واحد، اختلفت صفتاه فعطف) (١)

أترى أباحيان يقول كذلك بأن الأكل من شجر الزقوم أكلان أيضا، وأنهم حين أكلوا من شجر الزقوم ظنوا أنهم يشبعون فوجدوا أنهم ازدادوا جوعا، فأقبلوا يأكلون لايشبعون أبدا ؟؟

إنه تكلُّفُ تصحيح الترتيب فى معنى الفاء، وليس ثمة أكلان ولاشربان، وإنما هو أكل ممتدّ، وشرب ممتدّ كذلك، وليس هناك مايبرّر العطف المقتضى للمغايرة إلا شدة التعجب من استمرارهم فى أكل ماهو مؤلم، وإفراطهم فى الشرب مما لايطاق تناول جرعة منه، فأُظْهِرَ التمادى على الأكل والشرب فى صورة أكل وشرب آخر أشدّ وأفظع. وذلك ما أبرزه جار الله الزمخشري، واستلهم أسراره، فقال : (فإن قلت: كيف صحّ عطف الشاربين على الشاربين، وهما لذوات متفقة، وصفتان متفقتان، فكان عطفا للشيء على نفسه؟ قلت : ليستا بمتفقتين، من حيث إن كونهم شاربين للحميم على ماهو عليه من تناهى الحرارة، وقطع الأمعاء أمر عجيب، وشربهم له على ذلك كما تشرب الهيم أمر عجيب أيضا، فكانتا صفتين مختلفتين).(٢)

---

(١) البحر المحيط ٢١٠/٨ .　　(١) الكشاف ٥٦/٤ .

التفاوت بين الجمل :

وقريب من ذلك فى الغرض وإن كان من عطف الجمل، قوله تعالى: **﴿قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**(١) فليس إكثار الجدال شيئا آخر غير ماعطف عليه، بل هو جدال واحد تتابع وتزايد، حتى ضاق قومه ذرعا بتماديه على الدعوة وإلحاحه فيها، قبل أن يضيق هو باستمرارهم على الكفر والعناد، إن الفاء هنا - بمعنى التفاوت الرتبى فيها - هى التى تجسد صبر نوح عليه السلام وإصراره على مواصلة الدعوة، دون أن تفتّ القرون المتطاولة فى عضده، بل هو يطور دعوته ويزيد فى وسائلها، كلما ازداد قومه عنادا وكفرانا، وهو ما جأر به إلى الله تعالى فى النهاية بعد أن استنفد كل وسائل الدعوة **﴿قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائى إلا فرارا. وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. ثم إنى دعوتهم جهارا. ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾**(٢)

فإذا أول المؤولون (جادلتنا) بإرادة الجدال ليصح ترتيب المعطوف عليه، فقد ذهبوا بإشراقة هذا المعني، وأطفأوا جذوته، وأحالوا الفاء جسدا بلاروح، ولا أدرى ما الغرض من التجوز بالإرادة عن الفعل فى خطاب القوم له، وهم ضائقون بجدل وقع واستمر؟ .

إن ماقاله صاحب الكشف فى تفسير العطف هنا غاية فى الجودة (الظاهر أنه عبارة عن تماديه فى الجدال، أى أخذت فيه وشرعت فأكثرته وأطلته، وكذلك قولهم أجاد فلان فأكثر، وأعطى فأكثر، وقَوْلُهم : ولايراد به عطيتان، لأن الوصف أى الإكثار يجب أن يكون مقارنا للموصوف لايدفع ما آثرناه، بل يؤكده)(٣)

فَفَرْقٌ مابين الشروع والإطالة، أو مابين الفعل والتمادى عليه، هو

---

(١) هود/٣٢. (٢) نوح ٥ - ٩. (٣) كشف الكشاف ٤/١٠٢١.

التفاوت الرتبى الذى يجعل المعطوف أشد وأقوي، فاستحق دخول الفاء للإشارة إلى التدرج والارتقاء.

عطف المفصل على المجمل

كثر القول بعطف المفصل على المجمل فى آيات الذكر الحكيم، وعدّه النحاة وأهل البيان من الترتيب فى الإخبار، لا فى المخبَر به، ومضمون ذلك أن الخبر الثانى هو عين الأول، غير أن الأول خبرٌ مجمل، والثانى مفصّل، فكأن المتكلم بعد أن القى الخبر مجملا، استأنف إخبارا آخر يفصل فيه ما أجمله. ولاشك أن التفصيل بعد الإجمال ضربٌ من البيان الرفيع، يوقظ قوى الإدراك عند المتلقي، ويبعث فضوله، ويحرك شوقه - حين يلقى إليه الخبر مجملا - إلى البيان والتفسير. لكن هناك أمرا يستدعى الوقوف عنده، وهو أن الشأن فى البيان أن يتصل بالمبيَّن اتصالا ذاتيا يستغنى عن واصل لفظي، لذلك عدّه البيانيون من مواضع الفصل، ومنعوا عطفه بالواو، لأنه من عطف الشيء على نفسه، ومنع الزمخشرى عطفه بالفاء أيضا فى قوله تعالي: ﴿**يا أيها الإنسان ماغرك بربك الكريم. الذى خلقك فسواك فعدلك. فى أى صورة ماشاء ركبك**﴾[1] حيث علل ترك العطف بالفاء فى قوله (فى أى صورة ماشاء ركبك) كما نسقت الجمل قبلها بالفاء، بقوله : (فإن قلت : هلا عطفت هذه الجملة كما عطف ماقبلها؟ قلت : لأنه بيان لعَدَلك) [2]

فلم دخلت الفاء بين المفصّل والمجمل، والتفصيل بيان لما أجمل وتفسير له، حتى سميت هذه الفاء تفسيرية؟ وكيف يقال به فى القرآن، والبعض يرى أن عطف التفسير ليس من أساليب البلغاء؟ كما صرح به المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى قوله : (وأما مايسمونه عطف تفسير مماليس فيه مغايرة بين المعطوفين، فليس من أسلوب البلغاء، وإنما يأتى فى أسلوب المؤلفين وأشباههم)[3]

---

(١) الانفطار ٦ - ٨ .　(٢) الكشاف ٢٢٨/٤.　(٣) البلاغة العالية ١٠٦.

لقد اكتفى البعض ببيان صحة العطف، دون النفاذ إلى سره، ولا إلى سر إيثار الفاء من بين حروف العطف فى مواضعها. من مثل قول أبى البقاء فى كلياته : (يصحّ عطف المفسِّر على المفسَّر باعتبار الاتحاد النوعي، والتغاير الشخصي)[1] وهو - كما ترى - يقف عند الصحة، لايتجاوزها إلى مايطمح إليه أصحاب الأذواق.

وإلى مثله ذهب العينى فى معرض شرحه لقول أبى ذر رضى الله عنه : (إنّى ساببت رجلا فَعَيَّرته بأمه). قال العينى : (قوله (فَعَيَّرته) عطف على ساببته. فإن قلت : هذا عطف الشيء على نفسه، لأن التَّعْيير هو نفس السَّبّ، وكيف تصح الفاء بينهما، وشرط المعطوفين مغايرتهما؟ قلت : هما متغايران بحسب المفهوم من اللفظ، ومثل هذه الفاء تسمى بالفاء التفسيرية) [2]

إن التغاير الذى نراه مع دخول الفاء المرتِّبة هو التفاوت بين المتعاطفين فى المنزلة، وذلك فى مواقف تتطلب الترقى فى الإيضاح والبيان، كالاستعطاف، والتهديد، والإدلال بالقدرة، والتشديد على المخاطب، وغير ذلك من الأغراض، التى تتدرج الفاء فيها من شديد إلى أشد، أو عظيم إلى أعظم منه، وغير ذلك.

ففى مجال الاستعطاف جاء قوله تعالى : **﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾**[3]فما بعد الفاء تفصيل للنداء، وتعقيبه بالفاء دلالة على أنه أبلغ فى الاستعطاف، لما تضمنه من بسط الشكوى واستنجاز الله وعده بإنجاء أهله، والثناء عليه بما هو أهله من العلم والعدل، وكأن الله يقول: دعا نوح ربه فبالغ فى دعائه ومع ذلك فلم يجب إلى مادعا به، لأنه لاشفاعة لمن آثر الكفر على الإيمان، ألا ترى كيف عدل عن ضمير المتكلم، فلم يقل : ونادانا نوح، كما قال : **﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾** [4] ليشعرك من باديء الأمر إلى أن مادعا به نوح مما لايجاب

(١) الكليات ٢٥١/٥ .
(٢) عمدة القارى ٢٠٤/١ .
(٣) هود ٤٥ .
(٤) الصافات ٧٥.

إليه، مهما أفرط فى دعائه، وبالغ فى شكواه. ومن ثم حكى الله النداء بصيغة الغائب (ونادى نوح ربه).

لذلك فضَّل صاحب الكشف أن تكون الفاء لتعقيب الإجمال بالتفصيل، على القول بالتجوز فى فعل النداء بإرادة النداء، كما ذهب إليه الزمخشري، قال فى الكشف : (لو قيل إنه تفصيل للمجمل، وهو تعقيبه لكان سديدا). [١] ذلك لأن تعقيب الخبر المجمل بخبر مفصل تدرُّج وارتقاء، وإبراز لفضل الزيادة فى المعطوف.

وفى مقام تعظيم المعطوف إدلالا بقدرة الله تعالى واستحقاقه الثناء والشكر جاء قوله تعالى : **﴿الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين﴾**[٢] قال أبو السعود : (والفاء فى (فأحسن) تفسيرية. فإن الإحسان عين التصوير) [٣] مثل هذا القول يوهم بأن الفاء لادورَ لها، إذ كان المفسِّر والمفسَّر شيئا واحدا، وهو فضلا عن مجافاته لما تقرر من أن العطف يوجب المغايرة، فإن فيه قصورا عن استيعاب أسرار النظم، ذلك أنه جاء فى سياق يتصدره لفظ الجلالة، مخبَرا عنه باسم الموصول، لحصر مدلول الصلة فى المبدع الحكيم، مما يشعر منذ البداية بكمال الخلْق، وعظمة الصنع، لأن الصانع هو الله، ثم ساق الحديث على نحو يبرز الجمال فى الخلق، لا أصل الخلق، فهو لايمتنُّ على عباده بخلق الأرض، وهى نعمة جليلة، وإنما بإبداعه فى جعلها قرارا، وذلك فوق الخلق نفسه، وكذلك بجعل السماء بناء محكما لافروج فيه، وليس بخلق السماء، وهو أمر أجلّ من خلقها، ثم كان إبداع البارى فى تصوير الإنسان هو نهاية الكمال فى الخلق، لذلك وقع مؤخرا على سبيل الترقي، بحسبانه أجمل مخلوقات الله صورة، ولما كان الحديث عن جمال الخلق، لا عن الخلق جاء الفعل "صوّركم" لاخَلَقكم، ثم جاء (فأحسن صوركم) انتهاء إلى الغاية فى إحكام الصنعة وإبداعها، فأدى العطف بالفاء دوره فى إبراز نعمة الله تعالى بإحسان صورته،

---

(١) كشف الكشاف ١٠٣٠/٤. (٢) غافر ٦٤ . (٣) تفسير أبي السعود ٢٨٢/٧

وكأن التصوير نعمة، وإبداعه على أحسن صورة نعمة أجل وأعظم، فهو ترتيب رتبى لاوجودي، لأن إحسان الصورة مقارن للتصوير، لاواقع بعده، وفى ذلك حثّ على تجديد النظر وتكراره، وتأمّل جوانب هذه الصورة البديعة من خلق الله ﴿**وفى أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ (١) ولعل السعد فى حاشيته على الكشاف مسّ ذلك المعنى برفق حين قال : (وجه الفاء أن إحسان الصورة بعد التصوير بحسب الاعتبار، وإن لم يكن بحسب الوجود) (٢) فالاعتبار منظور فيه الى حال المخاطب فى إدراكه الصورة جملة أولا، ثم تأمُّل دقائقها ووجوه الإحسان فيها ثانيا، ارتقاء من النظرة الكلية، إلى النظرة الفاحصة المستوعبة لأجزاء الصورة، وارتقاء من إدراك حقيقة المصوَّر إلى إدراك الحسن فيه.

وفى مقام التشديد على بنى إسرائيل جَاء قوله تعالى : ﴿**وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم**﴾ (٣) فعطف قتل النفس على التوبة، وليس قتل النفس شيئا آخر غير المعطوف عليه. قال الطبرى : (ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم، والإنابة إلى الله من ردّتهم بالتوبة اليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به، وأخبرهم بأن توبتهم من الذنب الذى ركبوه، قتلُهم أنفسهم) (٤)

فى عبارة الطبرى هذه دليل على أن التوبة المأمورين بها هى القتل، وقوله (وأخبرهم بأن توبتهم من الذنب الذى ركبوه قتلهم أنفسهم) ناطق بأنه من ترتيب الإخبار، لا من الترتيب فى الوجود، إذ كان القتل هو عين التوبة، وإلى هذا ذهب الكثير من المفسرين، فجعلوه من عطف المفصّل على المجمل، وتأول بعضهم التوبة بالعزم على سبيل المجاز المرسل، لتصحيح معنى الترتيب الوجودى فى الفاء، وكأن المعنى : فاعزموا على التوبة، فاقتلوا وهو فى نظرى تكلف، دعا إليه

---

(١) الذاريات ٢١ . (٢) حاشية السعد ٦٧٢/٢ .

(٣) البقرة ٥٤ . (٤) تفسير الطبرى ٧٢/٢.

الجرْي وراء وجه يُبقي الفاء فيه علي دلالتها الوضعية، مفيدة للترتيب الزمني.

إن الطريق إلي التكفير عن جرائم بني إسرائيل، وظلمهم أنفسهم بالمعاصي هو التوبة، وهو مادعا إليه موسي بني إسرائيل، ولما كانت جرائمهم بلغت حداً من الفظاعة تجاوز كل تصور، شدد الله تعالي عليهم في نوع هذه التوبة، بما يتناسب مع عظم جناياتهم، فاحتاجت إلي البيان، وهو (فاقتلوا أنفسكم). ولما كان المعطوف نوعا غريبا غير معهود في التوبة عطف بالفاء، للإشارة إلي تفاوته عن المعطوف عليه، وأنه درجة من التوبة، لايقدر عليها إلا من صحَّ عزمه علي تطهير نفسه، وعِتقِها من عذاب النار. فهو تفاوت مجازي بين العزم علي الإقلاع من الذنوب واللجوء إلي الله، وبين قتل النفس في الشدة والدلالة علي كمال التوبة، وهو أحد وجوه ذكرها صاحب الكشاف حين قال : (ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم، فيكون المعني : فتوبوا فأتبعوا التوبة القتلَ تتمة لتوبتكم) (١) وسواء فُسِّر قوله هذا بأنه من عطف الخاص علي العام، أم من عطف البيان، فإن الفاء بدلالتها علي التدرّج الرتبي أبرزت غرابة هذا الفعل، وامتيازه عن التوبة المعهودة، حتي صار لشدة غرابته شيئا أخر كلفوا به فوق التوبة.

وبمثله فسّر الشهاب الخفاجي عطف التكذيب بالفاء، في قوله تعالي : **﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر﴾** (٢) فقال (ويجوز أن يكون معني الأول : قصدوا التكذيب وابتدءوه، ومعني الثاني : أتموه وبلغوا نهايته) (٣)

فالتكذيب الأول دون ماعطف عليه، حيث ازدادوا عنادا وإصرارا علي الكفر، حتي وصل معه الأمر إلي اتهام النبي الكريم بالجنون، ففي قول الشهاب "(أتموه وبلغوا نهايته) إفصاح عن سر الفاء حيث ترقّت من تكذيب إلي تكذيب أتمّ وأبلغ، ألا تري كيف حذف المفعول في الأول،

---

(١) الكشاف ٨٢١/١.　　(٢) القمر ٩.　　(٣) حاشية الشهاب ١٢٢/٨.

تركيزا علي فعل التكذيب، وذُكِر في المعطوف بلفظ العبودية المشرفة للموصوف بها، وأضيف إلي المعبود، فأضفي علي المعطوف درجة من التعظيم، جعلت التكذيب فيه أشد وأبلغ، فدخلت الفاء دالة علي التفاوت بين المتعاطفين.

وفي مقام التعظيم، جاء قوله تعالي : **﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثي بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله﴾** [1] قال الزمخشري : (فالذين هاجروا) تفصيل لعمل العامل منهم علي سبيل التعظيم له والتفخيم)[2] فإن الفاء دلت علي عظم درجة المهاجرين والمجاهدين في سبيل الله، وكأنهم فاقوا العاملين في درجتهم عند الله تعالي حتي صاروا جنسا مستقلا عنهم، لذلك أطنب في أوصافهم بما يظهر فضلهم، ودلت الفاء علي التفاوت في الفضل وكمال العمل في الهجرة والجهاد.

---

(١) آل عمران ١٩٥.　　(٢) الكشاف ١/٤٩٠.

الفاء وطَيُّ الزمن

التعقيب من المعاني التي اختصت بها الفاء، وبه وحده امتازت عن شقيقتها (ثم)، ويقصد بالتعقيب : وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه بلا فاصل زمني. (فإذا قلت : قام زيد فعمرو، دلت علي أن قيام عمرو بعد زيد بلا مهلة. فتشارك (ثم) في إفادة الترتيب، وتفارقها في أنها تفيد الاتصال، و (ثم) تفيد الانفصال). (١)

ولكون التعقيب لازما في الفاء، وبه يتعلق الغرض من الكلام، بحسبانه أمرا زائدا علي مجر الإثبات، قال الرضي : (فإذا نفيت مثلا قولك : (جاءني زيد فعمرو)، فقلت : (ماجاءني زيد فعمرو)، فأنت نافٍ لتعقيب مجيء عمرو لمجيء زيد، فيمكن أن يحصل المجيئان في حال، وأن يحصل مجيء عمرو قبل مجيء زيد) (٢).

وهو كلام دقيق في فهم المعاني، ليس لدي أهل البيان عليه مزيد، غير أن هذا الذي جعله النحاة أصلا في معاني الفاء، وبه ميزوها عما سواها من حروف العطف، لم يّطرد لهم عند التطبيق علي لسان العرب، فلم يجدوا بدا من التوسع في معني التعقيب، فقالوا (هو في كل شيء بحسبه، ألا تري أنه يقال : تزوج فلان فولد له، إذا لم يكن بينهما إلا مدة الحمل، وإن كانت متطاولة، ودخلت البصرة فبغداد، إذا لم تُقِم في البصرة، ولابين البلدين، وقال الله تعالي : **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾**(٣).

وقيل : الفاء في هذه الآية للسببية، وفاء السببية لاتستلزم التعقيب، بدليل صحة قوله : (إن يسلم فهو يدخل الجنة) ومعلوم مابينهما من المهلة، وقيل : تقع الفاء تارة بمعني (ثم) ومنه الآية) (٤)

وهكذا تفاوتت الآراء في تفسير ماخالف ظاهره التعقيب، بين

---

(١) الجنى الدانى ٦١.
(٢) شرح الكافية ٢/٣٦٦.
(٣) الحج ٦٣.
(٤) مغنى اللبيب ١/١٦٢.

الاتساع في مفهوم المهلة، والقول بعدم لزوم التعقيب، ووقوع الفاء موقع (ثم).

وخير ماقيل في تفسير التعقيب والتراخي، وربطهما بدواعي الأحوال ومقتضيات السياق، ماقاله صاحب الفرائد، فأطبق به المفصل : (التعقيب والتراخي ربما يكون باعتبار قِصر الزمان الفاصل وطوله في نفسه، من غير لحاظ الشيئين المفصولين، وقد يلاحظ في ذلك حالهما، وحينئذ ربما يستقصر الزمان الطويل بين شيئين، فيؤتي بالفاء لكون العادة مقتضية لمثله، أو أزيد منه، ويستطال القصر بين آخرين، فيؤتي بثم لاقتضاء العادة أقل منه، يقال : فلان تزوج فولد له، والفصل بينهما بشهور، وأكل ثم شرب، والفصل بساعات، ثم إنه يستقصر الزمان بين شيئين تارة لاعتبار مناسب، فيؤتي بالفاء، ويستطال ذلك الزمان بعينه بين ذينك الشيئين أخرى ، لاعتبار آخر، فيؤتي بثُمّ، وربما يكون الإتيان بالفاء، باعتبار قلة الفاصل من الزمان بينهما، وبثم باعتبار كثرة التفاوت في الدرجة، أو بالفاء لقلة التفاوت، وبثم لكثرة الفاصل)[1] هذا كلام تتطامن لدقته وروعته الرءوس. ولم أجد لمثله شبها عند من عالج مواقعَ الفاء، والتباسَها بمواقع (ثم)، وأروع مافيه أنه جعل الزمن إحساسا، وتقديرُ لحظاته بنبضات القلب وخفقات الشعور، لابحركات العقارب وامتداد الظل وانحساره، فما يستقصر في ساعات الأنس والسعادة، يستطال ماهو دونه، حين تقبض الهموم علي الأنفاس،-وتعتصر النفوس آلام الوحشة والاغتراب، فإذا كان الكلام الجيد هو الذي يصطبغ بأحوال النفوس، ويعكس صفاءها وكدرها، ويجسّد حركتها في جزْرها ومدّها، فلا غرو أن تنعكس علي هذه الحروف ظلال الانقباض والانبساط في النفس، وأن ينقل لنا حرفا التعقيب والمهلة إحساس المتكلم بالزمن قبضا وبسطا، وحينئذ فلاغرو أن يختلف تقدير زمن واحد بعقارب الساعة فيستطال عند متكلم، ويستقصر عند آخر مادامت الحروف تعكس الإحساس، لاترصد عقارب الساعة.

---

(١) الفرائد في شرح الفوائد ٢٤ .

ومعظم ماقيل - عدا هذا الذي ذكره صاحب الفرائد - في تفسير مخالفة الفاء لظاهر ما يقضي به معناها من التعقيب، كان يقف عند الصحة والجواز، وينتهي دون البحث عن أسرار هذه المخالفة، وحسبك أن تقرأ ماقاله الرضى، وهو فى معالجته لمسائل النحو أقرب مايكون إلى ذوق أهل البيان : (ثم اعلم أن إفادة الفاء للترتيب بلا مهلة، لاينافيها كون الثانى المترتب يحصل بتمامه فى زمان طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبا لما تقدم، كقوله تعالى " ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة" (١) فإن اخضرار الأرض يبتدىء بعد نزول المطر، لكن يتم فى مدة ومهلة، فجيء بالفاء، نظرا لأنه لافصل بين نزول المطر وابتداء الاخضرار، ولو قال : ثم تصبح، نظرا إلى تمام الاخضرار جاز) (٢)

فإن قوله بصحة وضع "ثم" موضع الفاء، بالنظر إلى تمام الاخضرار، يقصر عما رمقه صاحب الفرائد من سماء البلاغة، فى وجوب اختصاص كل حرف بموضعه الذى يقضى به السياق، وتوجبه الدواعى والأغراض، بحيث لو وضع فى مكانه غيره لضاق به مكانه ولفظه، وسيجيء لهذا حديث فيما اشتبه لفظه وتجاذبه حرفا التعقيب والتراخى.

هذه الاعتبارات التى أوجزها الجونفورى هى التى نعالج بها مابدا من خروج الفاء على ما ألفناه فيها من الموالاة بين الأحداث.

من ذلك قوله تعالى : "**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه**"(٣)

فما بين نهى الله آدمَ وزوجه عن قرب الشجرة، وبين الإزلال والإخراج زمن طويل، أدى إلى نسيان آدم ما أوصاه الله به، على ماجاء

---

(١) الحج ٦٣. (٢) شرح الكافية ٢/٣٦٧ . (٣) البقرة ٣٥ - ٣٦ .

فى قوله تعالى من سورة طه : **﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى﴾**(١) لكن هذا الزمن الطويل بالنسبة إلى ماكان يتمناه من طول الإقامة فى الجنة، وإلى إحساسه بالسعادة والنعيم فيها هو جدّ قصير، وأيام السعادة - مهما طالت - تستقصر، هذا إلى جانب مايستدعيه موقف العتاب واللوم، من إظهار آدم فى صورة من أسرع إلى الاستجابة لإغواء الشيطان، ولم يطل به زمن التردد والصدود عما دعاه إليه، وذلك أكثر إيلاما وإيجاعا لمن وجه إليه العتاب.

لقد طوت الفاء هذا الزمن الطويل، وأخفته بدلالتها على التعقيب، لتحقق هذا الغرض، فإذا أردت تفسير ذلك على قواعد الصناعة، فقل : إن التعقيب هنا مجازى، ينزل فيه الفاصل الطويل من الزمن منزلة القليل منه للاعتبارات المذكورة، فالفاء هنا مستعارة للدلالة على سرعة الاستغواء والإحساس بقصر الزمن.

وإلى بعض ذلك أشار صاحب التحرير والتنوير حين قال : (الفاء عاطفة على قوله : "ولاتقربا"، وحقها إفادة التعقيب، فيكون التعقيب عرفيا، لأن وقوع الإزلال كان بعد مضىّ مدة، هى بالنسبة للمدة المرادة من سكنى الجنة كالأمد القليل) (٢)

وانظر إلى خلابة الفاء وحسن موقعها، حين تطوى من الزمن مالايمكن تقديره بغير الإحساس، فى الفترة مابين الموت والبعث، التى تكرر فى القرآن استقصارها فى خطاب الكافرين، كما فى قوله تعالى : **﴿قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادّين. قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون﴾**(٣)

هذا الزمن الطويل تطويه الفاء فى مقام التهويل من شأن عذاب الآخرة، فى قوله تعالى، وصفا لماحلّ بقوم نوح من العذاب : **﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا﴾** (٤)

---

(١) طه ١١٥ (٢) التحرير والتنوير ٤٣٣/١

(٣) المؤمنون ١١٢ - ١١٤ (٤) نوح ٢٥

فما بين الغرق وإدخالهم نار جهنم زمن متناه فى الطول، لكنه بالنسبة إلى ماسيلاقونه فى عذاب جهنم لايدخل فى عداد الزمن، حتى إنهم ليتمنون - لسوء ماينتظرهم - ألا تقوم قيامتهم. والفاء فى طيّها لهذا الزمن تفظيعا لما أعقبه، تؤدى دورها فى تعقيب مجازى، يحقق غايتين : أولاهما الدلالة على تحقق عذاب جهنم، وتنزيل المتوقع منزلة الواقع، وثانيهما : عدم الاعتداد بما دونه من ألوان العذاب، كعذاب القبر، حتى يصير بالنسبة إلى عذاب جهنم كلاعذاب.

وقد أحسن الألوسى بيان هذا التجوز فى قوله : (وهو على هذا لعدم الاعتداد بما بين الإغراق والإدخال، فكأنه شبه تخلّل مالايعتدّ به، بعدم تخلّل شىء أصلا) (١).

وفى مقام خرق العادة يتلاشى الزمن بين أصابع القدرة الإلهية، ويضمر الوقت، ويختفى فى أحشاء الخوف من مستقبل منذر بأخطار محدقة. تجد ذلك فى قوله تعالى حديثا عن مريم عليها السلام : **﴿فحملته فانتبذت به مكانا قصيا. فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا﴾** (٢)

لاشك أن زمنا - مهما قيل فى قصره - قد تخلل بين حمل مريم ومخاضها، وأن هذا الزمن فيه من المهلة مايخالف مواقع الفاء، ولكن لما كانت العادة أن يستغرق الحمل شهورا عديدة، فأى اختصار فى الزمن يتحقق معه خرق العادة هو بمنزلة انعدام الزمن، ولاينهض بالتعبير عنه، والمبالغة فى تصوير قصره غير هذه الفاء، هذا إلى جانب ما أخذ مريم من الدهشة لحدوث هذا الحمل الغريب، واختلاطها بمشاعر الخوف مما سيواجهها من قومها، ورميها بما هو أقسى من الموت لدى الحَصان البَتول، إذا ما أتت حاملة وليدها، على مانمَّ به قولها **﴿ ياليتنى متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا﴾**، والخوف من المستقبل يأكل زمن الحاضر ويطويه، فلايحس به الخائف، لانشغاله بما يملك عليه حسَّه وشعوره.

---

(١) روح المعانى ٢٩/٧٠. (٢) مريم ٢٢ - ٢٣.

ثم انظر إلى هذا التواصل الفكرى والشعورى بين المكذّين من الأمم، وحذوَ كلّ أمة سابقتَها فى فعالها، وكأنها ترقبها فتحتذيها، وتطابق النَّعل بالنَّعل، على بعد مابينهما من الأزمان والمسافات، فتطوى الفاء صفحات الزمن لتبرز قوّة التشابه بينهم فى السلوك، وشدة المحاكاة فى التكوين الفكرى، وكأنهم يعيشون فى زمن واحد، ويردد أصداءهم فضاء واحد، **﴿كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا﴾** (١)

تأمل قوله "فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم" وكيف عدل عن الواو - وهذا موضعها - فلم يقل : "واستمتعتم بخلاقكم" ليحقق الغرض من إبراز الاتصال بين المخاطبين من المشركين، ومن سبقهم من الأمم المكذّبة، فينمحى الزمن، ويختفى وراء هذا التواصل الفكرى والنفسى. ألا ترى كيف أكدّ هذا التشابه والاحتذاء بثلاثة تشبيهات، كلها تتلاقى حول إبراز هذا التواصل فى التفكير وأنماط السلوك : "كالذين من قبلكم". " فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم". "وخضتم كالذى خاضوا" ؟ ولعل إفراد اسم الموصول "الذى" فى مقام الجمع، ماضن إلى الغاية من وحدة الفكر والهوى، حتى لكأنهم فرد واحد.

إنها متابعة فى الأفعال حذو القُذّة بالقُذّة، واندفاع بلا تريُّث أو نظر، كما تراه فى قوله تعالى : **﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين. فهم على آثارهم يهرعون﴾** (٢) فانظر كيف تعانقت الفاء مع الفعل "يهرعون" للإشعار بالمسارعة إلى اعتناق دياناتهم وأفكارهم، دون أدنى تأمل واستبصار ؟

وضع ذلك إن شئت - على طريقة أهل النصاعة - فى صورة مجاز

---

(١) التوبة ٦٩ (٢) الصافات ٦٩ - ٧٠

بالاستعارة ينزل فيه الاسراع إلى المحاكاة والتقليد بلا تأمل واستبصار، منزلة التعاقب الزمنى، بلا مهلة.

إنك لتدهش من هذه الفاء، وهى تطوى الزمن فتريك من آيات الله عجبا، تنشر الحياة بسرعة لاتكاد العين تلاحقها فى موضع، وتقلب الأخضر يابسا، والحى ميتا، قبل أن يرتدّ إليك طرفك.

فها هى ذى تصل الماء بالأرض، فيتحول - فى لحظة - موتها حياة، ويتبدّل جدبها خضرة. **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾**(١). **﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾** (٢)

مسّت الفاءَ يدُ القدرة الإلهية، التى ينمحى معها الزمن، حين يتكوّن الشىء بالإرادة، ويقع بأمر التكوين، ويصبح الزمن بين أفعال الله معدوم الأثر، لتحقق مايريده الله تعالى على الوجه الذى يريده، فلا يتخلف عما قضاه الله وقدره.

ابراز تحقق الوقوع، واتصال السبب بالمسبب على وجه لايتخلف، هو الذى وضع الفاء فيما يبدو أنه موضع حرف التراخى. وماقيل من أن الفاء دخلت مراعاة لأول زمن الاخضرار الذى يعقب نزول الماء لايرتفع إلى سماء البلاغة المعجزة، إذ أن غاية هذا القول، هو تجويز تبادل الفاء وثم هذا الموقع، الأول بالنظر إلى بداية الأخضرار، والثانى بالنظر إلى تمام المدة.

هذه المدة التى نقلتنا بسرعة من نزول الماء إلى اخضرار الأرض، فى مجال تعديد النعم، وتوجيه الخلق بفكرهم وقلوبهم إلى المنعم الوهاب، نجدها تنقلنا وبنفس السرعة من الحياة إلى الموت، ومن الجمال الأخضر إلى كآبة الجفاف والفناء، فى قوله تعالى : **﴿والذى أخرج المدعى فجعله غثاء أحوى﴾** (٣) والغثاء هو اليابس المتكسّر

---

(١) الحج ٦٣ . (٢) ابراهيم ٣٢. (٣) الأعلى ٤ - ٥ .

من النبات. والأحوى : الأسود، ولاجدال فى أن هذا المرعى من النبات الأخضر، لايستحيل غثاء بالسرعة التى تعبر عنها الفاء، لكن النظم الكريم فى مقام يزهّد فيه من التشبّث بالحياة ، والانكباب عليها، يركّز على سرعة الفناء، حتى لاتتعلق النفوس بها هذا التعلق، الذى أنكره على المخاطبين فى قوله : **﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى﴾**(١)

وهذا السبب نفسه هو الذى جاءت الفاء من أجله، فيما ضربه الله تعالى من الأمثال، المنفّرة من الاغترار بالدنيا وزهرتها، كما فى قوله تعالى : **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا﴾** (٢)

لقد أدت الفاء دورها فى رسم الصورة التى أرادها النظم الحكيم للحياة الدنيا، وضآلة نعيمها، فى جنب ما أعده الله تعالى للطائعين من النعيم المقيم، فهى زمنا وحجما لاتستحق هذا الاغترار من الناس، وهم لايتلبثون بها إلا يسيرا ، فما تدوم زهرتها أكثر من دوام نبات لم يكد يزهر حتى جفّ وذبل وذرته الرياح.

إن هذا الغرض من تقليل شأن الحياة الدنيا والنعى على المكبّين عليها، لاتحققه فى الصورة الممثلة، إلا هذه الفاء بطيّها للزمن، وتقصيرها للحكاية. فإذا جاء البغدادى وعلل دخول الفاء فى قوله "فجعله غثاء أحوى" بقوله : (فإن قلت : لاتعقيب فى الآية، فإن الغثاء : اليابسُ المتكسر من النبات، والمرعى إنما يصير غثاء بعد مدة؟ قلت : إذا تمت خضرة المرعى ورفيفه أخذ فى الجفاف والذبول، وهذا أول صيرورته غثاء، وتعقيب كل شىء بحسبه (٣)، فإنه بذلك يعلل لصحة وقوع الفاء، ولايكشف عن سرّ إيثارها على حرف المهلة.

إن حبس التعقيب فى قفص من التوالى الزمنى الحقيقى يضمر

---

(٢) الأعلى ١٦ - ١٧. (٢) الكهف ٤٥. (٣) شرح بانت سعاه للبغدادى ١٧٣.

حركة الفاء، ويطفىء إشعاعها، ويذهب بأشدّ مواضعها ثراء، حين تخلع ثوب الحقيقة، لتطوى من الزمن مايثقل حركة الأحداث. إذا لم يكن للمتكلم قصد فى إنضاج الزمن لها. أو نقل إحساسه ببطء خطواته.

فالمتكلم هو الذى يملك التحكم فى حركة ذهن المخاطب، يبطىء بها أو يسرع، ويقص من شريط الزمن مايرى أنه يلفت المخاطب عن تصور حجم الأحداث، والعُرىَ التى تربط بينها.

هذه الفاء الطاوية لمساحات الزمن أشبه بمقياس الرسم البيانى على الخرائط، تصغّر فيه المسافات على نحو يمكن معه تصور سطح الأرض جميعها فى صفحة من كتاب، وهذه الصفحة التى فرغت عليها مساحة الزمن هى مخيّلة المتلقى، التى تعبر من خلالها شرائط الأزمان الطويلة، ويطويها الذهن فى لحظة من الزمن.

ولعل قريبا من هذا ماقصد إليه أبو البقاء حين جعل التعقيب ثلاثة أنواع :

(التعقيب الزمانى، كقولك : "قعد زيد فقام عمرو" لمن سألك عنهما، أهما كانا معا أم متعاقبين؟ والتعقيب الذهنى، كقولك : "جاء زيد فقام عمروا إكراما له" والتعقيب فى القول، كقولك : لا أخاف الأمير فالملك فالسلطان" كأنك تقول : لا أخاف الملك، فأقول : لا أخاف السلطان) (١)

وإليك أمثلة لهذه الفاء المصورة لسرعة وقوع الأحداث وتواليها، على نحو يخيل للقارىء والسامع، أنها بدأت وانتهت دون أن تتحرك عقارب الزمن.

قال تعالى :﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار وله فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾ (٢)

---

(١) الكليات ٣/٣٢٢. (٢) البقرة ٢٦٦.

تأمل تلك الحركة البطيئة التى جمعت فيها الواو، بين صنوف من النعيم استغرقت مساحة عمر صاحب الجنة كلهً، فأثقلت هذه الواو حركة العرض، لتمكن المشاهد من تأمل ألوان الحياة الرخيّة الناعمة، وماحفلت به الجنة العجيبة من متع الحياة ولذائذها، ثم قارن ذلك بحركة الفاء، وهِى تمحو الزمن من طريقها، لتقتلع هذه الجنة من الأرض، وتحيلها أثرا بعد عين "فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت".

أى مفاجأة وأى ذهول يمكن أن يرتسم على وجه مشاهد، طال تحديقه ببصره فى هذه الجنة، واستمتع بجمالها وبهائها، إذا ما التفت فرآها قد أزيلت من الوجود؟ أو يكون هناك تحذير أبلغ من هذا التحذير، لمن يحبطون أعمالهم الصالحة بما يتبعونها من المن والأذى، فتذهب كما ذهبت هذه الجنة فى طرفة عين؟ سرعة الهلاك بعد طول الرخاء، ذلك ماجسَّدته الفاء والواو فى الصورة الممثّلة.

ثم انظر إلى هذه الفاء فى مقام التسجيل على الكافرين، وتقبيح أعمالهم، كيف تبرز بشاعة الجرم، حين يقابلون نعم الله بالكفران، ويسيئون إلى المنعِم قبل أن يجفّ ندى إحسانه من أيديهم : ﴿**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾[1]

ففى قوله "كانت آمنة مطمئنة" مايشعرك بأن القرية ظلت رَدْحاً من الزمن تنعم بثمرة إيمانها، فى ظل رغد من العيش، وقوله "فكفرت بأنعم الله" تطوى فيه الفاء هذا الزمن، لما أن سوء العاقبة يمحو أثر النعمة، حتى لكأن صاحبها لم تمرّ به سعادة قط، وتعقيب النعمة بالكفران يبرز فظاعة الجرم من وجهين، أولهما : أنه يقضى على أى تصور لشكر المنعم، كما لوعطف بحرف التراخى، المشعر بأن الكفر وقع بعد مهلة من الزمن، وثانيهما قبح مقابلة الإحسان بالإساءة، حين يكفر

---

(١) النحل ١١٢.

الآخذ نعمة المعطى ولاتزال العطية فى يده. فذلك من الدناءة والخسة ماتجمع عليه العقول والطباع، وتأمل الفاء فى قوله "فأذاقها" وكيف طوت من الزمن مانعهده من إملاء الله تعالى للكافرين، وكأن عذاب الله قد حلّ بهم منذ أن نطقت ألسنتهم بالكفر، وأعمالهم بالجحود، حتى لايستهين المضروب لهم المثل بما يهددهم الله به من العذاب، ويستنيموا إلى حِلْم الله فى تأجيل العقوبة. فكل زمن - مهما طال - مع العصيان، إلى جانب مايعقبه من عذاب الله جدٌّ قصير.

وهذه فاء أخرى لها مذاق آخر فى طيّها للزمن، تبرز الحركة السريعة والتوافر الجادّ على العمل، دون فتور أو انشغال عنه، فينجزه صاحبه فى وقت من شأنه ألاّ ينجز فيه، فتقع الفاء دالة على المبالغة فى سرعة إتمامه. يقول تعالى : **﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾**(١)

ليس مثل الفاء فى قوله " فجاء بعجل سمين" حرف ربط آخر يعبر عن سماحة نفس إبراهيم وطواعيتها لبذل الخير، وجدّه فى إكرامه لضيفه، فينهب الزمن نهبا، ليقدم لضيفانه أعظم ماعنده، دون ريث أو انتظار، حتى لكأنهم لم يفتقدوه، فيما بين ترحيبه بهم وتقديم العجل لهم. إنها نفسٌ فيّاضة بالخير، تفجّر طاقات الجوارح لتحقيق ما أرادت، فيما لاتستطيع النفوس الشحُّ إنجازه حتى لو أرادت، وهذا هو معنى ما أشار اليه صاحب الفرائد من استقصار الزمن، حين يكون فى الفعل خروج عن العادة فى مثله.

وأخيراً هذه الفاء التى طوت ثلاثة أشهر من الزمن أو مايقابلها من حيضات ثلاث، هى مدة المعتدّة من الطلاق، فى قوله تعالى : **﴿وإذا طلّقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن**

---

(١) الذاريات ٢٤ - ٢٧

بمعروف ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا﴾[1]

فللفاء فى قوله "فبلغن أجلهن" - وبلوغ الأجل لايكون إلا بانتهاء العدة - من السحر والخلابة مالاتجده فى غير النظم المعجز. ذلك أن الآية - كما يقول ابن عطية - (خطاب للرجال، لايختص بحكمه إلا الأزواج، وذلك نهى للرجل أن يطوّل العدة على المرأة مضارةً منه لها، بأن يرتجع قرب انقضائها، ثم يطلق بعد ذلك)[2]

وكأنى بهذه الفاء تفوّت على الزوج المعتدى فرصة التلاعب بالزمن، ومماطلة زوجه إضرارا بها، فتسترق منه زمن العدّة كله، قبل أن يفيق ليكرر عدوانه. وقد تعاونت هذه الفاء مع التجوّز ببلوغ الأجل عن قربه، (معنى "بلغن أجلهن" ! قاربْنَ، لأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل، لاخيار فى الإمساك) [3]

ثم إن فيها شائبة تحذير من الاستهانة بالزمن، وتضييع الفرصة لمن أراد الاستمساك بأهله، ووَصْل عُرىَ المودة، حتى لايفوت الوقت على من أراد المراجعة، ويصبح مُحالا ماكان ممكنا، بعد ماتَبِينُ الزوجة، وتتعذر المراجعة.

---

(١) البقرة ٢٣١. (٢) المحرر الوجيز ٢/٢٠٥. (٣) السابق ٢/٢٠٥.

الفاء ومَطْل الزمن

مطّ الزمن ومَطْلُه معنى غريب على الفاء التى وضعت لعكسه، وأشهد أننى توقفت أمام هذا المعنى طويلا، وأنا أتأمل الفاءات فى الكتاب العزيز، وألتقط الإشارات التى تهمس بها فى سياقها حينا، والإشارات العابرة التى ترد فى كلام العلماء حينا آخر. وكانت أول إشارة قادتنى إلى هذا المعنى، وصرفت همتى إليه، قد وردت فى عبارة موجزة لاتتجاوز عدة أسطر، فى مقال من سلسلة مقالات للأستاذ الكبير الشيخ محمود شاكر، بعنوان "نمط صعب ونمط مخيف" نشرت فى مجلة المجلة. فقال عند تحليله لأبيات الشاعر

يركب الهول وحيدا، ولايصحبه إلا اليمانى الأفلُّ
وفتوٌ هجَّروا، ثم أسروا ليلهم، حتى إذا انجاب حلُّوا
كل ماض قد تردّى بماض، كَسنا البرق إذا ما يُسَلُّ
فادّركنا الثأر منهم، ولما ينج ملحيين إلا الأقلُّ
فاحتسوا أنفاس نوم، فلما هوّموا رعتُهم فاشمعلّوا

قال الشيخ فى بيان سر الفاءات : "فأدركنا. فاحتسوا. فلما هوّموا" : (أما الفاءات التى بدأت منذ البيت الثالث عشر، وتتابعت حتى آخر مقطع الغناء، فهى التى أكسبت الغناء هذا التحدُّر والتدفّق، لأن الفاء تحرك الزمن فى الفعل الماضى، وتمطله، حتى تبلغ به أول الزمن فى الفعل الذى يليه، وهكذا دواليك، حتى تنقطع الفاءات، وأنت واجد فرقا لايوصف فى حركة الزمن، بين قولك : نام، وأفاق، ولبس ثيابه، وخرج، ولقى صديقه، وانطلق،. وقولك : "نام فأفاق فلبس ثيابه، فخرج، فلقى صديقه، فانطلق. وهذا الذى وصف زيادة على ماقاله النحاة من أن الفاء تفيد مجرد الترتيب. ومن تأمل "الفاءات" فى كتاب الله سبحانه رأى عجبا) (١)

---

(١) مجلة المجلة ص ١٦، الحلقة الخامسة – العدد ١٥٥ نوفمبر ١٩٦٩.

هذا كل ماقاله الشيخ فى الفاء، وهو - على إجماله - كاف فى الإشارة إلى ماقصد إليه. وفى عبارته : "ومن تأمل الفاءات فى كتاب الله سبحانه رأى عجبا" دعوة إلى تلمّس مثل هذه المعانى فى النظم الكريم!

تتبعت - على ضوء هذه الاشارة - ماقاله اللغويون والنحاة فى معانى الفاء، فوجدت قريبا مما أثبته الشيخ، فيما ذكروه لها من معنى الغاية. قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿إن الله لايستحيى أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها﴾ (١) : (والفاء بمعنى إلى، أى إلى مافوقها، وهذا قول الكسائى والفراء أيضا) (٢).

ونسب ابن هشام مثل هذا القول إلى بعض البغداديين، فى قول امرىء القيس :

عقانبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

وبرغم استغراب ابن هشام لهذا المعنى، فإنه استأنس له بما يؤيده، وإليك نصّ عبارته : (قال : والفاء نائبة عن "إلى" ويحتاج على هذا القول إلى أن يقال وصحت إضافة "بين" إلى "الدّخُول" لاشتماله على مواضع، أو لأن التقدير : بين مواضع الدخول. وكون الفاء للغاية بمنزلة "إلى" غريب. وقد يستأنس له عندى بمجىء عكسه فى نحو قوله:

وأنتِ التى حببّتِ شغْبا إلىّ بدا   إلىّ وأوطانى بلاد سواهما

إذ المعنى : شَغْبا فبدا، وهما موضعان . ويدل على إرادة الترتيب قوله بعده :

حلّلت بهذا حلة ثم حلة .... بهذا فطاب الواديان كلاهما

وهذا معنى غريب، لأنى لم أر من ذكره) (٣)

---

(١) البقرة ٢٦   (٢) تفسير القرطبى ٢٠٨/١

(٣) المغنى ١٦٢/١.

والحق أن الفراء ذكره فى الآية التى مثّلنا بها، وقال : إن هذا الوجه أحبُّ إلىّ (١) وذكره الهروى، وحرر عبارته تحريرا دقيقا حين قال: (وتكون نسقا بمعنى "إلى"، كقولك : "مطرنا بين الكوفة فالقادسية"، المعنى : إلى القادسية ، ولايجوز أن تقول : دارى من الكوفة فالقادسية، لأن دارك لاتكون آخذة مابين الكوفة إلى القادسية. وإنما تصلح "إلى" إذا كان مابين الكوفة والقادسية، كله من دارك. وكذلك محال أن تقول : "جلست بين زيد فعمرو"، إلا أن يكون مقعدك أخذا للفضاء الذى بينهما.)(٢)

وجه اتصال هذا المعنى بما قال الشيخ محمود شاكر، أن قولك : أمطرنا بين الكوفة فالقادسية بجعل الفاء للغاية، يدل على استمرار هذا المطر وتتابعه، من مبدأ سيرهم من الكوفة إلى القادسية. وهذا دليل على طول زمن سقوط المطر وامتداده، حتى انتهوا إلى المعطوف، وهو القادسية.

ونتأمل الفاءات فى كتاب الله تعالى، فتتوالى النماذج التى تطيل الفاء فيها زمن الفعل المعطوف عليه، وتحركه لتصله بزمن المعطوف، مضمنة الفعل الأول معنى الاستمرار، المستغرق لمساحة زمنية طويلة، دون فتور أو انقطاع، وخاصة فيما يرويه الله تعالى من قصص الأنبياء مع المكذبين من أقوامهم.

من ذلك قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام : **﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾** (٣)

فالفاء الأولى فى قوله "فلبث" تدل على التعقيب الذى يبدأ به عمر الرسالة، مما يدل على أن هذا العدد المعّين من السنين هو عمر دعوته لقومه، وليس عمره الشخصى على مازعمه البعض. ثم جاءت

---

(١) معانى القرآن ٢٢/١ .　　(٢) الأزهية فى علم الحروف ٢٤٤.

(٣) العنكبوت ١٤.

الفاء الثانية لتمط زمن اللبث وتطيله، تحقيقا للغرض من تسلية الرسول عليه السلام، وقد ضاق صدره بطول صدود قومه، وكأنه يقال له: أتضيق بتكذيب قومك سنوات، وقد صبر نوح على أذى قومه وتكذيبهم قرونا عديدة، لم ينقطع عنه تكذيبهم لحظة، إلى أن أخذهم الله بما استحقوه من العذاب؟!

تجاوب مطل زمن مُكثه بينهم واستمراره على دعوته، مع صيغة العدد، التى بدىء فيها بالألْف ليكون أول مايقرع السمع، فيخيل من طول المدة مالاينهض به لوقيل : فلبث فيهم خمسين وتسعمائة، يعاونهما فى هذا المطل للزمن الإطناب بذكر "عاما" وهو مفهوم من قوله "ألف سنة"، ليتناغم طول اللفظ مع طول ماعبّر عنه من الزمن، وذلك ضرب آخر من الإعجاز.

هذا المعنى الذى خلعته الفاء على الفعل قبلها، ونفخت فيه من روح التعقيب، ليمتد وتينامى حتى يتصل بانتقام الله تعالى من المكذبين، امتداحا لروح الإصرار وصدق العزيمة فى نبى الله، ودعوة إلى التأسّى به، هو الذى اقتضى دخول الفاء، بحيث لو وضعت "ثم" موضعها، لتلاشى الغرض من وصل إقامته على الدعوة ومتابعته لها بزمن الإهلاك، ولكان الغرض حينئذ الدلالة على أن الإهلاك كان بعد طول إمهال، وأن الله تعالى أرخى لهم العنان ليأخذهم شر أخذة، وهو معنى آخر لم يقصد اليه النظم.

ألا ترى حين أريد هذا المعنى من الإملاء، ومقابلة مكر المكذبين بمكر أشد، استدراجا لهم، ليزدادوا كفرا، فيضاعف الله لهم العقاب، جاءت "ثم" فى قوله تعالى **﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب﴾** [١] ؟

وبسط ذلك أن الغرض فى الجمل التي تعطف بالفاء أو ثم يتوجه إلى التعقيب أو التراخي باعتبار كل منهما معنى زائدا على مجرد

---

(١) الرعد ٣٢.

الإثبات، فالجملة - كما قرر أهل البيان - إذا تعلق بها أمرزائد، كان هو محط الفائدة، والغرض من الكلام. فمع الفاء يكون المعنى على اتصال لُبْثه فيهم هذا الزمن الطويل بإهلاكهم، دون فتور أو انقطاع، فينصرف الغرض إلى امتداح نوح على استمراره فى دعوته دون ملل أو يأس، وذمّ المكذبين الذين لم يثوبوا إلى رشدهم على مر القرون. أما مع "ثم" فالمعنى على تراخى الهلاك عن زمن مكثه بينهم، فيتجه الذهن إلى أن الله لم يبادر بإهلاكهم، بل أمهلهم واستدرجهم، لينزل بهم أشد العذاب وأقساه.

فلما اجتمع مع الفاء أمر زائد على الإثبات والتعقيب، وهو القيد بالحال، سلط التعقيب على هذا القيد، فى قوله تعالى : **﴿قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾**(١) حيث لم يكن رجوع موسى متعقبا لوقوع الفتنة، وإنما كان رجوعه بعد تمام المدة التى ضربها الله لموسى، وهى أربعون يوما، كما جاء فى قوله تعالى : **﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾**(٢) وقد استوفى الكلام فى هذه الفاء أبو السعود رحمه الله، فقال: ("فرجع موسى إلى قومه " عند رجوعه المعهود، أى بعد ما استوفى الأربعين، وأخذ التوراة، لاعقيب الإخبار بالفتنة، فسببية ماقبل الفاء لما بعدها، إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى : "غضبان أسفا"، لا باعتبار نفسه، وإن كانت داخلة عليه حقيقة، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقدر مشهور، لايذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار بالفتنة، كما إذا قلت : شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة، فرجعوا سالمين، فإن أحدا لايرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد، لارجوعهم إثر الدعاء، وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة، لا باعتبار نفس الرجوع) (٣)

هذا الكلام الدقيق ينقصه أن نقول : إن غضب موسى على قومه

---

(١) طه ٨٥ - ٨٦. (٢) البقرة ٥١. (٣) تفسير أبى السعود ٣٤/٦.

لم ينقطع، منذ سماعه بافتتانهم حتى عاد إلى قومه، بل ظل حيًا تموج به نفسه، ويغلى الدم فى عروقه، من حماقة قومه وسفههم، مما جعله يلقى الألواح ويأخذ برأس أخيه فور عودته، ودخول "ثم" بين علمه بعبادة قومه للعجل ورجوعه إليهم، يذهب بجذوة هذا الغضب، كما أراد القرآن أن يصوره، فدخلت الفاء الدالة على اتصال رجوعه غاضبا بعلمه، لتنقل لنا ثورة غضبه حيّة متأججة.

مثل هذه الفاء التى تحرّك زمن الماضى وتمطله إلى زمن المعطوف، نراها فى النظم الحكيم تحتكر المواطن التى يرتّب الله فيها الإهلاك على تكذيب الأمم لأنبيائها، تركيزا على استمرار التكذيب، والتمادى فى الكفر، بحيث لاتردهم عنه النذر، ولاتغنى الآيات حتى يحل بهم العذاب، وجميعها وقع فيها التكذيب والكفر بصيغة الماضى الذى مدّدت الفاء زمنه، ووصلته بنزول العذاب. وإليك بعضا من نماذجها :

قال تعالى ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين﴾ (١). وقال : ﴿فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآيات وماكان أكثرهم مؤمنين﴾ (٢) وقال : ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ (٣) وقال : ﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾ (٤) وقال ﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون﴾ (٥)

تأمل التكذيب حين يقع بين فاءين، تجذبه الأولى للدلالة على المبادرة بالتكذيب دون ريث أو تأمُل فيما يدعون إليه للتعرف على وجه الحق فيه، وتمطه الفاء الثانية لتصله بوقت نزول العذاب، موحية بأنهم اعتادوه واستغرقوا فيه، حتى فاجأهم مالم يكن فى حسبانهم، فأخذهم بغتة وهم لايشعرون.

---

(١) الأنفال ٥٤. (٢) الشعراء ١٣٩. (٣) الشعراء ١٨٩.

(٤) العنكبوت ٣٧. (٥) النحل ١١٣.

وهذه الفاء نفسها هى التى مدّت زمن الكدح، ومطلته، وخلعت عليه صفة الدأب والاستمرار فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**﴾[١]. حاول أن تقطع المعطوف عن المعطوف عليه، وقل : إنك كادح إلى ربك كدحا، فستجد أن المعنى قد تغيرّ، وصار تأكيد الكدح مقطوعاً عن الزمن ، وحاول ثانية أن تضع الواو موضع الفاء ، فتقول : "وملاقيه" فإنك ستضيف إلى تأكيد الكدح خبرا آخر بوقوع الجزاء عليه ، ويكونان خبرين مستقلين. ثم حاول أخيرا أن تضع حرف المهلة بدلا من الفاء لتقول : ثم ملاقيه، فسوف ترى أنك وضعت فاصلا زمنيا يقطع الكدح عن لقاء الله ومجازاته، فإذا عادت الفاء إلى مكانها اتصل الكدح بلقاء الله أو بمجازاته، على النحو الذى أراده الله من بيان الحكمة في خلق الانسان ليعمر الأرض بكفاح دائم متصل، لاينقطع الا بانقطاع آخر أنفاسه . يكدح مستيقظا، ويكدح ذهنه باستعراض همومه نائما، ويتواصل العمل والكفاح، إلى أن ينتقل المرء من دار العمل إلى دار الجزاء. وذلك هو إشعاع حرف التعقيب فى موقعه هذا من القرآن المجيد.

هذه الظلال للفاء تجدها فى قوله تعالى : ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وماختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ [١] حيث عطف "هدى الله الذين آمنوا" بالفاء على " اختلفوا" وبينهما أزمان طويلة، فأومأت الفاء بقدرتها على مطّ زمن الفعل المعطوف عليه إلى أن هذا الخلاف قد طال أمده، واستمر بين أهل الكتاب حتى جاء الإسلام، فهدى الله المؤمنين إلى الحق فيما ظلوا فيه مختلفين، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب التحرير والتنوير، غير أنه لجأ إلى تقدير محذوف أفصحت عنه

---

(٦) الانشقاق ٦.

(١) البقرة ٢١٣.

الفاء، وهو فى نظرى تقدير غايته تصوير المعنى وتقريبه، وإلا فإن الفاء دلّت عليه بوصلها زمن الاختلاف بزمن الهداية، فكان هذا الاتصال دليل بقاء الاختلاف إلى زمن المعطوف. يقول الشيخ ابن عاشور (هذا العطف يحتمل أن الفاء عاطفة على "اختلفوا فيه" الذى تضمنته جملة القصر. قال ابن عرفة : عطف بالفاء إشارة إلى سرعة هدايته المؤمنين بعقب الاختلاف. أ هـ يريد أنه تعقيب بحسب مايناسب سرعة مثله، وإلا فهدى المسلمين وقع بعد أزمان مضت، حتى تفاقم اختلاف اليهود، واختلاف النصارى. وفيه بعد لايخفى. فالظاهر عندى أن الفاء فصيحة، لما علم من أن المقصود من الكلام السابق التحذير من الوقوع فى الاختلاف، ضرورة أن القرآن إنما نزل لهدى المسلمين للحق فى كل ما اختلف فيه أهل الكتب السالفة، فكأن السامع ترقب العلم بعاقبة هذا الاختلاف، فقيل : دام هذا الاختلاف إلى مجىء الإسلام، فهدى الله الذين آمنوا .. إلخ. فقد أفصحت عن كلام مقدر، وهو المعطوف عليه المحذوف، كقوله تعالى : "أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت") (١)

فنحن نتفق معه فى الدلالة على دوام الاختلاف واستمراره إلى الزمن الذى هدى الله فيه المسلمين إلى الحق، ولكننا نختلف معه فى تقدير فعل محذوف، ونرى أن الدوام لازم الاتصال بين الفعلين بأداة التعقيب، فهو تقدير معنى لاتقدير إعراب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢١١.

الفاء وَطَىُّ الحدث

احتفاء البلاغيين بهذه الفاء

الفاء التى تطوى الأحداث هى التى أطلق عليها النحاة وأهل البيان فاء الفصيحة، وهى التى حظيت بفضل عناية فى الدرس البلاغى عند الحديث عن حذف الجملة فى باب الإيجاز.

تحدث عنها السكاكى ولفت النظر إليها، ودعا إلى تأمل أسرارها، فقال : (وانظر إلى الفاء التى تسمى فاء فصيحة فى قوله تعالى : (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم)(١) كيف أفادت : فامتثلتم فتاب عليكم. وفى قوله :**﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت﴾** (٢)، مفيدة : فضرب فانفجرت. وتأمل قوله : **﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى﴾**(٣) أليس يفيد : فضربوه، فحيى، فقلنا كذلك يحيى الله الموتى)(٤) ثم قال : (وإنه فن من البلاغة لطيف المسلك. ومن أمثلة الاختصار قوله تعالى : **﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا﴾** (٥) بطىّ : أبحت لكم الغنائم، لدلالة فاء التسبيب فى "فكلوا" وقوله **﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾**(٦) بطى : إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم، فعُدوا عن الافتخار، لدلالة الفاء فى "فلم").(٧)

فالسكاكى يرى فى الفاء المفصحة عن محذوف ضربا رفيعا من البيان وفنا من البلاغة لطيف المسلك على حد تعبيره، والنص الأول من النصَّين اللذين نقلناهما يقطع بأن الفاء التى تفصح عن معطوف عليه محذوف تسمى فاء فصيحة، أما التى تدل على شرط مقدر، فليس فى كلامه مايقطع بتسميتها فصيحة، أو يقطع بحرمانها من شرف الفصاحة، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأنه يخص الفاء الفصيحة بما كانت عاطفة على محذوف، ويخرج منها الفاء الدالة على شرط مقدر.

---

(١) البقرة ٥٤ (٢) البقرة ٦٠. (٣) البقرة ٧٣ (٤) مفتاح العلوم ١٥٦
(٥) الأنفال ٦٩ (٦) الأنفال ١٧ (٧) مفتاح العلوم ١٥٦

وهذا ماحكاه السيد الشريف فى شرحه للمفتاح وعارضه، فقال : (فَتَوُهّم من ذلك أن تقدير الشرط ينافى عنده كون الفاء فصيحة، وأيّده بعضهم بالنقل عنه، والصواب خلافه، لأن العَلَم عندهم فى الفصيحة قول الشاعر :

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وهو بتقدير الشرط، أى إن صح ماقالوا فقد آن القفول، لأنا جئنا خراسان) (١) سبب التوهم هذا يرجع إلى أن السكاكى فى الآيات الثلاث من سورة البقرة قدرّ فيها المحذوف معطوفا عليه وصرّح بأن هذه الفاء تسمّى فصيحة، ثم خصّها بقوله : "انظر" و "تأمّل" وهى تعبيرات تدل عند السكاكى على فضل عناية، ولم يقل مثلها فى الفاء المجاب بها عن شرط محذوف، بل قال فيما مثّل له منها :"لدلالة فاء التسبيب" أو "لدلالة الفاء" دون أن ينعتها بالفصيحة.

أما صاحب الكشاف فعلى العكس من صاحب المفتاح، نراه يصرّح بأن الفاء المفصحة عن شرط محذوف تسمى الفاء الفصيحة. وقال عنها: إنها من أحاسن الحذوف، ولم يأت فى تفسيره مايقطع بإجراء هذا الوصف على الفاء العاطفة على جملة محذوفة، أو نفيه عنها، مما جعل شراحه يختلفون فى تحديد رأيه فيها.

فهذا القطب التحتانى يقول فى حاشيته على الكشاف : (فالفاء الفصيحة على رأى المصنف، هى التى دلت على محذوف، وهو سبب لما بعدها، سواء كان شرطا أو معطوفا عليه) (٢).

والطيبى فى فتوح الغيب، يعلق على قول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : **﴿قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وماكادوا يفعلون﴾** (٣) ("فذبحوها" أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها) (٤) قال الطيبى تعليقا على ذلك : (الفاء فى قوله "فذبحوها" كما قدرها المصنف فصيحة، دالة على أنهم سارعوا فى الذبح، ولم

(١) المصباح ٢/٤٦١.
(٢) حاشية القطب التحتانى على الكشاف ١/٢٢٧
(٣) البقرة ٧١
(٤) الكشاف ١/٢٨٨

يتوقف امتثالهم أمر الله عند تحقق التمييز لحة) [١] والمقدر هنا - كما ترى - جملة معطوف عليها.

والسعد فى مطوله بعد أن ذكر وجهى الزمخشرى فى تقدير المحذوف، من قوله تعالى "فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت" [٢] وهما : (فضرب) والفاء عاطفة على محذوف، و (فإن ضربت) والفاء معه واقعة فى جواب شرط مقدر، قال السعد : (وظاهر كلام الكشاف أن تسميتها فصيحة، إنما هى على التقدير الثانى، وهو أن يكون المحذوف شرطا) [٣] على حين أطلق السعد الفصيحة على الفاء العاطفة على محذوف، فى قوله تعالى : "كذلك يحيى الله الموتى" حيث ذكر عبارة الزمخشرى : "والمعنى : فضربوه فحيى" وعلق عليها قائلا : (يعنى أن حذف "ضربوه" المعطوف على "قلنا" سائغ مقرر فى الفاء الفصيحة فى "فحيى"، وهاهنا قد حذف الفاء الفصيحة مع المعطوف) [٤]

ويرى الزركشى أن الفاء الفصيحة هى العاطفة على محذوف، لا المجاب بها عن شرط محذوف. قال : (ومن حذف جواب الفعل : **﴿اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمّرناهم﴾**[٥]. تقديره : فذهبا إليهم فكذبوهما، فدمرناهم. والفاء العاطفة على الجواب المحذوف هى المسماة عندهم بالفاء الفصيحة). [٦]

وفى كليات أبى البقاء : (هى التى يحذف فيها المعطوف عليه، مع كونه سببا للمعطوف، من غير تقدير حرف الشرط. قال بعضهم : هى داخلة على جملة مسببة عن جملة غير مذكورة، نحو الفاء فى قوله "فانفجرت" [٧]. وقال أيضا : (وإن كان المعطوف شرطا لاتسمى فصيحة أيضا، بل تسمى جزائية، سواء حذف المعطوف عليه أم لم يحذف" [٨]

---

(١) فتوح الغيب ج١ ورقة ٩٤

(٢) البقرة ٦٠.

(٣) المطول ٢٨٩.

(٤) حاشية السعد على الكشاف ٣٦٨/١

(٥) الفرقان ٣٦

(٦) البرهان ١٨١/٣

(٧) الكليات ٣٢٥/٣

(٨) السابق ٣٢١/٢.

أطلت الحديث حول الخلاف فى مُسمّى الفاء الفصيحة، لما حمله هذه التسمية من دلالة على أن الوصل بها يتميز بوجوه من البلاغة، لاتوجد على كمالها فيما وصل من الكلام بغيرها، ويكفى أن يقول عنها الزمخشرى : (لاتقع إلا فى كلام بليغ) (١) وهؤلاء الذين أخرجوا الفاء الدالة على شرط مقدر من فاء الفصيحة عللوا ذلك بأن فاء الجزاء يكثر وقوعها فى الكلام العامى (٢) فلاترقى إلى مايختصّ به كلام البلغاء. ومن هنا تدرك سبب تسميتها فصيحة، لأنها (يستدلّ بها على فصاحة المتكلم، يقال : كلام فصيح، وكلمة فصيحة، وصفت الفاء بها على الإسناد المجازى، كما وصف القرآن فى قوله تعالى : ﴿**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم**﴾ (٣) بصفة من هوسببه، وإنما اختصت بكلام البلغاء، لأن المراد من الحذف الدلالة على أن المأمور لم يتوقف عن اتباع الأمر) (٤)

والحق أن حرمان فاء الجزاء الدالة على شرط مقدر من لقب الفصيحة، بعد أن كشف جار الله الزمخشرى عن روائعها فى النظم الحكيم، هو عدوان على هذه الفاء، وغفلة عما تنشره فى مواقعها من لطائف الأسرار، كما سيأتيك فى موضعه. ودعوى أنها تَرد فى الكلام العامى أمر لايؤبه به، لأن الفاء العاطفة على محذوف هى كَذلك ترد فى كلام عامّى، وليست الفصاحة فيها راجعة إلى مجرد إنبائها عن محذوف، وإنما فصاحتها تكمن فيما وراء الحذف من إشارات لايفطن إليها غير البلغاء، ولايضعها فى كلامه موضعها إلا متحدث بليغ، وفاء الجزاء المنبئة عن شرط محذوف، حافلة فى الكتاب العزيز بالأسرار التى استحقت أن يقول فيها الزمخشرى إنها من أحاسن الحذوف. ولا أعتقد كذلك أن صاحب الكشاف يضّن باسم الفصيحة على الفاء العاطفة على محذوف كما فهم البعض، بل أرى فى عبارته التى جوز فيها الوجهين عند قوله تعالى ﴿ **وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب**

---

(١) الكشاف ٢٨٤/١ (٢) أنظر تحفة الأشراف فى كشف غوامض الكشاف ٢٦٨/١.

(٣) آل عمران ٥٨ (٤) تحفة الأشراف ٢٦٨/١

بعصاك الحجر فانفجرت﴾[1] أرى أن الأظهر فى عبارته إطلاق الفصيحة على ضربيها كليهما، قال فيها : (الفاء متعلقة بمحذوف، أى فضرب فانفجرت، أو فإن ضربت فقد انفجرت، كما ذكرنا فى قوله "فتاب عليكم"، وهى على هذا فاء فصيحة) [2]. فالضمير فى قوله : "وهى على هذا" راجع إلى "الفاء" فى قوله فى أول العبارة : "الفاء متعلقة بمحذوف" فالوصف بالفصيحة يشملها بضربيها، ولاقرينة على اختصاصها بواحد منهما. وقد أحسن السيد الشريف حين قال تعليقا على العبارة السابقة : (فإنه إشارة إلى الوجهين، فقوله : "وهى على هذا" أراد به أن الفاء على كونها متعلقة بسبب محذوف - شرطا كان أو غيره - تسمى فاء فصيحة، وذلك إما لإفصاحها عن محذوف، وإما وصف لها بوصف صاحبها، وإما لكونها مفيدة معنى بديعا، وواقعة موقعا حسنا) [3]

ووصْفُها بالفصاحة على طريق التجوز بإرادة صاحبها، لما تومىء إليه من معان بديعة هو - فى رأيى - الأليق بها، وليس إفصاحها عن محذوف، لأن الفاء ليست وحدها التى يصاحبها الحذف، فقد وقع الحذف مع الواو فى قوله تعالى : **﴿ولقد آتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾** [4] فاختصاص الفاء بهذا الوصف مع اشتراك غيرها معها فيما سميت بسببه لامُسوّغ له. ثم إن الوصف بالفصاحة على إطلاقه لايدل على الحذف، وإنما يدل عليه بتقدير قيد يحدده سياقها، لاحقيقة معناها، وحمل الألفاظ على دلالاتها المطلقة، أولى من تكلف قيود تحدد معناها على غير مايتبادر منها. وأخيرا فإن هذا الوصف هو الذى يعكس ما امتلأت به فى مواقعها من أسرار بيانية.

---

(١) البقرة ٦٠.

(٢) الكشاف ١/٢٨٤.

(٣) المصباح فى شرح المفتاح ٢/٤٦٢

(٤) النمل ١٥

طيُّ المعطوف عليه

لعل أهم ماتمتاز به الفاء من بين حروف العطف هو كثرة الحذف معها، لذلك كثر ورود الفاء فى القصص القرآنى حين تتكرر القصة مبنية على الإيجاز بطىّ بعض أحداثها، اعتمادا على ذكرها فى موضع آخر، ورَعْياً لمناسبة خاصة، تقتضى إبراز بعض الأحداث، وحذف بعضها الآخر، وقد كثر ورود هذه الفاء فى السور المكية قياسا إلى السور المدنية، لابتناء السور المكيّة على القصد فى اللفظ، حيث كانت أكثر خطاباتها موجهة إلى المشركين من العرب، وهم قوم تميل طبائعهم إلى الإيجاز، بخلاف السور المدنية حيث كثر فيها خطاب غير العرب كبنى إسرائيل، فأطنب معهم الحديث، إلى جانب طبيعة موضوعاتها الحافلة بالتشريعات والأحكام والمحتاجة إلى التفصيل. (١)

ومن أبرز مواقع حذف المعطوف عليه، وأغناها بوجوه البيان، مايكون المحذوف فيه جوابا لآمر لايُرَدُّ أمْره، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا**﴾ (٢) وقوله : ﴿**فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم**﴾(٣)

فمن المعلوم أن انفجار الحجر، وانفلاق البحر، مرتبان فى الظاهر على الضرب بالعصا. لاعلى الأمر بالضرب، إذ لو كانا مرتبين على الأمر، لوجهه الله تعالى الى الحجر والبحر مباشرة، كما قال تعالى للنار التى ألقى فيها إبراهيم عليه السلام :﴿ **يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم**﴾ (٤)، لكن الله تعالى أراد بتوجيه الأمر بالضرب إلى موسى أن يكون أثر الضرب معجزةً ظاهرة له، يجريها على يديه، مع اليقين بأن الضرب بالعصا سبب ظاهر وليس مؤثرا حقيقيا، إلا أنه لو حدث بأمر التكوين المباشر من الله تعالى، دون أن

---

(١) يراجع العطف فى القرآن الكريم - رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية، وفيها إحصاء دقيق لنسب العطف بالفاء فى السور المكية والمدنية ص ٦.

(٢) البقرة ٦٠. (٣) الشعراء ٦٣ (٤) الأنبياء ٦٩.

يكون فعل موسى سببا ظاهرا، لما كان ذلك آية لموسى عليه السلام.

فلما أراد الله تعالى حكاية معجزتى موسى هاتين، قصَّهما على الوجه الذى يحقق صورة المعجزة، وحقيقة أمر التكوين، فكان قوله : "اضرب بعصاك" دليلا على ارتباط الأثر بالمؤثر الظاهر، وهو الضرب. وفى طىّ الضرب الواقع من موسى عليه السلام، إشعارٌ بأن انفجار الحجر، وانفلاق البحر، كانا فى حقيقتهما مطاوعة لأمر الله تعالى، لاتأثرا بضرب العصا، فليست فى العصا قدرة ذاتية تتميز بها عن غيرها من العِصِىّ، وإنما هى قارنت قدرة الله تعالى المؤثرة، لتكون سببا ظاهرا، تربط فيه الأعين والعقول بين الأسباب ومسبباتها. ففى حذف ضرب موسى حثٌ للعقول على الربط بين الأثر والمؤثر الحقيقى، حتى يدفع الوهم بأنه فى عصا موسى يقبع الإعجاز، والحقُّ أنه بأمر الآمر كان الانفجار والانفلاق.

أضف إلى ذلك مايدل عليه هذا الحذف، من سرعة تلبية موسى لأمر ربه، حتى لكأن الفعل وقع منه لحظة سماع الأمر من ربه، دون تلعثم أو تردد، وفى طيات ذلك معنى الطاعة وحسن الاستجابة من ناحية، والرغبة الشديدة من موسى فى هذا الفعل، الذى حقق له ماضرع به إلى ربه، فأسرع إلى تحقيق مارغب فيه. وإلى هذا ذهب السيد الشريف فى بيان نكتة الحذف فى آية البقرة، فقال : (ففى حذف المعطوف عليه فى قوله "فانفجرت" تنبيه على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه لايحتاج إلى الإفصاح به، لانتفاء الشك فيه، وعلى أن السبب الأصلى فى الانفجار هو أمره تعالى، لافعل موسى عليه السلام، ولاشك أنه لايهتدى إلى أمثال هذه الدقائق غير البلغاء)[1]

وكأن السيد الشريف - رحمه الله - يضيف بجملته الأخيرة إلى الفاء الفصيحة التى لاينطق بها إلا بليغ شرفا آخر، وهو أنه لايهتدى إلى أسرارها من المخاطبين غيرُ البلغاء.

---

(١) المصباح فى شرح المفتاح ٢/٤٦٢

وللقطب التحتانى عبارة دقيقة فى سر حذف فعل الضرب جاء فيها : (دلّ على أن المطلوب بالضرب الانفجار لا الضرب، فلهذا حذف الضرب، وصرح بأثره، وهو الانفجار) (١)

وفى ذلك إلماح إلى أن الغرض من توجيه الأمر بالضرب هو حدوث الانفجار، وكأن الحجر انفعل انفعالا ذاتيا، وحقق ما أراده الله فور سماع أمر الضرب لموسى.

أما تقدير الشرط هنا على الوجه الثانى الذى ذهب إليه الزمخشرى على معنى : فإن ضربت فقد انفجرت، فإنه يذهب بهذه اللطائف كلها، حيث يتوقف الانفجار على الضرب، بعد أن كان منفعلا بالأمر الصادر من الله تعالى . ثم إنه يشعر بأن امتثال الأمر بالضرب من موسى أمر محتمل بتعليقه الجواب على الشرط، على مافى التقدير بإن، وماتشعر به من أن الضرب غير مقطوع بوقوعه، مما لايليق بمقام النبوة. وهو ماوهَّنَه أبو السعود بقوله : (وأما تعلق الفاء بمحذوف، أى فإن ضربت فقد انفجرت، فغير حقيق بجلالة شأن النظم الكريم، كما لايخفى على أحد) (٢).

مثل هذا من طىّ السبب، و ترتيب المسبب على الأمر نجده فى قوله تعالى فى قصة موسى مع السحرة : ﴿**قالوا ياموسى إما أن تلقى، وإما أن نكون أول من ألقى. قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى. قلنا لاتخف إنك أنت الأعلى. وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث أتى. فألقى السحرة سجَّدا قالوا آمنا برب هارون وموسى**﴾(٣)

الفاء فى "فإذا حبالهم وعصيهم" مفصحة عن سبب محذوف، تقديره: فألقوا. وقد طواه النظم الحكيم ليصور بهذا الطى سرعة

(١) حاشية القطب على الكشاف ٢٢٨/١ (٢) تفسير أبى السعود ١٠٦/١

(٣) طه ٦٥ - ٧٠

إلقائهم، ويكشف عن رغبتهم فى المبادرة بالإلقاء، وهو الذى أشعر به تغييرهم لطريقة النظم فى قولهم : " إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى". فلم يقولوا: وإما أن نلقى ليتناسب مع ماقبله، بل زادوا فيه "أول" ليُحمّلوه حرصهم على السبق فى الإلقاء، كما عدلوا عن المضارع إلى الماضى "ألقى" وكأنهم بادروا بالفعل إلى الإلقاء بحيث لو جاء جوابه على غير هواهم لخالفوه. وإنك لتحس مع حذف إلقائهم والمبادرة إلى ماترتب عليه، أنهم لم ينتظروا من موسى جوابا، وأن تخييرهم له كان لونا من الخداع السياسى، ليَظهروا أمام الجموع المحتشدة بمظهر الواثق من الغلبة، الذى لايبالى أن يبدأ المعركة أو يبدأها عدوه، وهم يعالجون بهذا التظاهر خوفا دفينا، وتوتُّراً ملك عليهم أقطار أنفسهم. إنها سطوة الحق، تنفذ إلى قلوب أهل الباطل، فتشيع فيهم الرعب والخوف، مهما تستروا بمظاهر القوة.

وفى نهاية المعركة توحى الفاء فى قوله تعالى : "فألقى السحرة سجدا" بطيّها إلقاءَ موسى لعصاه، وترتيبها خضوع السحرة وإيمانهم برب موسى وهارون، على أمر الله تعالى لموسى بالإلقاء، دون الإلقاء نفسه، يوحى ذلك بأن الله تعالى هو الذى أدار المعركة كما أراد، وأنها بأمره، لابفعل موسى، فأخفت الفاء بما صاحبها من الحذف صورة موسى عليه السلام، ليظهر الله بجبروته وكبريائه، ويفعل بالسحرة مايريد، لذلك لم يقل السحرة آمنا بهارون وموسى، لأنهم أدركوا أن ماشاهدوه فعلُ الله لاطاقة بشر، وأن موسى بعصاه لم يكن ليغلبهم، وإنما الذى هزمهم وأبطل سحرهم هو رب موسى، فكان قولهم : "آمنا برب هارون وموسى" صوتَ الإيمان الحقيقى المذعن لسلطان الرب، وليس أثرا لهزيمة فى معركة.

وإذا أردت أن ترى جلال الإعجاز فى هذا النظم، وكيف يموت هذا الحدث، وينطفىء شعاعه حين تنطق بهذه المحذوفات، كما قدرها البيضاوى : (أى فألقى، فتلقفت، فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر، وإنما هو من آيات الله، ومعجزة من معجزاته) (١).

---

(١) تفسير البيضاوى ٢١٥/٦

لقد حسم الله المعركة قبل أن يبدأ موسى الإلقاء، حين جعل العصا تنفعل بأمر الله، وتنهى المعركة قبل أن يمسك بها موسى، كما صوّر ذلك النظم الحكيم فى تركيب يتعانق فيه إعجاز النظم مع إعجاز الحدث : "وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا" فَجَزْمُ الفعل "تلقف" فى جواب الأمر بالإلقاء يدل على استجابة العصا لأمر الله، وتنفيذها ما أراد، فى الوقت الذى وجه فيه الأمر لموسى، فلم يكن هناك داع لذكر إلقاء موسى، ولا إلى ذكر مافعلته العصا من لقْف حبالهم وعِصيّهم، كما جاء فى سورة الشعراء : **﴿فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف مايأفكون﴾** (١) فهنا هنا تصويرا لجلال المحْدِث، وفى الشعراء تصوير لجلال الحدث. وفى الفرق بينهما تكمن فروق النظم فى السورتين، وهو سر من أسرار الإعجاز فى قصص القرآن، حيث تتنوع زوايا التصوير وتختلف نقاط التركيز، ويلمح النظم إليها بتغييرات دقيقة فى ألفاظها، جليلة فى مغزاها.

إن خوارق الأحداث، واستيلاءها على العقول والقلوب، لاتترك مجالا لمن هُمْ فى موقع الحدث للتأمل فى وقائعها، وربط الأسباب بمسبباتها، فإن روعة المشهد، وخروجه عن طاقة البشر يُعجز الفكر بنفس القدر الذى يُعجز به اليدَ واللسان. وحينئذ يكون ذكر الأفعال المطوية - على ماقدرَّه البيضاوى - بحركتها البطيئة عبئا يتثاقل به النظم عن تصوير جلال هذا الحدث، ومواكبة مشاهده السريعة المتلاحقة.

لقد كان تحقق السحرة من عجزهم، والإيمان بأن مايشاهدونه آية من آيات الله مقترنا بوقوع الحدث، لامتعقّبا له، وماكان جلال المعجزة بحاجة إلى وقت - ولو جدَّ قصير - لإعمال العقل والاستدلال على كونها من عند الله . ذلك ماصورته الفاء بطيّها من الأحداث مايثقل حركة الألفاظ عن مواكبة هذا الإعجاز.

---

(١) الشعراء ٤٥

ألا ترى إلى قوله تعالى فى تصوير المعجزة التى أجراها الله تعالى على عين العُزير، كيف يربط فيها تبيُّنه لقدرة الله تعالى بالحدث ذاته، لابتأمُّله والنظر فيه، لأنه أعظم من أن يحتاج إلى تأمل واستدلال به على قدرة محدثة !! **﴿ أو كالذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير﴾** (١)

تأمَّل قوله " فلما تبيَّن له" كيف رَتَّبت فيه الفاءُ اتّضاحَ حقيقة قدرة الله تعالى أمام العُزير على الأمر بالنظر إلى المشاهدات، ومايجريه الله تعالى عليها من آثار القدرة، دون أن يترك له مهلة من الزمن يعرض فيها ماشاهده على فكره، قبل إقراره بقدرة الله.. تجسيدا لجلال الحدث، وكونه ليس بحاجة إلى فكر فى الشهادة على قدرة محدثه. إن تقدير الأفعال على نحو ماجاء فى روح المعانى : (فأنشرها الله تعالى، وكساها لحما، فنظر إليها، فتبين له كيفيته، فلما تبين ذلك) (٢) لايعدو أن يكون تصورا عقليا لتعاقب الأفعال، والربط بين الأسباب والمسببات، لكن هذا التصوّر لايرتفع إلى مستوى الحدث المعجز، لأن الله لم يوقع آثار قدرته على العظام نشرا وكساء بعد أمْر العزير بالنظر، بل كان فعله تعالى مصاحبا للأمر، لأن تعلق إرادة الله بالأشياء على سبيل الإيجاد هو تعلق تنجيز، وهذا هو السرفى طىّ الموجودات التى قدرها الألوسى، وهى : فأنشرها، وكساها لحما، لأنها وجدت مصاحبة للأمر لابعده، ثم إن هذه الأحداث الخارقة لاتحتاج عند من يشاهدها إلى بحث واستدلال، ليتبين قدرة من أجراها، حتى يقدر : "فتبين له كيفيته".

---

(١) البقرة ٢٥٩ (٢) روح المعانى ٢٣/٣

إن خوارق العادات حين تقع فى أحداث الكون، إنما تقع بسرعة تعجز فيها ألفاظ الحكاية عن مواكبة المَحْكىّ بمثل هذه التقديرات التى توقف وثبة الفكر، وتعوق حركته عن ملاحقة الأحداث. لذلك يقابل الله فى حكايتها إعجاز الحدث بإعجاز النظم، حين يحكيه بهذه الفاء التى تتخفف من كل مايبطىء بها عن مجاراة المحكى، فكان طىّ ماقدروه إعجازا يعانق إعجاز الحدث.

فإذا كان من رصد وتأمل ففى أثرها على المُشاهد، ومراقبة انفعاله بالأحداث وحركتها فى نفسه، وهو مايصنعه القرآن حين يطيل الوقوف بعد حكاية المعجزة، لينقل انعكاساتها على من شاهدها. والمثال على ذلك قوله تعالى فى حكاية مادار بين سليمان عليه السلام والملأ من جنده : **﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين. قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾**(١)

فإن الفاء فى قوله "فلما رآه" فى طيّها للأحداث مابين قول العالِم بالكتاب، ورؤية سليمان للعرش مستقرا عنده، تجاوبت فى القصّ مع سرعة وقوع الحدث، فما يستغرقه ارتفاع الطَّرْف وانخفاضه من الزمن، دون زمن النطق بفعل واحد، فأنت إذا حكيت أفعالا تمثّل ماصنعه هذا القائل لإحضار العرش مات الحدث بين يديك، ولم تواكب حركةُ العقل فى تصورها للحدث سرعة وقوعه. وحاول أن تضع هذه الأفعال التى قدرها أبو حيان، مما طوته الفاء، فى موضعها من النظم، وهى : (فدعا الله فأتاه به) (٢) فستحسّ عندئذ بأن القصّ على هذا النحو أشبه بمن يرصد قمرا صناعيا بأقدم آلة رصد صنعها الإنسان، فسرعان مايكتشف الراصد أن القمر قد أفلت منه قبل أن يُدير آلته.

---

(١) النمل ٣٨ - ٤٠.   (٢) البحر المحيط ٧/٧٧

إن آية الآيات فى القرآن أنه يمسك بمفاتيح عقول المخاطبين ونفوسهم، فيضبط إيقاعها بما يتناسب مع حركة الأحداث، وهو حين يطوى جزءا منها، فإنما يثب بالعقل والنفس وثبات تقرّبهما من الحدث، وتتيح لهما القدرة على مواكبته. فلما كان ارتداد الطرف، وهو حركة طبيعية تلقائية، لايستغرق من الزمن مايسمح بحكاية دعاء مَن عنده علم الكتاب، والإخبار بإتيانه بالعرش، وثب النظم من عرضه إحضارَه إلى رؤيته مستقرا عند سليمان، ليتصور القارىء مدى السرعة التى لم تستغرق من الزمن شيئا، وركَّز على أثر هذه النعمة فى نفس سليمان، وكيف قابلها وانفعل بها، وهو ما أطال النظم الوقوف عنده.

وانظر إلى بلاغة الحذف، حين ينقلك من تفكير قوم ابراهيم عليه السلام فى قتله وإحراقه، إلى يد الله تتلقف نبيه الكريم، وتنقذه من نار قومه، دون أن تريك أيدىَ الآثمين، وهى ترتكب جرمها : **﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه فأنجاه الله من النار﴾** (١). فقد طوت الفاء حدثا رهيبا، وجرما مروّعا، هو كما قدره المفسرون : (فقذفوه فى النار)(٢) لأن الإنجاء أعقب القذف فى النار. لاقولَهم، ووراء هذا الحذف إيماء إلى أن ماقالوه لم يكن تهديدا أو مجرد تفكير، وإنما كان تصميما وإصرارا، وفى الانتقال من حكاية قولهم إلى الإنجاء مباشرة إشارةٌ إلى أن الله تعالى كان أسرع إلى إنقاذ نبيّه منهم إلى إلقائه فى النار، وأن خليل الله وقع فى يد ربّه قبل أن يقع فى أيديهم ليقذفوه فيها، فنشرت الفاء بهذا الطَىّ غِلاَلة من قدرة الله تعالى، ورعايته لنبيه، غطّت على فعلهم، لتظهر يد الله القوية الغالبة، وتتوارى أيدى القوم الآثمة.

ومن روائع أمثلة هذا الطى فى الذكر الحكيم، مما يذهب ذكره بسر إعجازه، قوله تعالى حكاية لماجرى بين إخوة يوسف وأبيهم : **﴿قالوا يا أبانا مالكَ لاتأمنا على يوسف وإناله لناصحون. أرسله معنا غدا يرتعْ ويلعب وإنا له لحافظون، قال إنى ليحزننى أن**

---

(١) العنكبوت ٢٤ (٢) الفتوحات الإلهية ٣/٣٧٣

تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون. فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون﴾ (١). فقد طوت الفاء فى قوله "فلما ذهبوا" موافقة يعقوب عليه السلام، وإذنه بخروج يوسف مع إخوته. وقدر المفسرون الفعل الذى عطفت الفاءُ عليه : **(فأرْسَلَه معهم)** (٢) وفى هذا الطىّ إيماء إلى عدم رضا يعقوب عليه السلام واستكراهه عليه، وأن أبناءه غلبوه على أمره، فلو ذكر هذا المحذوف لمات هذا المعنى، وأوهم ذكره أن يعقوب قد اطمأن نفسا إلى وعود أبنائه، واستراح لها فأرسله معهم، وهو غير مايوحى به قوله عليه السلام حين جاءوه بقميصه وعليه دَمٌ : "**بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا**" (٣) وهو حديث المتّهم لهم، فكان ذلك دليلا على أنه لم يرسله معهم طوع نفسه، ورغبة منه ، ففى ذكر الفعل المحذوف هنا زيادة ينقص بها المعنى، ورحم الله شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر حين قال فى الحذف : (فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق، وأتم ماتكون بيانا إذا لم تبن) (٤)

هذا الطى الذى يبعث الحياة فى الأحداث، ويؤدى ذكر المطوى فيه إلى قطع تدفُّقها، وموت حركتها هو ماتجده فى قوله تعالى فى الحديث عن قصة موسى مع ابنتى شعيب : **﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير. فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا﴾** (٥)

أومأت الفاء فى قوله "فجاءته" إلى محذوف يستدل عليه العقل

---

(١) يوسف ١١ – ١٥ (٢) تفسير الجلالين ٤٣٩/٢ (٣) يوسف ١٨

(٤) دلائل الإعجاز ١٤٦ (٥) القصص ٢٣ – ٢٥

فى ترتيبه للأحداث. يقول ابن عطية : (فى هذا الموضع اختصار يدل عليه الظاهر، قدره ابن إسحاق : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء فى السعى، فحدثتاه بما كان من أمر الرجل الذى سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتيه، وقيل الصغرى أن تدعوه له، فجاءت على مافى هذه الآية) (١)

فلو ذكرت هذه الأفعال لضاع الغرض من ربط دعاء موسى عليه السلام - وشكواه حاله لربه فى قوله : "رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير" - بهذا الخير الذى ساقه الله إليه بمجىء ابنة شعيب، حيث كانت دعوة أبيها له ليجزيه أجر سقيه إجابة الله السريعة لهذا الدعاء. فطوى الله مابينهما ليصل إجابته بسؤاله، تكريما لتجرُّد موسى، وبذله الخير ابتغاء مرضاته، وتحقيقا لقوله عز وجل :﴿**ادعونى استجب لكم**﴾(٢).

وقد يطوى مع الحدث من الشخوص من ليس لهم أثر فى الأحداث، ومن لايتصور منهم غير الانصياع وتنفيذ الأمر، حتى لايثقل مسرح الأحداث بشخوص يحجبون الرؤية عمن يسهمون فى صنعها. ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿**وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين**﴾ (٣)

فها هنا معطوف عليه محذوف، قدّره أبو السعود، وعلل لحذفه بقوله : (أى فأَتَوْا به، فحذف للإيذان بسرعة الإتيان به، فكأن لم يكن بين الأمر بإحضاره، والخطاب معه زمان أصلا) (٤)

فالمسارعة من جند الملك بتنفيذ ما أمر به شىء مفروغ منه، وذلك شأن الملوك مع عمالهم، لايتصور العقل سوى الإسراع بتلبية ما أراد، وهذا الحذف من طبيعة الفاء الفصيحة، لكنها تزيد هنا مع طىّ فعل الإتيان إخفاء الشخوص التى لا أثر لها فى صنع الحدث، وهم الجنود الذين أحضروا يوسف، لأن ذكرهم يقلل التركيز على الحدث الأصيل،

---

(١) المحرر الوجيز ١/١٥٩ (٢) غافر ٦٠.

(٣) يوسف ٥٤ (٤) تفسير أبى السعود ٤/٢٨٦

الذى أراد القرآن إبرازه، وهو الحوار الذى دار بين الملك ويوسف عليه السلام، لذلك كان الأمر "ائتونى به" غير موجّه إلى معين، فلم يقل : وقال الملك لملئه أولجنده..، وإنما أطلق الأمر ثقة بأنه سينفذ، ولايعنيه من ينفذه. كما لايحتفل القرآن بمن أتاه به، ولا بالإتيان المفروغ منه، حتى لايصرف الذهن عن الغرض من إحضاره، أو يوزع النظر بين مشهد إتيانه ومشهد الحوار الذى دار بينهما. وهذه طريقة القرآن فى القصّ، لايذكر من المشاهد والأحداث إلا ماكان لبنة فى بنائها، ولايذكر من الشخوص مالايسهم فى صنع أحداثها.

ومن بديع مواقع هذه الفاء قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر**﴾ (١) فقد أشارت الفاء إلى فعل مطوى رتب عليه القضاء، وتقديره : "فأفطر فعدة" لأنه لايجب قضاء الصوم إلا بالإفطار. وفى هذا الحذف تنبيه على أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، كما صرح بذلك عليه السلام، فكأن الإفطار مع المرض أو السفر أمر مفروغ منه، فمتى كان المؤمن مريضا أو مسافرا فعليه القضاء، لأن الشأن فيه أن ينصاع لرخص الله تعالى ويقبل هديته. وهذا ما أكده بعد ذلك بقول ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر**﴾(٢) فلم يكتف بالتصريح بإرادته اليسر حتى أكده بنقيضه، وهو عدم إرادته العسر، وليس للعابد إلا أن يمتثل لما أراده المعبود.

ومثله قوله تعالى : ﴿**فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أونسك** ﴾(٣) حيث أومأت الفاء فى قوله " ففدية" إلى محذوف تقديره : فحلق، إذ لافدية عليه إذا لم يحلق، وقد حذف ترغيبا فى التزام رخصة الله تعالى بالحلق، وافتدائه بما عيّنه الله تعالى من الصيام أو الإطعام أو الذبح. ذلك أن الله لم

---

(١) البقرة ١٨٣ - ١٨٤ (٢) البقرة ١٨٥ (٣) البقرة ١٩٦

يفترض العبادات على عباده ليعذبهم بها، أو ليبدو العابد في صورة رَثَّة، ترعى فى رأسه الهوام، وهو ما أكده الرَسول عليه السلام - فيما ذكره القرطبى - حين رأى كعب بن عجرة، وقمله يتساقط على وجهه فقال : "أيوذيك هوامك؟ قال : نعم، فأمره أن يحلق) [1] فبحذف الفعل "حلَق" بدا وكأن الفدية مرتبة على حدوث المرض أو الأذى، وأن الحلق فى مثل هذه الحالة أمر مؤكد. وفى ذلك من يسر الإسلام وسماحته، وحرصه على جمال مظهر العابد، وفتحِ أبواب من الخير للمحتاجين إلى الإطعام والذبح مايشهد بعظمة هذا الدين.

على أنه قد جاء فى القرآن مايبدو خروجا عن هذا الإلف فى دلالة الحذف معها على المسارعة والامتثال، وذلك فى نهاية الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام وقومه، فى شأن البقرة التى أمرهم بذبحها، فقال فيما حكاه الله بعد جدل منهم ومماطلة : **﴿قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقى الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وماكادوا يفعلون﴾** [2]. فهناك فعل مطوى أفصحت عنه الفاء فى قوله "فذبحوها" قدرّه الزمخشرى (فحصَّلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها) [3] وقد جرى الكشاف وشراحه على أن الغرض من الحذف فى مثل هذا الموضع الذى يرتَّب فيه المعطوف على الأمر، هو الدلالة على المسارعة والامتثال فى فعل ما أمر به المخاطب، لكن يكدّر على هذه النكتة أن المأمورين هنا كانوا متثاقلين فى الاستجابة، بدليل هذا الجدل الطويل، وبدليل قوله تعالى : فى تذييل الآية : "وماكادوا يفعلون" وهو ما أورده الطيبى، وردّ عليه فى قوله : (فإن قلت : الفاء فى قوله "فذبحوها" - كما قدرها المصنف - فصيحة، دالة على أنهم سارعوا فى الذبح، ولم يتوقف امتثالهم أمر الله عند تحقق التمييز لمحة، كما نصّ عليه فى الأعراف، فى قوله تعالى : "فاضرب بعصاك الحجر فانبجست"، وقولُه : "فافعلوا ماتؤمرون". وقولُه "وماكادوا يفعلون" تدل على تثاقلهم وتثبُّطهم فى

---

(١) تفسير القرطبى ٢/٧٥٦.   (٢) البقرة ٧١   (٣) الكشاف ١/٢٨٨

الامتثال، فكيف التوفيق؟ ومامعناه؟ قلت : المعنى سارعوا فى امتثال أمر الله عند ظهور الحق وتبين الحال، مع أن بشريتهم عند تبين الحال مانعة من الامتثال، لئلا يفضحوا) (١)

وأرى - والله أعلم - أن تقدير : فحصَّلوها على هذه الأوصاف لاداعى له، لأن قولهم "الآن جئت بالحق" دال على أن البقرة بهذه الأوصاف قد تعينت لديهم، فعرفوها، واستسلموا بعد طول مقاومة وتهرّب، وليست هذه هى الفاء الدالةَ على المسارعة والامتثال، وإنما هى أشبه بالفاء الداخلة على فعل المطاوعة من مثل : كسرته فانكسر، وذلك أنهم بعد أن حوصروا بالإجابات التى حددت البقرة تحديدا كاملا ، حتى عرفوا البقرة وصاحبها، لم يعد أمامهم مفرٌ من الانصياع، ففى الفاء رائحة القسر والإلجاء. وهو صريح : عبارة الطبرى فيما رواه عن ابن زيد، قال : (اضطروا إلى بقرة لايعلمون على صفتها غيرها، وهى صفراء ليس فيها بياض ولاسواد، فقالوا هذه بقرة فلان " الآن جئت بالحق") (٢)

فالفاء، أشعرت بالإذعان والاضطرار. والمسارعةُ التى دلت عليها مسارعة الاستسلام والقهر، وليست مسارعة الامتثال، فالمبادرة بالذبح اندفاع بقهر الحجة وحصار الدليل، ومافى أنفسهم من التثاقل وعدم الرضا دليل افتعال الحدث، لا الانفعال به، فكما أنك إذا قلت : صرعته فانصرع، لاتسمى حركة المصروع مسارعة وامتثالا، فكذلك الأمر فى الآية.

---

(١) فتوح الغيب ١ ورقة ٩٤ (٢) تفسير الطبرى ٢/٢١٧.

فاء المفاجأة ووجه حسنها

ذكر الزمخشرى هذا المعنى للفاء التى تفاجىء الخصم بما لايتوقعه من الحجة الملزمة، والأدلة الدامغة، التى تقطع العذر، وتنهى الحوار، وتدفع المخاطب إلى التسليم بمنطق المتكلم. وهذه الفاء غالبا ماتفصح عن شرط مقدر، وهى بهذا التقدير أجدر، لأن الشرط يستحضر منطق الخصم، ليبنى عليه حجته المفحمة، وهو فن من الجدل رفيع، فيه رائحة مايسمى المذهب الكلامى، لأنك تبنى نتيجة على مقدمة سلم بها الخصم ونطق بها، ولما كانت النتيجة لازمة لما سلم به من المقدمات لم يكن أمام مخاطبك إلا التسليم بما فاجأته به، فهو كمن أتِى من مأمنه، وفوجىء بالهجوم بعد التظاهر بالملاينة والتسليم بمنطقه.

من ذلك قوله تعالى : ﴿**ويوم نحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل. قالوا سبحانك ماكان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا. فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولانصرا**﴾ (١)

يقول الزمخشرى فى الفاء من قوله " فقد كذبوكم" : (هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول) ونحوُها قوله تعالى : ﴿ **ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير. فقد جاءكم بشير ونذير**﴾(٢) وقول القائل :

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا) (٣)

تعددت فى هذه الآية عناصر المفاجأة، أولها هذا الانتقال الفجائى من خطاب المعبودين إلى خطاب العبدة، وهو ما أشار اليه الزمخشرى بالالتفات، وهى مفاجأة تدهش الخصم وتذهب لبّه، والثانية بناء الحجة

---

(١) الفرقان ١٧ - ١٩ (٢) المائدة ١٩ (٣) الكشاف ٨٦/٣٠

على منطق الخصم بما لايستطيع معه الفكاك أو التّفصىّ، لأنك تقول له : هذه حجتك قد أبطلناها فلم يعد أمامك سبيل للاحتجاج بها، وهذا ماتقوم به الفاء المشيرة إلى شرط مستمدّ من حجة الخصم، تقع هى وجوابها بمثابة النتيجة الملزمة، والتقدير : إن كنتم تدّعون أن آلهتكم قد أضلتكم فها هى ذى تكذبكم، فلم يبق إلا أن تعترفوا بجرمكم، وتتحملوا عاقبة كفركم، فما يستطيعون صرفا ولانصرا. والعنصر الثالث من عناصر المفاجأة حذف القول، وفيه من الحسن والخلابة مايصور وقوع الحجة عليهم كالصاعقة التى لايدرون مَنْ قَذَفَ بها، وكأن هذا القول حديث الكون كله، يحاصرهم ويمسك برقابهم.

وقد سمى الشهاب هذه الفاء فجائية، لأنها هى التى وَشَتْ بالمفاجأة. قال الشهاب : (والفاء فجائية فصيحة، أى فقلنا : إن قلتم إنهم أضلونا إذ عبدناهم فقد كذبوكم) (١)

وهى التى قطعت العذر، وألزمت بالحجة، هؤلاء الذين يمكن أن يتخذوا من عدم إرسال الرسل مبررا لكفرهم، فكان مجيئهم دفعا لماعساهم يحتجون، وإلزاما لهم بتحمل وزر كفرهم، فى قول الله تعالى: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير. فقد جاءكم بشير ونذير﴾** (٢) ففى الفاء إبطال لحجة أهل الكتاب، الذين فسدت عقيدتهم، بقولهم فى المسيح مقالة الكفر، وقطعٌ لعذرهم إن هم تعللوا بعدم إرسال الله لهم من يَردُّهم عن زيغهم، كأنه يقول لهم : إن اعتذرتم لأنفسكم بعدهم يجىء البشير والنذير، فقد جاءكم البشير والنذير. ومثلها قوله تعالى فى قطع عذر المشركين حتى لايدّعوا أن الكتاب أنزل على اليهود والنصارى، ولم ينزَّل عليهم كتابٌ **﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد**

---

(١) حاشية الشهاب ٤١٣/٦

(٢) المائدة ١٩

جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾[1]. وهو الذى قال فيه الزمخشرى : (والمعنى : إن صدقتم فيما كنتم تعدّون من أنفسكم، فقد جاءكم بيّنة من ربكم، فحذف الشرط، وهو من أحاسن الحذوف) [2]

وجه حسن الحذف هو الانتقال من حكاية احتجاج الخصم إلى حَجّه بحجته، ببناء آخر الكلام على أوله، والإسراع إلى تحقيق هذا الغرض بحذف الشرط الذى هو من مسلمات الخصم، وفيه من التبكيت والإلزام مافيه. يقول العلوى فى حاشيته على الكشاف تعليقا على عبارة الزمخشرى : (ثم بعد ذلك التفت إليهم بالخطاب تبكيتا لهم، وإلزاما، أى أنتم أولئك الذين تصلّفتم وقلتم : كيت وكيت، فقد جاءكم مطلوبكم، فأين مقتضى قولكم؟ وساعد عليه حذف الشرط، ومن ثم قال : "وهو من أحاسن الحذوف" وقد سمى مثل هذه الفاء فى سورة الحجرات فاء فصيحة، وإن كانت جزائية لدلالتها على السرعة) [3]

لقد كان شيخ البلاغة أول من نبّه إلى دور هذه الفاء، وماتشى به من المعانى والأغراض، واكتفى فى ذلك بأن أشار إليها، وألمح إلى أنها واسطة العقد، فيما عدّه من فرائد الكلام، حين قال : (ثم إنك تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد، بل أن تَفْلِى ديوانا من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات، وذلك ماكان مثل قول الأول، وتمثّل به أبوبكر الصديق، رضوان الله عليه، حين أتاه كتاب خالد بالفتح فى هزيمة الأعاجم :

تمنّانا ليلقانا بقوم تخال بياض لأمهم السرابا
فقد لاقيتنا فرأيت حربا عوانا تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موقع "الفاء" فى قوله "فقد لاقيتنا فرأيت حربا".
ومثل قول العباس بن الأحنف :

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع "الفاء" و"ثم" قبلها) [4].

---

(١) الأنعام ١٥٦ - ١٥٧
(٢) الكشاف ٦٢/٢
(٣) تحفة الأشراف ٧٨١/١
(٤) دلائل الإعجاز ٨٩ - ٩٠

لم يكن عبد القاهر بصدد الحديث عن الفاء حتى يقف عندها، ويكشف عن أسرارها، وإنما كان يعدّد مزايا النظم، وكيف يقع الحرف موقعه، فينشر على سياقه من أردية الحسن مايخطف الأبصار، ويسحر العقول. وإشارة خاطفة من رائد كعبد القاهر حَرِيَّة بأن تفتح أبوابا للبحث، تدين فى كل ماتصل إليه لهذه اللمحة الخاطفة.

هذه الفاء فى البيتين اللتين تمثَّل بهما الصدّيق رضى الله عنه، تحمل من التهكم والسخرية، والتبكيت وإسكات الخصم، مايجعل لها خلابة لايحسّ بها إلا من اعتاد لسانه على ذوب هذه اللغة، وسرت فى عروقه أنسامها العبِقة.

هذا التبكيت تجده على أتمه وأروعه فى قوله تعالى : **﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾** (١)

ففى قوله " فقد رأيتموه" حملت الفاء من معانى التوبيخ والتبكيت ماتنوء بحمله جمل عدة، حيث عرَّت المنهزمين من المؤمنين أمام أنفسهم، واستحضرت ماسجّلته ألسنتهم من الأمانى، لتظهر المناقضة الشديدة بين الأقوال والأفعال. فكم كانوا يتمنون لقاء العدو، ليظهروا من الجلد والشجاعة مايباهى به الله عباده، وهاهم أولاء فى وقعة أحد، يرون الموت الذى تمنوه، فينكصون على أعقابهم. وقد مهد لهذا التوبيخ بقوله قبل هذه الآية : **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾** (٢) يقول الخازن فى تفسيرها : (أم حسبتم أيها المنهزمون أن تدخلوا الجنة كما دخلها الذين قتلوا، وبذلوا مهجهم لربهم عز وجل، وصبروا على ألم الجراح والضرب، وثبتوا لعدوهم، من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم)(٣).

ثم جاءت الآية بعدها لتعرّض (بأن ماسبق من تمنيهم الموت لم يكن

---

(١) آل عمران ١٤٣ (٢) آل عمران ١٤٢ (٣) تفسير الخازن ٢٨٧/١

عن رسوخ ويقين، وتفضيل للشهادة ولقاء الله على الحياة، وإنما كان فيه شائبة من الغرور والزهو، وإرشاد توبيخى لهم ولأمثالهم أن يحاسبوا أنفسهم ويطالبوها بالكمال، الذى تأتى فيه الأعمال مصدقة لخواطر النفس وتمنياتها) (١).

الفاء فى "فقد رأيتموه" مفصحة عن شرط يمكن تقديره : إن كنتم صادقين فى تمنيكم لقاء العدو أو الشهادة فقد رأيتم الموت بأعينكم، فلم انهزمتم وتشبثتم بالحياة؟ وانظر قوله "من قبل ذلك" كيف يريك فرق مابين الدعوى والفعل!

وإذا كانت فاء ابن الأحنف تحمل معنى التبرّم والمماطلة، واستنجاز الوعد بدلالتها على تعليق الجزاء بالشرط كما ذهب الى ذلك الأستاذ محمد نايل فيما نقله عنه الدكتور محمد أبوموسى (٢)، فإن هذه الفاء بلغت الغاية فى الحسن فى قوله تعالى : ﴿**ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون. وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون**﴾ (٣) فهؤلاء الذين يستقصرون الزمن يوم القيامة ويقسمون بأنهم ماقضوا فى دنياهم سوى ساعة واحدة، هم الذين كانوا يستبطئون هذا اليوم، وينكرون وقوعه، فأى تناقض هذا الذى فاجأتهم به الفاء؟! وأى تهكم وسخرية بمن كانوا بالأمس يسخرون ممن توّعدهم بهذا اليوم؟! وأية مرارة يشعرون بها، وقد أعجزتهم الحيلة فلم يُحيروا جوابا كمالم يجدوا مهربا؟! يقول الدكتور أحمد بدوى : (ألا تشعر بما حول هذه الفاء من استفهامات تثيرها، فكأن الذين أوتوا العلم والإيمان يقولون لمنكرى البعث : ألا تزالون مصرين على إنكاره؟ وماذا أنتم فاعلون؟ وكيف تلقون رباً أنكرتم لقاءه) (٤)

---

(١) تفسير المنار ٤/١٣١ (٢) ينظر البلاغة القرآنية عند الزمخشرى ٢٤٢ ط أولى

(٣) الروم ٥٥ - ٥٦ (٤) من بلاغة القرآن ٥٦

دلالة الفاء على الشرط هنا تحمل روح التشفّي والسخرية من الذين أوتوا العلم بمنكرى البعث، وهم يقولون لهم : إن كنتم قد أنكرتم البعث، فها هوذا قد وقع ما أنكرتموه، فماذا أنتم فاعلون وقد أحاط بكم العذاب؟

ثم انظر إلى الاحتجاج بالقياس، وكيف يحمل المخاطبين على الإقرار والإذعان، ويوصد أمامهم كل أبواب الحيل، بعد أن أحاط بهم سلطان الحجة فى قوله تعالى : **﴿ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾** (١)

فإذا أردت أن تقف على سر الإعجاز فى الوصل بالفاء فاستبدل بها الواو، ليكون النظم : وكرهتموه، فستحس أنك قد سقطت من شاهق، وتفلّتت من بين يديك حجة ألزمت بها الخصم، وأشهدت عليه الخلق، واستنفرت طباعهم ومشاعرهم ضده، فأنت بالواو تؤكد مفهوم إنكار الحب، وبالفاء تستدل على كراهية الغيبة، بالقياس على ماسلّم به الخصم من كراهية مثله، وهو أكل لحم الأخ ميتا، وفيه من الإلزام بالحجة مالايستطيع المخاطب التفصى عنه، بعد أن شهد الناس جميعا بكراهية ماشبهت الغيبة به، كما ينبىء عنه توجيه الخطاب إلى كل العقلاء فى قوله "أيحب أحدكم". فالفاء وحدها هى التى رتبت هذه النتيجة، واحتجت عليها بالمقدمة التى لايجادل فيها أحد، بإخراجهما فى صورة الشرط والجزاء. ولايضير بعد ذلك أن يختلف المعربون والمفسرون فى تقدير الارتباط بينهما، فإن الإلزام بالقياس قائم فى كل تقدير. فقد نقل ابن الشجرى فى أماليه عن أبى على الفارسى قوله : (وإنما دخلت الفاء فى الكلام من معنى الجواب، لأن قوله : "أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه" كأنهم قالوا فى جوابه : لا. فقال : "فكرهتموه"، أى : فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة، فهو جواب لما يدل عليه الكلام من قولهم: لا، فالفاء ها هنا بمنزلتها فى الجزاء، والمعنى على : فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة، وإن لم تكن "كما" مذكورة، كما أن قولهم : ما

---

(١) الحجرات ١٢

تأتينى فتحدثنى، المعنى : ماتأتينى فكيف تحدثنى، وإن لم تكن كيف مذكورة، وإنما هى مقدرة) (١)

هذا التقدير فى صيغة قياس تشبيهى حذف منه المشبه، ودل عليه بالفاء الفجائية التى هى فى معنى الجزاء. وإن لم يكن معبرًا عن المحذوف بصيغة شرط، هذا التقدير من أبى على - رحمه الله - جاء مستلهما للمعنى، مستجيبا لذوقه فى التعرف على طعوم الكلام. وهو فى نظرى أدق من تقدير الزمخشرى الذى كان أميل إلى الصناعة منه إلى الذوق، وان لم يبعد بدلالة الفاء عما قاله أبو على. قال الزمخشرى: (عقَّب ذلك بقوله : "فكرهتموه" معناه : فقد كرهتموه، واستقر ذلك. وفيه معنى الشرط، أى إن صح هذا فكرهتموه، وهى على الفاء الفصيحة، أى فتحققت بوجوب الإقرار عليكم، وبأنكم لاتقدرون على دفعه وإنكاره، لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه، كراهتكم له، وتقذركم منه، فليتحقق أيضا أن تكرهوا ماهو نظيره من الغيبة، والطعن فى أعراض المسلمين) (٢)

كلام الزمخشرى هذا يَحْجل حول ماقاله أبو على، وتقدير أبى على أحبّ إلىّ، وإن كان أبو حيّان جعل كلا التقديرين من عجرفة العجم (٣)، مستحسنا تقدير الفراء : "فقد كرهتموه فلا تفعلوه" وهو - فيما أرى - تقدير نحاة لايَعتدُّ بمثله أهل البيان.

وتأمل كيف تداوى هذه الفاء جراح الرسول عليه السلام، وتجففّ مآقيه، حين تطوى له الزمن، وتنقله مما فعله معه أهل الكتاب، إلى مافعلوه بنبيهم، ليرى ما استعظمه من سؤالهم إياه، إلى جانب ما سألوه نبيَّهم حقيرا تافها : **﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾** (٤) فالفاء طوت شرطا قدره أبو السعود : (إن استكبرت

---

(١) أمالى ابن الشجرى ١٠٠/٣ (٢) الكشاف ٥٦٨/٣
(٣) البحر المحيط ١١٥/٨ (٤) النساء ١٥٣

ماسألوه منك. فقد سألوا موسى شيئاً أكبر منه) (١) وسر جمال هذه الفاء مافيها من مفاجأة الرسول بما لم يكن يتوقعه، ونقله بسرعة من حاضر غريب الى ماض أشد غرابة، والربطُ بين سؤالهم للنبى وسؤالهم لموسى، وبيان المفارقة بينهما بما يزيل عن الرسول كل همومه،ويقطع عليه كل سبيل إلى الأسى والحزن على عنت هؤلاء القوم.

ولهذه الفاء المفاجئة خلابتها حين ترخى العنان للخصم، وتسلم له بمنطقه، لتقوده إلى العجز والاستسلام، فى هذا التحدى الموجه إلى مشركى العرب : **﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾**(٢) فقد أظهر القرآن للمخاطبين التسليم بدعواهم أنه مفترى، وجاراهم فيها، ثم فاجأهم بما يعجزهم، ويلجئهم إلى نقض مقالتهم، والاعتراف بكذبهم فى دعواهم .. وكأنه يقول : سلمنا لكم ماتقولون من أنه مُفترًى، فإن كان الأمر كما تقولون فما الذى يعجزكم عن أن تفتروا عشر سور من مثل ما افترى، وأنتم فرسان البيان وأرباب الفصاحة؟ فإذا لم تستطيعوا فليس أمامكم إلا الاعتراف بأنه من عند الله. يقول الزمخشرى : (لما قالوا : افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك، وليس من عند الله، قاوَدَهُمْ على دعواهم، وأرخى معهم العنان، وقال : هبوا أنى اختلقته من عند نفسى، ولم يوحَ إلىّ، وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أنتم أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلى، لاتعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام)(٣) .

ولايخفى أن بيان الزمخشرى لهذه الفاء يدل على أنها مفصحة عن شرط مقدر، وهو واضح فى عبارة البيضاوى المرجّعة لكلام الزمخشرى: (إن صحّ أنى اختلقته من عند نفسى، فإنكم عرب فصحاء مثلى، تقدرون على فعل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر، لتعلمكم القصص والأشعار، وتعودكم القريض والنظم)(٤)

---

(٢) تفسير أبى السعود ٢٤٩/٢ — (٢) هود ١٣

(٣) الكشاف ٢٦١/٢ — (٤) تفسير البيضاوى ٨٠/٥

الوصل بالفاء والوصل بالاستئناف

تلتبس مواقع الفاء بمواقع الاستئناف البياني ، وتَدِقُّ فروق المعاني بينهما، وخاصة حين تقع الجملة الثانية تعليلا للجملة الأولى، فتوصل بفاء التعليل تارة، وترتبط بما قبلها ارتباطا ذاتيا بلا عاطف تارة أخرى، وبين الموضعين من الاشتباك والتداخل مايتطلب الوقوف عنده لبيان فروق النظم، واختلاف الدواعي والأغراض.

ضبط معاقد الكلام

أوجب البلاغيون فصل الجملة عما قبلها إذا (كان الكلام السابق بفحواه كالمورد للسؤال، فينزل ذلك منزلة الواقع، ويطلب بهذا الثاني وقوعه جوابا له، فيقطع عن الكلام السابق لذلك) (١)وأطلقوا على ذلك اسم الاستئناف، فدلوا بهذه التسمية على أن ظاهر الجملتين يقتضي الفصل، لاستقلال كل منهما عن الأخرى، (لأن الاستئناف الذى هو الإتيان بكلام مستقل، فى جميع أجزاء تراكيبه عما قبله يستلزم قطعه، أى ترك عطفه عما قبله) (٢)

والاستئناف مصطلح سرى إلى علم المعانى من أروقة النحاة، ويقصدون به عدم التعلق الإعرابى بين الجملتين، ولايعنى عدم الارتباط المعنوى، بدليل أنهم قالوا به مع توسط الواو أو الفاء بين الجملتين، وأطلقوا عليهما واو الاستئناف، وفاء الاستئناف، وهما فى الحقيقة عاطفتان، لكنهما لاتعطفان المفردات، وإنما تعطفان جملة الاستئناف على ماقبلها. وهذا ماصرَّح به النحاة أنفسهم. ففى قوله تعالى : **﴿إن تبدوا الصدقات فَنِعِمَّا هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفرُ عنكم من سيئاتكم﴾** (٣) قال أبو على الفارسى فى تعليل قراءة ابن عامر : "ويكفّرُ" بالرفع : (أن يستأنف الكلامَ ويقطعَه مما قبله،

---

(١) مفتاح العلوم ١٤٢ (٢) مواهب الفتاح بشروح التلخيص ٥٦/٣.

(٣) البقرة ٢٧١.

فلا يجعل الحرف العاطف للإشراك، ولكن لعطف جملة على جملة) (١)
وقال ابن هشام فى المغنى (قيل : الفاء تكون للاستئناف، كقوله :

ألم تسأل الربع القواء فينطق   وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق

أى فهو ينطق، لأنها لو كانت للعطف لجزم مابعدها، ولو كانت للسببية لنصب. ومثله "فإنما يقول له كن فيكونُ" بالرفع، أى فهو يكونُ حينئذ، وقوله :

الشعر صعب وطويل سُلَّمُه   إذا ارتقى فيه الذى لايعلمه
زلّت به إلى الحضيض قدمُه   يريد أن يُعْربَه فيعجِمُه

أى فهو يعجمُه. ولايجوز نصبه بالعطف، لأنهَ لايريد أن يعجمه.

والتحقيق أن الفاء فى ذلك كله للعطف، وأن المعتمد بالعطف الجملة، لا الفعل)(٢)

فإطلاق البلاغيين اسم الاستئناف على ماهو منزل منزلة الجواب لسؤال اقتضته الأولى، قصد به قطع الجملة المستأنفَة عن سابقتها، وعدم عطفها عليها، (لما بينهما من الاتصال والربط الذاتى المنافى للعطف) (٣) لذلك أطلق عليه علماءالبلاغة شبه كمال الاتصال، ولم يطلقوا عليه شبه كمال الانقطاع، مع أن الفصل فيما قيس عليه من السؤال والجواب الحقيقيين من كمال الانقطاع، لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء. وقد نبّه الزمخشرى إلى التداعى المعنوى بين جملة الاستئناف وما استؤنفت عنه، وإلى أن الابتداء اللفظى لايمنع من التبعية المعنوية بين الجملتين، وذلك فى قوله تعالى : **﴿هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾** (٤) فقال : (وقد مرّ لى أن الكلام المبتدأ عقيب "المتقين" سبيله سبيل الاستئناف، وأنه مبنى على تقدير سؤال، فذلك إدراج له فى حكم المتقين، وتابع له في المعنى، وإن كان مبتدأ فى

---

(١) الحجة ٢/٢٩٩   (٢) المغنى ١/١٦٧.
(٣) مواهب الفتاح - شروح التلخيص ٣/٥٣   (٤) البقرة ٢ - ٣

اللفظ، فهو فى الحقيقة كالجارى عليه) (١) وعلق السيد الشريف على ذلك بقوله : (يعنى أنه وإن كان فى صورة كلام مستقل منقطع عما قبله، حيث جعل مبتدأ لفظا مخبرا عنه بأولئك، لكنه مرتبط ارتباطا معنويا صار به من تتمة ماقبله، متصلا به اتصال التابع بمتبوعه) (٢)

وأكثر مواقع الفاء التباسا بالاستئناف ماكان بينها وبين "إنّ"، وبينها وبين استئناف القول فى المحاورات. وكان عبد القَاهر قد نبَّه فى حديثه الممتع عن "إنّ" ومواقعها، إلى صحة وقوع الفاء موقعها، فقال: (واعلم أن من شأن "إنّ" إذا جاءت على هذا الوجه أن تغنى غناء الفاء العاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجبا، فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف، ومقطوعا موصولا معا، أفلا ترى أنك لو أسقطت "إنّ" من قوله :

* إن ذاك النجاح فى التبكير*

لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لاتتصل بالأولى، ولاتكون منها بسبيل حتى تجىء الفاء، فتقول : بكرا صاحبى قبل الهجير، فذاك النجاح فى التبكير، ومثله قول بعض العرب :

فغنها وهى لك الفداء　　　إن غناء الإبل الحداء

فانظر إلى قوله : " إن غناء الإبل الحداء" وإلى ملاءمته الكلام قبله، وحسن تشبثه به، وإلى حسن تعطّف الكلام الأول عليه، ثم انظر إذا تركت "إنّ" فقلت : فغنها وهى لك الفداء، غناء الإبل الحداء، كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر؟ وكيف يُشئم هذا ويُعرق ذاك؟ حتى لاتجد حيلة فى ائتلافهما، حتى تجتلب لهما "الفاء"، فتقول : فغنها وهى لك الفداء، فغناء الإبل الحداء" ثم تعلم أن ليست الألفة بينهما من جنس ماكان؟ وأن قد ذهبت الأَنَسَة التى كنت تجد،

---

(١) الكشاف ١٤٩/١　　　(٢) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١٤٩/١

والحسن الذى كنت ترى) (١)

هذا الكلام الطيب يقفنا على مشارف موازنة بين وصلين : أحدهما ظاهر بحرف موضوع للوصل، هو الفاء، والثانى خفى يتصل فيه الكلام اتصالا ذاتيا، وتتكاثر فيه المعانى تكاثرا طبيعيا لايحتاج معه إلى واصل صناعى.

وإذا كان عبد القاهر قد اكتفى فى هذه الموازنة بالإلماح إلى تفوق الوصل الخفى، وأن الفاء وإن قامت بدور "إنَّ" فى الربط بين الجمل، فإنها لاتضاهيها فى الحسن، ولاتغنى غناءها فى ذوق أهل البيان، فإنه وضع أيدينا على الفرق بين أن تتناسل المعانى، كما يتناسل الأحياء، ويرث الخالف صفات السالف، ويمتدّ بنسبه امتدادا طبيعيا، وبين أن تتواصل المعانى تواصُلَ من تجمع بينهما عُرى الصداقة، وتضمهما روابط الألفَة. فكما لاتسأل عن سبب اتصال الابن بأبيه سؤالَك عن الاسباب التى جمعت بين صديقين، فكذلك لاتحتاج جملة الجواب فى ارتباطها بجملة السؤال إلى رباط خارجى ، احتياجَ الجملتين اللتين تربط بينهما الفاء. يقول الدكتور محمد أبوموسى : (أن ذكر الفاء نص فى التعليل، وأن الكلام لم يبن على أساس أن تكون الجملة الثانية متولدة عن الجملة الأولى، وموصولة بها، بهذه الرابطة التى تكلمنا فيها، وإنما هى مرتبطة بها بالفاء التى تعطفها عليها عطف العلة على المعلول، كأن هنا كلامين متميزين، أحدهما علة للآخر قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية، ولهذا صار الفرق بين بناء الأسلوبين فرقا ظاهرا، فأحدهما يقوم على الروابط الداخلية الخفية، والآخر على العلاقات اللفظية الظاهرة، ولكل مقامه) (٢)

وليست كل مواقع "إنّ" تقوم فيها الفاء مقامها (إنما يكون الذى ذكرنا فى الجملة من حديث اقتضاء الفاء، إذا كان مصدرها مصدر الكلام يصحح به ماقبله، ويحتج له، ويبين وجه الفائدة فيه. ألا ترى أن

---

(١) دلائل الإعجاز ٢٧٣ (٢) دلالات التراكيب ٣٤

الغرض من قوله :

* إن ذاك النجاح فى التبكير *

جلُّه أن يبين المعنى فى قوله لصاحبيه "بكّرا"، وأن يحتجّ لنفسه فى الأمر بالتبكير، ويبين وجه الفائدة فيه) [١]لكن اللافت للنظر فى حديث عبد القاهر عن "إنّ" تأكيده فى كل مرة على أن إسقاطها يقطع أواصر الجمل، ويذهب لُحمة النسب بينها، ولاسبيل إلى وصلها إلا إذا وضعت الفاء موضعها. يقول : (هل شىء أبين فى الفائدة، وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لاتدخل، أنك ترى الجملة إذا هى دخلت ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه وتتحد به، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا، وكأن أحدهما قد سبك فى الآخر ؟

هذه هى الصورة حتى إذا جئت إلى "إنّ" فأسقطتها رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول، وتجافى معناه عن معناه، ورأيته لايتصل به، ولايكون منه بسبيل حتى تجىء بالفاء) [٢]

وهذا غير ماتقرر فى علم المعانى من أن الجملة المستأنفة قد تكون مؤكَّدة بإنَّ، إذا كان المخاطب مترددا، أوله ظن فى خلاف ما أخبرتَه، وقد يكون الاستئناف بغيرها إذا لم يكن ثمة حاجة إلى التأكيد، وهذا يعنى أن إسقاط "إنّ" يذهب بالغرض من التأكيد، ولكنه لايذهب بالترابط، فهو اختلاف دواع ومقامات، تتفاضل فيها الأساليب بقدر استجابتها لحاجات النفس وأغراضها، وليست مقارنة بين خطأ وصواب، اللهم إلا أن يكون قد أراد شيخ البلاغة بتجافى المعانى وعدم اتصالها مالايجىء محققا لمقتضيات الأحوال ودواعى السياق، وإلا فإن الربط بالاستئناف قائم بغير "إنَّ والفاء. يقول السّعد : (فإن قلت : اعبد ربك، إن العبادة حق له، فهو جواب للسؤال عن السبب الخاص، أى : هل العبادة حق له وإذا قلت : فالعبادة حق له، فهو بيان ظاهر لمطلق السبب، ووصل ظاهر بحرف موضوع للوصل. وإذا قلت : العبادة حق له، فهو وصل خفى

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٢٣ (٢) دلائل الإعجاز ٣١٦

تقديرى، والاستئناف جواب للسؤال عن مطلق السبب، أى لم تأمرنا بالعبادة له ؟ وهذا أبلغ الوصلين وأقواهما، فتَفاوت هذه الثلاثة بحسب تفاوت المقامات) (١)

وعليه فإنك لو قلت فى البيت الذى ذكره عبد القاهر : غناء الإبل الحداء" كان وصلا خفيا بالاستئناف كذلك، لكن يكون سؤالا عن مطلق السبب، وهو مايجافى حال المخاطب، الذى انشرح صدره للغناء، بعد أن عرف أن غناءه للإبل سبب افتدائها له، فلايتصور منه أن يسأل: لم تأمرنى بالغناء، وإنما يسأل عن هذا الغناء أهو الحداء أم شىء آخر؟ فكان سؤال المتردد المحوج إلى تأكيد ماتصوره من أنواع الغناء. وهو مالايصلح بإسقاط "إن" سواء عوض عنها الفاء أم وصل بغيرها.

ويكاد أهل البيان يجمعون على أن الوصل الخفى أبلغ من الوصل الظاهر بالفاء، وذلك لما فيه من الالتفات إلى المخاطب، وإثارته وإيقاظ فكره، واستبطان مشاعره ومايدور بخلده ، ونقله من مجرد سامع يتلقى الأخبار ويتابعها، إلى محاور صامت، يؤثّر فى الأحداث بحركته الذهنية، ويرسل إشارات عقلية، يلتقطها المتكلم، ويجيبه عليها، دون أن يتدخل المخاطب بكلام مقروء أو مسموع فى الحوار، فهو محاور بغير كلام، ومؤثر بغير ضجيج، إنه تراسل الحواس بين المبدع والمتلقى، تفردت به لغتنا فى نظمها العجيب.

لكن هذه الأبلغية فى الموازنة بين الفاء والاستئناف موازنةٌ نظرية بحتة، لاتعنى أن الاستئناف حيث وقع كان أبلغ، وإنما يحكم ذلك دواعى الأحوال ومقامات الخطاب، فقد يكون الوصل بالفاء أبلغ فى مقام، والوصل الخفى بالاستئناف مجردا من حرف التوكيد أبلغ فى مقام ثان، وقد تتعين "إن" فى مقام ثالث، ويجمع بينها وبين الفاء فى مقام رابع.

وللقرآن فى اختيارات هذه الطرق واستخدامها فى الموضع الذى لايصلح فيه سواها المثل الأعلى. ولصاحب الفرائد فى ذلك كلام لو لم

---

(١) المطول ٢٥٩

يكن له فى كتابه غيره، لكان جديرا أن يوصف بالفرائد، فما بالك بمثله وهو كثير ؟! يقول : (مما مّهدنا لك من كيفية إخراج الكلام على مقتضى الظاهر وخلافه، ولاسيما تنزيل غير السائل منزلة السائل، مع ماسيأتيك فى الفن الرابع فى بحث الفصل والوصل من مواقع الاستئناف، وفى بحث الإيجاز والإطناب من التنبيه على تفاوت المقامات فى اقتضاء الدلالة على المعنى بصريح اللفظ، وبالقرائن يعرف تفاوت : اعبد ربك، إن العبادة حق له؟ أو العبادة، أو فالعبادة حق له، بحسب المقام، فإنك إذا قلت : اعبد ربك، فإن كان المخاطب منكرا لاستحقاقه العبادة أو مترددا فيه، أو خالى الذهن، لكن مع أمارة إنكار أو اعتبار تردد، كان قولك : "إن العبادة حق له" جيدا فى الغاية، لمصادفته مقتضى المقام، و "العبادة حق له" رديًا، لخلوه عن ذلك، و"فالعبادة" متوسطا، لاشتماله على شائبة تأكيد وإشعار بالسببية، وإن كان خالى الذهن من غير أمارة الإنكار والتردد، كان قولك" العبادة حق له" جيّدا، و "إن العبادة" ردّيا، و"فالعبادة" متوسطا، لقربه من الابتدائى، وإن كان مما لايناسبه إلا وصل الكلام بما قبله بحرف ظاهر دال على السببية، كان "فالعبادة حق له" جيدا قطعا، و"العبادة" رديًا، و "إن العبادة" متوسطا، لأن ؛"إن" يغنى غناء الفاء العاطفة فى الجملة الخبرية، وإن كان ممن يناسبه الوصل الخفى المعنوى، كان الأجود "العبادة")(١)

لقد حرصت على نقل هذا النص بطوله، لأنه يوازن بين الأساليب بخواصها مرتبطة بمقاماتها، فكان أكثر تجاوبا مع واقع النصوص فى اللسان العربى، وفى قمتها النص المعجز، الذى وقعت فيه هذه الأنماط من الأساليب محكمة غاية الإحكام، آخذة بحُجَز سياقها، أو آخذا سياقها بحجزها، على خير ماتحب البلاغة وترضي.

ونبدأ بأساليب الحوار التى يحكيها القرآن على ألسنة المتحاورين، فيأتى لفظ القول موصولا بالفاء حينا، ومقطوعا فى أغلب

(١) الفرائد فى شرح الفوائد ٢٢

الأحيان. وقد ذهب أهل اللغة إلى أن الأصل فى المقاولات وصلها بالفاء، وماجاء بغيرها فهو مبنى على إضمارها. قال الطبرى فى قوله تعالى : **﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا﴾**(١) (وحذفت الفاء من قوله : " أتتخذنا هزوا" وهو جواب، لاستغناء ماقبله من الكلام عنه، وحسن السكوت على قوله : "إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة" فجاز لذلك إسقاط الفاء من قوله "أتتخذنا هزوا" كما جاز وحسن إسقاطها من قوله تعالى : "قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا" (سورة الحجر والذاريات) ولم يقل : فقالوا إنا أرسلنا، ولو قيل : فقالوا كان حسنا أيضا جائزا) (٢)

فالفاء فى نظر أهل اللغة مرادة فى مثل هذه المواضع، وهو ماصرح به ابن الشجرى حين قال : (ومما استمر فيه حذف الفاء من أوائل آيات متواليات، قوله تعالى : **"قال فرعون ومارب العالمين..... قال فأت به إن كنت من الصادقين"** (٣) جميع هذه الآى الفاء مرادة فيها"(٤)لكن أهل البيان يرون أن أقوال المتحاورين موصولة اتصالا ذاتيا يتولد من كل قول سؤال يقع الآخر جوابا له. يقول عبد القاهر : (واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف، هذا هو التقدير فيه والله أعلم، أعنى مثل قوله تعالى : **﴿وهل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف﴾**(٥) جاء على مايقع فى أنفس المخلوقين من السؤال. فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم : "دخل قوم على فلان فقالوا "كذا" أن يقولوا : فما قال هو؟ ويقول المجيب: "قال كذا" أخرج الكلام ذلك المخْرج، لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه) (٦)

---

(١) البقرة ٦٧ (٢) تفسير الطبرى ١٨٣/٢ (٣) الشعراء ٢٣ - ٣١
(٤) أمالى ابن الشجرى ١٤٥/٢ (٥) الذاريات ٢٤ - ٢٨ (٦) دلائل الإعجاز

هذا الفصل روعى فيه حركة ذهن السامع فى تنقله بين المتحاورين، ومواكبته فى وثباته وتطلعاته، وفيه تقدير لوعيه وحسن تنصته، فيساق له كلام المحاور الآخر مساق الجواب لماهمست به نفسه، وجال بخاطره، فهو كلام يتكاثر داخل نفس المخاطب ويترتب فى ذهنه، ويمتد بامتداد أفقه المتوثب إلى المعرفة، للإجابة عما يجول بخاطره.

فالمخاطب هنا سريع الحركة، كامل اليقظة، يمسك بمفاتيح الحوار، ويمطّه بالقدر الذى يشبع نهمه.

فإذا مادخلت الفاء كان للحوار مذاق آخر، تتدفّق فيه الكلمات والجمل تدفُّقا لايترك للمخاطب مهلة يلتقط فيها أنفاسه، ويستجمع فيها قواه، فهو مأخوذ بجلال الحدث، يرصده ويلاحقه، لكنه لايسبقه، وتترتب فيه الأحداث طبقا لما يريد المتكلم أن يخبر به، لاكيفما أراد المخاطب أن يَعْرِف .

لذلك كان الاستئناف وطرح الفاء أبلغ، لما فيه من الرسائل المتبادلة بين المخاطب والمتكلم، والتى يطوى فيها حديث النفس ويبقى أثره دالا عليه فى الفصل بين أقوال المتحاورين، وهو ضرب من الإيجاز، تقل فيه الألفاظ وتتكاثر المعانى وتتوثق فيه الصلة بين المبدع والمتلقى.

فصل أقوال المتجاورين ووصلها:

أما عن اختلاف المقامات فى فصل المقاولات ووصلها، فمتى كان المقام مقام تسجيل واستنكار وتوبيخ، وكان الغرض إشهاد المخاطب على أصحاب هذه الأقوال وإدانتهم، أو كان الحوار يمثل أحداثا غريبة يثب فيها خيال المخاطب لاستشراف مالم يقص عليه منها، كان الفصل هو الأليق، لأنه حينئذ يراد له أن يشارك بشهادته، فتترك له الفرصة، لأن يسأل ويجاب كما هو الشأن فى قصة البقرة، التى أمر الله تعالى بنى إسرائيل بذبحها، فكانت أقوالهم جدلا ومماطلة تدهش المخاطب، وتدفعه

إلى التطلع لمعرفة ماوصل إليه القوم فى تعنتهم ومماطلتهم. ومثل ذلك الحوار الذى دار بين رسل الله، وبين إبراهيم عليه السلام، وبينهم وبين زوجته : **﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين. إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون. فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم .. فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم. قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾** (١)

فقد تضمن من الأحداث الغريبة ماتثب معه النفس والعقل، تشوُّفا إلى معرفة ماذا سيحدث بعد كل قول، واندفاعا مما حُكى للوصول إلى مالم يُحْك.

ويجب هنا أن نفرق بين قول ينبنى على قول، ويراعى فيه تطلع المخاطب إلى معرفة قول الآخر، وبين قول يرتبط بقول، ويتسبب عنه حتى يصبح جزء كلام، وينتظم مع الأول انتظام الجملة الواحدة. ففى الأول من الاستقلال مايقتضى الفصل، وفى الثانى من الاشتباك والتداخل مايستدعى حرف الوصل.

وكأنى بالفصل وحاجته إلى الوقوف عند انتهاء القول السابق، أشبه بلحظة انتظار من المتكلم يسمع فيها ماتهمس به نفس المخاطب بالسؤال، قبل أن يستأنف الجواب عنه بحكاية ماقاله الآخر، بخلاف الفاء التى توالى بين الأحداث على وجه يخدم سرعة القصّ، ويربط بين الأسباب ومسبباتها.

والمثل على ذلك ماحكاه الله تعالى عن إرسال النبيين الكريمين : نوح وهود عليهما السلام. قال فى قصة نوح : **﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾**(٢) فعطف القول على الإرسال بالفاء،

---

(١) الذاريات ٢٤ - ٣٠ (٢) الأعراف ٥٩ .

وفى قصة عاد التى عطفت على قصة نوح قال ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلاتتقون﴾ (١) فصل القول عن الإرسال مع تشابه النظم فى القصتين.

وقد توقف الزمخشرى أمام الموضعين، وتساءل عن سر حذف العاطف فى الآية الثانية: (فإن قلت : لم حذَف العاطف من قوله "قال ياقوم" ولم يقل : فقال، كما فى قصة نوح؟ قلت هو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال لهم هود؟ فقيل : "قال ياقوم اعبدوا الله")(٢) غير أن جوابه اقتصر على تعليل الفصل، دون أن يبين سر إيثار الفصل والوصل فى موقعيهما، مما جعل السعد يستدرك عليه بقوله : (تمام الجواب أن يبين وجه اختصاص قول نوح بالعطف والربط اللفظى، وقول هود بالاستئناف والربط المعنوى. فقيل : قصة نوح ابتداء كلام، فليست مظنة سؤال بخلاف قصة هود، فإنها معطوفة على قصة نوح، فكانت مظنة أن يقال : أقال هود مثل ماقال نوح أم لا؟ وقيل : لأن نوحا كان مواظبا على دعواهم، مواصلا للجواب عن شبهتهم؟ فكان كلامه شديد الملاءمة لحرف التعقيب، ولا كذلك حال هود)(٣)

هذا كلام دقيق فى الربط بين اختلافات النظم ودواعيها، وبسْطُ ذلك أن إخبار الله تعالى بإرسال نوح ابتداء لايثير سؤالا مؤداه، ماذا قال لقومه، حتى يقع القول مفصولا على طريق الاستئناف، إذ قد يعقب الإخبار بالإرسال خبرٌ آخر ليس فيه مثل هذا القول، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما﴾ (٤) فلو كان الإخبار بإرساله إلى قومه يستدعى هذا السؤال، لكان ذلك الشأن حيث ورد مثل هذا الخبر. أما الذى استدعى هذا السؤال وورود القول مفصولا فى قصة هود، فهو عطفها على قصة نوح، وبناؤها على مثل مابنيت عليه الأولى. فلما أعقب الإخبار بإرسال نوح الإخبار بما قال لقومه، توقعّ المخاطب عند سماع الخبر بإرسال هود

---

(١) الأعراف ٦٥
(٢) الكشاف ٨٦/٢
(٣) حاشية السعد ٥٩٨/٢
(٤) العنكبوت ١٤

أن يتبعه الإخبار بما قاله لقومه، لتشابه بناء القصتين، فراعى النظم تشوُّفَهَ إلى معرفة هذا الخبر ففصله. أما دعوى أن نوحا كان مواظبا على دعواهم، مواصلا للجواب عن شبهتهم، فليس ذلك - فيما أرى - سر الوصل بالفاء لأن ذلك شأن المرسلين جميعا، والدليل على ذلك أن القول جاء معطوفا على الإرسال بالفاء، فيما حكاه الله تعالى عن موسى عليه السلام، حين كانت قصته بداية القصص فى سورة الزخرف، كما كانت قصة نوح ابتداء القصص فى سورة الأعراف والمؤمنون. قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين**﴾ (١)

ليس أمامنا إلا القول بأن عطف قصة هود وصالح وشعيب على قصة نوح، وبناءَها على مثل مابنيت عليه من النظم فى سورة الأعراف، هو الذى أثار فيها السؤال. وتقدير السعد لهذا السؤال أدقّ من تقدير الزمخشري : " ماقال هود لقومه؟" وكأن الإخبار بالارسال هو الذى استدعى هذا السؤال، وليس ذلك صحيحا، وإنما الصحيح ماقدره السعد "أقال هود مثل ماقال نوح أم لا." لأن تقدم قصة نوح هو الذى أثار السؤال لاتقدم فعل الإرسال.

أما وصله فى قصة نوح بالفاء ، ففيه إشارة إلى الارتباط الظاهر بين الإرسال والغرض منه، وهو دعوة القوم إلى الله. فأدَّت الفاء دورها فى الإشارة إلى المبادرة بتبليغ ما أرسل به، وأخرجتهما مُخَرّج الجملة الواحدة، التى أخبر بجزئها الأول عن الإرسال، وبجزئها الثانى عن أداء الرسالة. وقد أشار ابن المنير إلى الفرق بين وجود العاطف وتركه فى الموضعين بقوله : (اعلم أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيّرها كالجملة الواحدة، فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها فى معناها) (٢)

هذه المبادرة فى طبيعة الفاء، وماتدل عليه من الإسراع بالرد، يقصد إليها القرآن حين يريد إبراز الانفعال بمضمون القول السابق،

---

(١) الزخرف ٤٦ (٢) الإنصاف ٨٦/٢

وسرعة الاستجابة دونما تلعثم أو تردد، كما نجده فى قوله تعالى : **﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين. وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾** (١)

جاء قوله "فقالوا على الله توكلنا" معطوفا بالفاء، ليعكس صدق الإيمان لدى هذه القلة، التى استثناها الله تعالى ممن أرسل إليهم موسى، وليبرز أن علوّ فرعون وطغيانه لم يدفعاهم إلى التردد لحظة فى الاستجابة لأمر موسى، وهو مايعضّده قَصْرُهم التوكل على الله وحده. فكأن القرآن يقول : إنهم حين دعاهم موسى إلى التوكل على الله أسرعوا إلى تلبيته، ولم يترددوا فى الانحياز إليه. يقول صاحب التحرير والتنوير : (وقد كان صادق إيمانهم مع نور الأمر النبوى الذى واجههم به نبيهم مسرعا بهم إلى التجرد من الخوف والمصانعة، وإلى عقد العزم على التوكل على الله، وكذلك بادروا بكلمة "على الله توكلنا" مشتملة على خصوصية القصر، المقتضى تجردهم عن التوكل على غير الله تعالى، وأشير إلى مبادرتهم بأن عطفت جملة قولهم ذلك على مقالة موسى بفاء التعقيب، خلافا للأسلوب الغالب فى حكاية جمل الأقوال الجارية فى المحاورات، التى تكون غير معطوفة، فخولف مقتضى الظاهر لهذه النكتة.) (٢)

فالفصل وبناء الجملة المستأنفة على السؤال يذهب بالغرض من الدلالة على سرعة الاستجابة، وعدم التردد فى إجابته إلى مادعاهم إليه، لأن الغاية من السؤال هو معرفة رده عليهم، لامعرفة ما إذا كانوا قد بادروا إلى الجواب أو تأخروا فيه.

نعم. الغالب فى حكاية المحاورات فصل الأقوال، رعاية لاستقلال كل

---

(١) يونس ٨٣ - ٨٤ (٢) التحرير والتنوير ٢٦٣/١١

قول عن الآخر، والتفاتا إلى كونها أجوبة عن أسئلة تتولد عن الأقوال السابقة، وهو الغالب كذلك فى محاورات القرآن الكريم. وماجاء معطوفا بالفاء - وهو قليل - روعى فيه خصوصية فى القول، توجب ارتباطه بالأول ارتباط التابع بمتبوعه، فتدخل الفاء للدلالة على أن المعطوف مسبب عما قبله، وليس مستقلا عنه.

وهذا هو سر المجىء بالفاء فى ردّ قوم نوح من سورتى هود والمؤمنون، وحذفها فى ردهم من سورتى الأعراف، مع أنهم فى المواضع الثلاثة يجيبونه على دعوتهم إلى الله تعالى وتخويفهم من عذاب الله، ولكن لما اختلفت إجاباتهم فصل منها ماكان إجابة مستقلة، كأنهم ابتدءوه بها، ووصل بالفاء ماكان من أقوالهم مرتبطا بقول نوح ارتباطا لايصح معه الاستقلال.

فقد جاء مفصولا على سبيل الاستئناف قوله تعالى : **﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين﴾**.(١)

سقطت الفاء من قول الملأ، لأنه وإن كان ردا على دعوة نوح لهم، فإنه أخرج مُخرج الكلام المستقل، لإبراز عنادهم وإصرارهم على كفرهم، وكأنهم بادءُوه بقولهم هذا، ولم يكن منهم ردٌ فعل على دعوته. بخلاف الموضعين اللذين دخلت فيهما الفاء، فإن جوابهم فيهما ليسَ له صفة الاستقلال، ولاتصح المبادأة به، فأخرجته الفاء مخرج التابع المتسبب عن دعوة نوح. وهما قوله تعالى فى سورة هود **﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين. ألاّ تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾** (٢).

---

(١) الأعراف ٥٩ - ٦٠.   (٢) هود ٢٥ - ٢٧

وقوله فى سورة المؤمنون : ﴿**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين**﴾ (١) فقول الملأ فى هذين الموضعين لايصح المبادأة به، وليس هو مما يستقل به الكلام، لأنه كالدليل على كفرهم، فهو مرتبط بقول نوح ارتباط كلام مسبب عن كلام، ومترتب عليه. فكأنهم قالوا : لانقبل دعوتك، لأنك بشر مثلنا، فكما أن قولك : لأنك بشر مثلنا لايصح استقلاله عن قولهم : لانقبل دعوتك، كذلك لايستقل قولهم هذا عن قول نوح عليه السلام، وذلك هو السر فى وصف الملأ فى الموضعين بالكفر، وتركه فى الموضع الأول، لأنه إعلان لكفرهم وإصرارهم عليه، وفى الموضعين الأخيرين تدليل على كفرهم. وهذا واضح فيما قاله الغرناطى: (إن الواقع فى سورة هود من قوله تعالى مخبرا عن جواب قوم نوح : "مانراك إلا بشرا مثلنا" إلى آخر كلامهم لايستقل مبتدأ به، بل يستدعى مايبنى عليه، إذ لايفتتح أحد أحدا بمثل هذا مُبْتَدأ، وإنما يتكلم بهذا جوابا. ولما قال لهم نوح عليه السلام : "ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره" إلى ماعرّفهم به مما حصل به الإعلام بمقامه النبوى، وجاوبوه بُعدا عن تعرّف صدقه، ومعرفة حقه بقولهم : "مانراك إلا بشر مثلنا" أى لو كنت كما تزعم لكنت من جنس الملائكة، ولم تكن من جنس البشر. وقد أفصحوا بهذا فى سورة المؤمنين ....

أما قوله فى سورة الأعراف : "قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين" فإن هذا وإن تضمن الجوابية، فإنه بغير الفاء، وحصلت الجوابية من حيث المعنى مع رعى مايناسب النظم ..

فتأمل جوابهم هنا لما كان الوارد فى قصة نوح عليه السلام فى أنه يبتدأ بمثله، ولايفتقر إلى مايبنى عليه كيف ورد بغير الفاء (٢)

---

(١) المؤمنون ٢٣ - ٢٤ (٢) ملاك التأويل ٣٩٤/١ - ٣٩٥ بتصرف

ومن روائع الوصل بالفاء خلافا لمقتضى الظاهر من فصل المقاولات، قوله تعالى : **﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحي ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾** (١)

فلما كان المسئول عنه وهو الرازق المالك للسمع والأبصار، المخرج الحي من الميت والمخرج الميت من الحي، مما لانزاع فى اختصاصه بما وصف به، ولايدّعى المخاطبون فيه لغيره شريكا، جاء الجواب مقترنا بالفاء، للدلالة على أنهم لايترددون فى التسليم به لله تعالى، ولايماطلون فى الإقرار به، وللفاء فى الدلالة على المبادرة بالجواب فى هذا الموقع ماليس للقطع والاستئناف، المنبىء عن إجالة النظر والتريُّث قبل الجواب.

ألا ترى كيف وقع الجواب مفصولا حين تعلق الأمر بالربوبية والملكية الخالصة لما خلق، لما فيه من إلزام بنفى الشريك، فلم يبادر المخاطبون بالجواب، كما بادروا به فى الآية السابقة وإن لم يستطيعوا الإنكار. إلا أن الفصل أشعر بريْثِهم فى الإجابة، وتدبّر عواقبها قبل إلجائهم إلى النطق بما لامناص من الإقرار به. وذلك فى قوله تعالى : **"قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون. قل من ربُّ السموات السبع ورب العرش العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنى تسحرون"** (٢)

فحين كان أمر رزقهم وماتبعه من ملكية أسماعهم وأبصارهم فى ظهور إسناده لله تعالى مما تهتف به قلوبهم وتلهج به ألسنتهم، دخلت الفاء دالة على مبادرتهم بالإجابة، وحين قُرِّرُوا بالربوبية ومايتبعها من إخلاص ملكيته تعالى لأرضه وسمائه - وفى الإقرار تضمين نفى

---

(١) يونس ٣١. (٢) المؤمنون ٨٥ - ٨٩

الشريك تثاقلت السنتهم وتباطأوا فى الجواب، وأشعر الفصل بأنهم اعترفوااعتراف المغلوب على أمره، المجبر على الإقرار بما لايستطيع إنكاره، وذلك مالايناسب حرف التعقيب.

وهذا هو سر اقتران إجابة الرسول على سؤال المشركين بالفاء، فيما أمر أن يجيبهم به من قوله تعالى : **﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا﴾**(١)وهو الموضع الوحيد من بين سبعة عشر موضعا، صُدِّر فيها خمسة عشر موضعا بصيغة "يسألونك" وموضعان بصيغة "يستفتونك"، وفيها جميعا أجابهم الله تعالى على لسان رسوله، مصدرا الإجابة بلفظ "قل" مفصولا، عدا هذا الموضع الذى اقترن بالفاء، فكان ذلك إشعارا بأن الإجابة على سؤالهم هذا كانت مما أوحى الله تعالى بها إلى نبيه قبل أن يسألوه، فبادرهم بالجواب عقب سؤالهم دون ريْث، بخلاف المواضع الأخرى، التى كان عليه السلام ينتظر الوحى ليجيبهم على ماسألوه. كما فى قوله تعالى : **﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾**(٢)، وقوله **﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾** (٣) قال الزركشى : (قالوا وجميع مافى القرآن من السؤال لم يقع عنه الجواب بالفاء إلا قوله تعالى : "ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا" الآية " لأن الأجوبة فى الجميع كانت بعد السؤال، وفى طه كانت قبل السؤال)(٤).

وللرازى رأى طريف فى اختصاص آية طه بالفاء، وإن كان لايخرج عما أثبتناه من معنى المبادرة والإسراع بالجواب، يقول الرازى : (إنما قال : "فقل" مع فاء التعقيب، لأن مقصورهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر، فلاجرم أمره بالجواب مقرونا بفاء التعقيب، لأن تأخير البيان فى مثل هذه المسألة الأصولية غير جائز . أما المسائل الفروعية فجائزة، لذلك ذكر هناك "قل" من غير حرف التعقيب)(٥)

---

(١) طه ١٠٥ (٢) البقرة ٢١٩ (٣) الإسراء ٨٥

(٤) البرهان فى علوم القرآن ١١٦/١ (٥) تفسير الفخر الرازى ٧٧/٢٢

وانظر كيف وقعت الفاء فى أمر الله لرسوله بالجواب على ما اقترحه أهل مكة من الإتيان بآية كآيات موسى وعيسى، مستخفّين بما أنزل الله تعالى عليه من الآيات، وأعظمها القرآن الذى كان إعجازه لهم أعظم الأدلة على نبوّته عليه السلام. وذلك فى قوله تعالى : ﴿**ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين**﴾(١) فلما كان قولهم هذا عنادا واستكبارا، واستهانة بما أنزل الله على رسوله من الآيات وقعت الفاء فى قوله تعالى : "فقل" لمبادرتهم بالجواب المتضمن تهديدهم بعقاب الله تعالى، إيماء إلى أن ماطلبوه لايستحق الوقوف عنده، والاعتداد به، فقابل استهانتهم فيما سألوا، باستهانة أشد فيما أجاب، ودل بالإسراع فى جوابهم على التمكن والتثبت والثقة فى أن الله تعالى منجز ماتوعّدهم به. فهو ليس فى حاجة إلى التريث والانتظار فى الرد عليهم.

الربط بالفاء والربط بـ "إنّ" :

مواطن الالتباس بين التعليل بالفاء، والاستئناف بحرف التوكيد، هى مواضع الاحتجاج لما قبلهما، والاستدلال على صحته، والفصل بينهما بدواعى الأحوال واختلاف المقامات، فحين يكون الموقف موقف تردد أو إنكار، فإن الاستئناف بحرف التوكيد هو الأنسب لإزالة هذا التردد، وإقناع المنكر، ولذلك ألِفَت "إنّ" مواطن السؤال عن السبب الخاص، لما يصاحبها من التردد والإنكار، كما أنها تكثر عقب الأوامر والنواهى التى يحتاج تنفيذها إلى كُلفة ومشقة، فكان مافيها من مصارعة النفس ومغالبة الهوى، والتثاقل فى أدائها بحاجة إلى مافى حرف التوكيد من الإلهاب والتهييج، مثلما تجده فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم**﴾(٢) وقوله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم**﴾ (٣). وقوله ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة**

---

(١) يونس ٢٧ (٢) الحج ١ (٣) الحجرات ١٢

إن الله مع الصابرين﴾[١] وقوله : **﴿ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾** [٢] **﴿ولاتقف ماليس له به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا. ولاتمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾**[٣] **﴿يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا﴾**[٤].

أما التعليل بالفاء فإنه يخرج السبب مخرج الأمر الذى لاينكره المخاطب، ولا يتردد فيه حقيقة أو تنزيلا، ويكون فى مقام التوبيخ والتهديد أشد لذعا، وأكثر إيجاعا، كما فى قوله تعالى : **﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾** [٥] وفيه ينعى الله تعالى على المؤمنين تثاقلهم عن مقاتلة عدوّ نقض عهده معهم، وحاول إخراج الرسول، وبدأهم بالقتال، وكل هذه جرائم، واعتداءات من شأنها أن تستثير نخوتهم، وتدفعهم إلى المسارعة بمنازلته، وقد ازدادت نبرة التوبيخ والاستهجان لموقفهم بهذا الاستفهام "أتخشونهم"؟ بما تضمّنه من تقريرهم بهذه الخشية، وتوبيخهم عليها، ثم جاء التعليل بالفاء "فالله أحق أن تخشوه" مناديا على غفلتهم عن حقيقة ماكان يجب أن تغيب عن بال المؤمن، وهى أن الله أحق بالخشية. وإذا كان المؤمنون فى حقيقتهم لاينكرون أويترددون فى استيجاب الله خشيتهم، فإن الفاء تظهر التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، فهم على حين يسلمون بأن الله هو الأحق بأن يخشوه، يفعلون نقيضه حين يخشون سواه، وفى ذلك من النكير عليهم ماليس ينهض به حرف التوكيد الموحى بالتردد فى استحقاق الله هذه الخشية، وهو مالايلائم حال المخاطبين، وقد جاء قوله تعالى : "إن كنتم مؤمنين" تجسيدا للتناقض بين الأقوال والأفعال، فليس الإيمان دعوى، وإنما هو عقيدة تدفع إلى الحركة، ويقين يشكل الفكر والسلوك معا.

---

(١) البقرة ١٥٣ (٢) الإسراء ٣٢ (٣) الإسراء ٣٦ - ٣٧

(٤) مريم ٤٤ (٥) التوبة ١٤

وقد عدل النظم الكريم عن الواو إلى الفاء، فلم يقل : أتخشونهم والله أحق أن تخشوه. وهو موقع الواو كما جاء فى خطاب الله لرسوله عليه السلام يعاتبه على ماجرى بينه وبين زيد بن حارثة : **﴿وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾**(١) فلما كان الرسول مستحضرا لهذه الحقيقة، غير خافية عليه جاءت الواو على معنى : أنك تخشى الناس حال علمك بوجوب اختصاص الله بها. وعدل عنها إلى الفاء فى توبيخ المتثاقلين عن القتال، إشعارا بأن المؤمنين فى خشيتهم لعدوهم كانوا جاهلين بها، غافلين عنها، وهذا الفرق الدقيق، بين الواو والفاء أوضحه الزمخشرى فى قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام فى خطابه لرُسُل ملكة سبأ : **﴿قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم﴾** (٢) قال صاحب الكشاف : (فإن قلت: ما الفرق بين قولك : أتمدنى بمال وأنا أغنى منك، وبين أن تقوله بالفاء؟ قلت :إذا قلته بالواو فقد جعلت مخاطبى عالما بزيادتى عليه فى الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدنى بالمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده، كأنى أقول له : أنكر عليك مافعلت، فإنى غنى عنه، وعليه ورد قوله تعالى : **﴿فما آتانى الله خير﴾** (٣)

فتصوير المؤمنين بصورة من خفى عليهم أن الله هو أحق بالخشية أليق بمقام التوبيخ، وهو سر التعليل بالفاء، دون الاستئناف بإن، المشعرة بأن هناك شائبة إنكار عند المخاطبين.

وتأمل هذه الفاء وشدة لذعها فى قوله تعالى تأنيبا لمن لم يحقنوا بالشهادة دماء من نطق بها، حُبًّا فى الغنيمة : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله**

---

(١) الأحزاب ٣٧ (٢) النمل ٣٦
(٣) الكشاف ١٤٨/٣

مغانم كثيرة﴾ (١)

فقد نزلت هذه الآية حين قَتَل أسامةُ بن زيد مرداس بن نهيك الضميرى، واستاق غنمه فى إحدى السرايا التى بعثه الرسول عليها، بعد أن أعلن مرداس إسلامه، مما أغضب الرسول صلى الله عليه وسلم.(٢)

فكان للتعليل بالفاء فى قوله "فعند الله مغانم كثيرة" طعم أشد مرارة فى مقام التأنيب، حيث أبرزت المخاطبين وقد أعماهم حب الدنيا وأعراضها عن رؤية ما ادخرهُ الله لهم من النعيم المقيم، وأنستهم رغبتهم فى الغنيمة العاجلة، ماوعدهم الله تعالى به من المغانم الكثيرة الآجلة. فلو قيل إن عند الله مغانم كثيرة، لما كان لها من الوقع ما للفاء بما أشاعته من تجهيل وغفلة. فمعها يظهر الله تعالى لهم ماجهلوا أو تجاهلوا، ولعمرك إنه لذم مابعده ذم، أن يجهل المجاهدون فى سبيل الله حقيقة ما أعدّ لهم من الجزاء وهو الذى من أجله خرجوا. وليس ذلك موضع حرف التوكيد.

وإذا كان عبد القاهر قد صرح بأن الفاء حين توضع موضع "إن" فى مثل قول بشار :

بكرا صاحبى قبل الهجير   إن ذاك النجاح فى التبكير

تؤدى دورها فى الوصل، ولكنها لاتعيد إلى الجملتين ماكان بينهما من الألفة ، فإننا بمثل ذلك نقول فى "إنّ" حين توضع موضع الفاء، فإنها وإن كانت تغنى غناءها فى الربط بين الجملتين، لكنك لاتجد لها من الحسن والأنسة ماللفاء فى مثل قوله تعالى : **﴿وإن مانرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لامعقب لحكمه وهو سريع الحساب. وقد مكر الذين من قبلهم**

---

(١) النساء ٩٤   (٢) انظر أسباب النزول للواحدى ١٢٩

فلله المكر جميعا يعلم ماتكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ (١)

فقد أدخلت الفاء الأنس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أسرعت إلى إبطال مكر الماكرين، وأعقبت محاولات الكافرين السابقة فى الكيد لأنبيائهم، بحصر المكر المؤثر فى مكر الله. وعدم الاعتداد بكل مكر سواه، على مايدل عليه أسلوب القصر بالتقديم، فى قوله "فلله المكر جميعا". وهذه الفاء وحدها هى التى ألقت فى روع الرسول عليه السلام ألا يأبه بمكرهم فيما أفصحت عنه من معلَّل محذوف، على ماصرح به الجمل فى حاشيته حين قال :(**"فلله المكر جميعا"** تعليل لمحذوف تقديره : فلاعبرة بمكرهم، ولا تأثير له، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله **"فلله المكر جميعا"**). (٢)

وما للفاء من خصوصية الإلماح إلى معان مطوية يجعلها أثيرة فى مثل هذا الموضع، بحيث لو وضَعْتَ "إنّ" موضعها فقلت : وقد مكر الذين من قبلهم إن لله المكر جميعا، لبدت "إنَّ" غريبة نابية، وذهب مابين الجملتين من الانسجام والائتلاف، وضاع ما أومأت إليه الفاء من معلَّل محذوف. ذلك أن الشأن فى حرف التوكيد أن يقع فى جواب سؤال مقدر، تنبىء عنه الجملة المعلَّلة، فإذا كانت هذه الجملة محذوفة، فإن استشعار السؤال ضرب من التنجيم، لايقع مثله فى كلام فصيح. ولو ذكر هذا المعلل لضاع الغرض من الحذف والمبادرة إلى هذا القصر الذى أراح نفس الرسول عليه السلام، وربط على قلوب المؤمنين، إنه موضع الفاء، تتَفرّد به فيما تفصح عنه من حذوف، سواء كان المحذوف سببا كما ذكرناه فى مبحث طى الأحداث، أم كان المحذوف مسبّبا كما فى هذه الآية.

الفاء والاستئناف بغير إنّ :

درج علماء البيان على القول بأن الوصل بالاستئناف أبلغ أبدا من

---

(١) الرعد ٤٠ - ٤٢ (٢) الفتوحات الإلهية ٢/٥١٢

الوصل بالفاء، لما فيه من تقليل اللفظ وتكثير المعنى بتقدير السؤال، ومايتبع ذلك من أغراض ذكروها فى باب الفصل والوصل [١]. وقد صرح الزمخشرى بذلك فى مجال الموازنة بين الوصلين فى مشتبه النظم، وذلك حين قارن بين الوصل بالفاء فى قوله تعالى من سورة الأنعام : **﴿قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لايفلح الظالمون﴾**[٢]، ومثله قوله فى سورة الزمر :**﴿قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم﴾**[٣]، وبين الوصل بالاستئناف فيما أشبههما من قوله تعالى على لسان شعيب : **﴿قال ياقوم أرهطى أعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعلمون محيط. وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب﴾** [٤]

قال الزمخشرى : (فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها فى "سوف تعلمون"؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، ونزعها وصل خفى تقديرى بالاستئناف، الذى هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا : فماذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون، فوصل تارة بالفاء، وتارة بالاستئناف، للتفنن فى البلاغة، كما هو عادة بلغاء العرب، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو باب من أبواب علم البيان، تتكاثر محاسنه)[٥]

وبالرغم من ضعف القول باختلاف أساليب الوصل للتفنن فى البلاغة، لما فيه من إغفال الدواعى والأغراض التى تستتبعها فروق فى النظم، فإن من جاء بعده من المفسرين ورحالات البيان لم يخالفوه فى

---

(١) يراجع مواهب الفتاح وعروس الأفراح، وحاشية الدسوقى، من شروح التلخيص ٣/٥٤

(٢) الأنعام ١٣٥ — (٣) الزمر ٣٩ - ٤٠.

(٤) هود ٩٢ - ٩٣ — (٥) الكشاف ٢/٢٨٩

القول بأبلغية الاستئناف، وحاولوا الكشف عن سر تفوقه على الوصل بالفاء، فقال الرازى بعد أن علل حذف الفاء بتقدير السؤال : (فظهر أن حذف الفاء ههنا أكمل فى باب الفظاعة والتهويل) (١) وفى تعليقه على عبارة البيضاوى : "فهو أبلغ فى التهويل" قال الشهاب الخفاجى : (وكونه أبلغ فى التهويل، للإشعار بأنه مما يسأل عنه، ويعتنى به)(٢) ويضيف الألوسى : (والسؤال المقدر يدل على مادلت عليه الفاء، مع مافى ذلك من تكثير المعنى وتقليل اللفظ) (٣)

لكنهم على اتفاقهم مع الزمخشرى فى كون الوصل بالاستئناف أبلغ، فهم لم يقتنعوا بأن الاختلاف راجع إلى الافتنان فى الأساليب، وحاول بعضهم البحث عن سر المخالفة فى الوصل بالفاء فى موضع، وبالاستئناف فى موضع آخر، فقال الشهاب : (وأما اختيار إحدى الطريقين ثمة، والأخرى هنا، وإن كان مثله لايسأل عنه، لأنه دورى، فلأن أول الذكرين يقتضى التصريح، فيناسبه فى الثانى خلافه) (٤)

غير أن هذا التفسير لم يضف إلى ماقاله الزمخشرى شيئا ذا بال، أولاً : لأن قوله : "لايسأل عنه لأنه دورى" هو التفنن عينه، الذى قال به الزمخشرى، وثانيا : لأن أول الذكرين ماجاء فى سورة الأنعام، وهى فى ترتيب نزولها بعد سورة هود (٥)، فكان حق النظم بناء على هذا القول أن يأتى بالفاء فى "هود"، وبحذفها فى الأنعام، وعلى فرض إغفال ترتيب النزول، واعتماد ترتيب التلاوة، فإنه وُصل بالفاء فى سورة الزمر، وهى الأخيرة فى الترتيبين، فلماذا صرح فيها بالفاء وهى المذكورة آخرا ؟.

وعلل الألوسى هذه المغايرة فى النظم بقوله : (وكأن الداعى إلى الإتيان بالأبلغ هنا دون ماتقدم، أن القوم قاتلهم الله تعالى بالغوا فى الاستهانة به، عليه السلام، وبلغوا الغاية فى ذلك، فناسب أن يبالغ لهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٨/٥٢
(٢) حاشية الشهاب ٥/١٣١
(٣) روح المعانى ١٢/١٢٧
(٤) حاشية الشهاب ٥/١٣١
(٥) يراجع البرهان ١/١٩٣

فى التهديد، ويبلغ فيه الغاية) [١] ويقول الشيخ ابن عاشور بعد أن علل الفصل بتقدير السؤال : (ولكونه كذلك كان مساويا للتقريع بالفاء، الواقع فى آية الأنعام فى المآل، ولكنه أبلغ فى الدلالة على نشأة مضمون الجملة المستأنفة عن مضمون التى قبلها، ففى خطاب شعيب عليه السلام قومَه من الشدة ماليس فى الخطاب المأمور به النبى صلى الله عليه وسلم من اللين "فبما رحمة من الله لنت لهم") [٢]

وبالرجوع إلى ماقاله صاحب الفرائد - وقد سبق ذكره [٣] - نجده يجعل الوصل بالفاء وسطا بين الاستئناف بإن، والاستئناف بغيرها، لأن فى الفاء على حدّ قوله "شائبة تأكيد" ولذلك كان قولك : "اعبد ربك فالعبادة حق له" دون قولك : "إن العبادة حق له" وفوق أن تقول : "العبادة حق له" وبمقتضى ذلك فإن الوصل بالفاء أقوى فى مقام التهديد، لما فيه من شائبة التأكيد هذه التى أشار إليها الجونفورى. يعضّد ذلك أن القول فى هود منسوب إلى شعيب، والقول فى الموضعين الآخرين أمر من الله تعالى لنبيه، والأمر من الله تعالى يكتسب من جلاله وكبريائه، مايجعل التهديد به أشد وأفظع، ثم إن مافى الفاء من معنى التعقيب، ومايومىء إليه من قرب العذاب يتصعد بالتهديد ويتسامى به.

ويشهد لذلك استخدام الوصل بالفاء فى مقام الترغيب والترهيب، حيث كان الأمر صادرا من الله تعالى فى قوله : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ [٤] قال الجمل : (وقوله : "فسيرى الله عملكم" أى خيرا كان أو شرا، تعليل لما قبله، وتأكيد للترغيب والترهيب. والسين للتأكيد) [٥] فاذا كانت السين للتأكيد، فإن دخول الفاء عليها يزيد الجملة تأكيدا، لما تحمله من دلالة على قرب ذلك اليوم الذى يجازون فيه على عملهم. فالفاء بهذا المقام أحق وأولى.

---

(١) روح المعانى ١٢/١٢٧
(٢) التحرير والتنوير ٢/١٥٣
(٣) راجع ص ١٠٢ من هذا الكتاب
(٤) التوبة ١٠٥
(٥) الفتوحات الإلهية ٢/٣١٦

أما حين يراد استمالة المخاطب، وحثه على التأمُّل، ودفعه إلى التساؤل، ليقع الجواب فى نفسه موقع المتشوَّف إليه، المتعطش لسماعه، فإن الفاء تسقط من اللفظ، ليتحقق هذا الغرض. وهو مانراه فى قوله تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولانساء من نساء عسى أن يكُنَّ خيرا منهن﴾**(١) قال الزمخشرى : (وقوله : "عسى أن يكونوا خيرا منهم" كلام مستأنف، قد ورد مورد جواب المستخبر عن العلة الموجبة لما جاء النهى عنه، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء) (٢) فالمنهى هنا هو المؤمنون، وقد أريد استنفارهم، وحثهم على اجتناب هذه الرذيلة، وإشراكهم فى البحث عن علة هذا النهى، ليكونوا أكثر حماسا فى اجتناب مانهوا عنه، وفى لفظ "عسى" مافيه من احترام الفكر، وتهيئته للقبول وحسن الاقتناع.

ومثله ماجاء فى خطاب المؤمنين أيضا : **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين. ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾** (٣) فقد مهد القرآن للأمر "ادفع" بما حسّنه فى نفس المخاطب، من الدعوة إلى الله والعمل الصالح، حتى إذا ماجاء قوله : "ولاتستوى الحسنة ولا السيئة" كان قد تهيأ لأن يسأل : ماذا يصنع إذا قُذف بالسيئة؟ فكان قوله " ادفع بالتى هى أحسن" ومارتبه عليه من النتيجة الطيبة التى جعلت العدو يستحيل صديقا حميما، رعْياً لتنبّه السامع، وكمال فطنته، وهو فى مثل هذا المقام أبلغ من الفاء، كما أشار إليه السعد حين قال : ("ادفع" وصل خفىّ استئنافى هو أبلغ من "فادفع" بالفاء الصريح فى الوصل) (٤). مع ملاحظة أن السعد يجعل الاستئناف أبلغ من الوصل بالفاء أبدا، ونحن نراه أبلغ فى مقامه، لا فى كل حال، كما دللنا على ذلك فيما مضى.

---

(١) الحجرات ١١ — (٢) الكشاف ٣/٥٦٥

(٣) فصلت ٣٣ - ٣٤ — (٤) حاشية السعد ٢/٦٩٥

الفاء بين الإحكام والإقحام

ليست هناك قولة تتناقض مع واقع لساننا العربى، كالقول بالزيادة. ففى الوقت الذى يجمع فيه أهل البيان على أن الإيجاز إلف عربى، وأنه ميدان السبق والتفوق بين المبدعين وفرسان البيان، يخرج علينا من يقول بإقحام كلمة لها دلالتها لتثقل اللفظ، دون أن تضفى على نسقها شيئا من معناها، ويكون إبقاؤها وإلقاؤها سواء. ولو أنهم ضربوا ذلك مثلا لما عيب به الكلام، وعدُّوه من هناته، لسلمنا لهم بما قالوا. أما أن يستشهدوا به على أنه من فصيح الكلام، ويستجيزوا وقوعه فى النظم المعجز، فذلك من خطل الرأى، وفساد القول. والعجيب أن كل ماقالوا فيه بزيادة الفاء، هو من الإيجاز الذى تتكاثر فيه المعانى وتقل الألفاظ، وتؤدى فيه الفاء معنى جملة بأكملها.

مبعث القول بزيادة الفاء

بنى النحاة القول بزيادة الفاء على أنها أداة ربط، فإذا وقعت بين أمرين فيهما من روابط الإعراب مايغنى عن الربط بالفاء حكموا بزيادتها، لأنها لم تفد من الربط ماهى حقيقة به، كما إذا وقعت بين المبتدأ وخبره، أو بين المفعول وفعله، أو كان هناك رابط غيرها، كالواو، وغير ذلك. يقول المرادى : (وأما الفاء الزائدة فهى ضربان : أحدهما الفاء الداخلة على خبر المبتدأ، إذا تضمن معنى الشرط. نحو الذى يأتى فله درهم، فهذه الفاء شبيهة بفاء جواب الشرط، لأنها دخلت لتفيد التنصيص على أن الخبر مستحق بالصلة المذكورة. ولو حذفت لاحتمل كون الخبر مستحقا بغيرها، فإن قلت : فكيف تجعلها زائدة، وهى تفيد هذا المعنى؟ قلت : إنما جعلتها زائدة، لأن الخبر مستغن عن رابط يربطه بالمبتدأ، ولكن المبتدأ لمَّا شَابَه اسم الشرط دخلت الفاء فى خبره تشبيها له بالجواب. وإفادتُها هذا المعنى لاتمنع تسميتها زائدة، وبالجملة فهذه الفاء شبيهة بفاء جواب الشرط، ولتضمن المبتدأ معنى الشرط صُوَرٌ، مذكورة فى موضعها. والثانى : التى دخولها فى الكلام كخروجها، وهذا

القسم لايقول به سيبويه، وقال به الأخفش، وزعم أنهم يقولون : أخوك فوجد. واحتج بقول الشاعر :

وقائلة خولان فانكح فتاتهم   وأكرومة الحيّين خِلْوٌ كما هيا)(١)

بناء على هذا التقسيم للفاء الزائدة أصبح لدينا زيادة فى اللفظ، تتبعها زيادة فى المعنى، وهو ضرب من الإطناب لايخل بفصاحة الكلام، وإن كان اسم الزيادة لايليق بمثله، وخاصة حين يطلق على ماوقع منه فى الذكر الحكيم. وزيادة خالية من الفائدة، يستوى فيها دخول الفاء وخروجها، وقد مثلوا لذلك بالفاء فى قوله تعالى : ﴿**هذا فليذوقوه حميم وغسّاق**﴾(٢)وقوله عز وجل : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**﴾ (٣). قال ابن الشجرى : (وقوله : ﴿**وإلى ربك فارغب**﴾ (٤) جامعت الفاء الواو، و "إلى" متعلقة بما بعد الفاء، ولو وضعت "إلى" فى محلها الذى تستحقه لقيل : وفارغب إلى ربك، ومثله : ﴿**وثيابك فطهّر، والرُّجز فاهجر**﴾(٥) انتصب ماقبل الفاء بما بعدها، وهذا من عجيب كلام العرب، لأن الفاء إنما تعطف، أو تدخل فى الجواب، وما أشبه الجواب، كخبر الاسم الناقص، نحو ﴿**الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم**﴾ (٦) وهى ها هنا خارجة عما وضعت له. ومثل ذلك دخولها فى الأمر المصوغ من كان، مع تقدم الخبر، كقول أبى الطيب:

* ومثل سراك فليكن الطّلابُ *

وإنما جاءوا بها فى هذا النحو ليعلموا أن المفعول أو الخبر وقع فى غير موقعه، فإذا لم يكن فى الكلام الواو ولاغيرها من حروف العطف، كقولك : زيدا فاضرب، فقد قال أبو على : زيدا منصوب بهذا الفعل، وليس تمنع الفاء من العمل، وقال : وتسمىً هذه الفاء معلّقة،

---

(١) الجنى الدانى ٧٠ (٢) ص ٥٧
(٣) المائدة ٣٨ (٤) الانشراح ٨
(٥) المدّثر ٤ – ٥ (٦) البقرة ٢٧٤

كأنها تعلق الفعل المؤخر بالاسم المقدَّم، وكأنها هنا شبيهة بالزائد، ويدل على أن العامل هو هذا الفعل قولك : بزيد فامرر، لو لم تكن معلقة بامرر هذا لم يجز، لأنه لابدّ للباء من شيء تتعلق به، ولو علّقتها بفعل آخر لاحتجت لهذا الفعل إلى باء أخرى. انتهى كلامه. وأقول : إنها زائدة لامحالة فى قوله تعالى : "وثيابك فطهر. والرجز فاهجر" لأنك إن لم تحكم بزيادتها أدى ذلك إلى دخول الواو العاطفة عليها. وهى عاطفة) (١)

أطلت فى النقل ليتضح أن قول النحاة بزيادة الفاء، مرجعه إلى قواعد الصناعة، لا إلى ماتفيده الفاء فى مواقعها من أسرار البيان، بدليل أن المرادى أصرّ على تسميتها بالزائدة، مع ما أفادته من المعنى الذى أوضحه، وبدليل ماذهب إليه ابن الشجرى من وجوب القول بزيادتها فى مثل : "وثيابك فطهر" حتى لايجتمع عاطفان، نظرا إلى أن المفعول مقدّم من تأخير، ولايشفع لهذه الفاء تقدُّم المفعول، وفصله بين العاطفين، ولا دلالتها على أن المفعول وقع فى غير موقعه، كما قال .

قواعد الصناعة التى دفعت النحاة إلى القول بالزيادة ماكان يحق لها أن تنتقل إلى الباحثين فى أسرار الكتاب المجيد، خاصة ماقالوا فيه بالتسوية بين دخولها فى الكلام وخروجها منه، مما يشعر بأنها لَغْوٌ وتطوّل، وهو مايقدح فى فصاحة أى كلام، فضلا عن البيان المعجز.

وقد أحسن الطبرى حين قال : (وغير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام، إذ سواء قيل قائل : هو بمعنى التطوّل، وهو فى الكلام دليل على معنى مفهوم. وقيل آخر فى جميع الكلام الذى نطق به دليلا على ما أريد به : هو بمعنى التطوُّل.) (٢)

قال الشيخ محمود شاكر تعليقا عليه : (أراد الطبرى أن ينفى مالجٌ فيه بعض النحاة من ادّعاء اللغو والزيادة فى الكلام، فهو يقول : إذا كان للحرف أو الكلمة معنى مفهوم فى الكلام، ثم ادعيت أنه زيادة ملغاة، فجائز لغيرك أن يدّعى أن جملة كاملة مفهومة المعنى، أو كلاما

---

(١) أمالى ابن الشجرى ٨٩/٣ (٢) تفسير الطبرى ٤٤٠/١.

كاملا مفهوم المعنى، إنما هى زيادة ملغاة أيضا، وبذلك يبطل كل معنى لكل كلام، إذ يجوز لمدَّع أن يبطل منه مايشاء بما يهوى من الجرأة والادعاء، وهذا تأييد لمذهبنا الذى ارتضيناه) (١)

فاء مُحكَمة لا مُقْحَمَة

إن جلال النصّ القرآنى، وإعجاز نظمه يفرضان على من يتعرض لأسرار بيانه، أن يجعل هِمته فى البحث عما وشت به حروف المعانى فيما استَرَقَتْه من مواقع، تبدو للنظرة العجلى أنها طارئة عليها. فإذا وقع على سرها، فذلك الدليل على بطلان القول بزيادتها، وإذا عجز عن الوصول إليه، فليقل : إن هناك سرا حجبه الله عنه، وسينزع الله هذه الحجب عن غيره.

بهذا اليقين نعرض للمواضع التى ينطبق عليها القول بزيادة الفاء فيها.

ونبدأ بالآيات التى ذكرناهاأمثلةلما قالوا فيه بزيادة الفاء.قال تعالى **﴿هذا ذكروإن للمتقين لحسن مآب.جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب. متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب. وعندهم قاصرات الطرف أتراب.هذا ماتوعدون ليوم الحساب.إن هذالرزقناماله من نفاد.هذا وإن للطاغين لشر مآب.جهنم يصلونهافبئس المهاد. هذافليذوقوه حميم وغسّاق﴾**(٢)

ففى الآية الأولى جاء قوله "هذا ذكر" مفصَحاً فيه عن خبر اسم الإشارة، وفى قوله : "هذا وإن للطاغين لشر مآب" طوى خبره، وكان ذكر الخبر قبلها مع اتحاد النسق فى الآيتين دليلا على أن لـ "هذا" خبرا محذوفا، يومىء إلى جزاء المتقين، ويستحضره فى ذهن المخاطب ليقابل به جزاء الطاغين، وكأنه قال هذا النعيم يقابله للطاغين عذاب أليم. ثم جاء قوله : "هذا فليذوقوه حميم وغسّاق" مطويا فيه الخبر كذلك، وكأنه حاضر فى ذهن المتلقى، يومىء إليه اسم الإشارة ويجسده، ويمكن

---

(١) هامش تفسير الطبرى ١/ ٤٤٠.   (٢) ص ٤٩ - ٥٧

تقديره: هذا العذاب. وقوله "فليذوقوه" جملة أخرى ترتبت على هذا العذاب ترتب الجزاء على الشرط، للإشعار بملازمته لهم، وعدم الفرار منه. وقد ذكر المفسرون فى إعراب "هذا" عدة أوجه ": أحدها أن يكون مبتدأ خبره فليذوقوه، والثانى أن يكون خبره "حميم" وجملة "فليذوقوه" معترضة بينهما، والثالث : أن يكون "هذا" خبرا لمبتدأ محذوف، تقديره : العذاب هذا، وجملة "فليذوقوه" مرتبة عليه ترتب الجزاء على الشرط، والرابع أن يكون منصوبا بفعل مضمر يفسره المذكور، فيفيد الإضمار تكرار الذوق، كأنه قال : يذاقون العذاب إذاقة بعد إذاقة (١)

وأضعف هذه الأقوال هو الأول، لما يترتب عليه من زيادة الفاء، والوجهان الأخيران تظهر معهما بلاغة النظم، لما فى فاء الجزاء من التأكيد، وإيجاز الحذف، والدلالة على ملازمة الطاغين للعذاب، ولما فى الوجه الرابع من معنى تكرر ذوقهم العذاب، إلى مافى الفاء -بمعنى التعقيب فيها - من الإيحاء بسرعة إلقائهم فى العذاب، وعدم إمهالهم.

وبمثل هذا فسّر البغدادى فى خزانته رأى سيبويه، حين قدر مبتدأ محذوفا فى قول الشاعر : وقائلة خولان فانكح فتاتهم

على أن المراد هذه خولان. قال البغدادى : (وعلى قول سيبويه، فالفاء إما لعطف الإنشاء على الخبر، وهو جائز فيما له محل من الإعراب، وإما لربط جواب شرط محذوف، أى إذا كان كذلك فانكح، قال سيبويه : قد يحسن ويستقيم أن تقول : عبد الله فاضربه، والهلال - والله - فانظر اليه. وقال السيرافى : الجمل كلها يجوز أن تكون أجوبتها بالفاء، نحو : زيد أبوك فقم إليه، فإن كونه أباه سبب وعلة للقيام إليه، وكذلك الفاء فى "فانكح" يدل على أن وجود هذه القبيلة علة لأن يتزوّج منهم، ويتقرّب إليهم، لحسن نسائها وشرفها، وفيه إشارة إلى ترتب الحكم على الوصف) (٢)

---

(١) يراجع : إملاء ما منّ به الرحمن ٢٥٩/٤، وحاشية الشهاب ٣١٧/٧.

(٢) خزانة الأدب ٤٥٥/١

كلام السيرافى بالغ الجودة، لأنه يكشف عن دور الفاء فى الربط بين الجملتين، ربط العلّة بمعلولها، ومايصاحب ذلك من استثارة المخاطب، وحثّه على المبادرة بفعل ما أمر به، لتحصيل مايُرَغَّب فيه، كما فى البيت. لذلك تكثر هذه الفاء فى مقام الحث على فِعْل مرغوب، أو التحذير من تركه.

ففى مقام الترغيب تشير الفاء إلى الأسباب التى تدفع المخاطب إلى المبادرة بتحصيل ما أمر به، وتستحثه عليه، حين تعلق حصوله على مرغوبه بفعل المأمور به.

ومن أمثلته : قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم. على الأرائك ينظرون. تعرف فى وجوههم نضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾(١)

لما قدّم من مظاهر النعيم ماتتوق إليه نفس كل عاقل، دخلت الفاء فى قوله : "فليتنافس المتنافسون" لتربط بين الحصول على هذا النعيم، وبين العمل الجاد، والتسابق فى سبيل تحقيقه، وكأنها تقول : إذا أردت أن تكون من هؤلاء المنعَّمين فبادر بالعمل، وسابق إلى الخيرات، وشمر عن ساعد الجد، فلاسبيل إلى هذه المنزلة بغير التنافس والسبق. ففى الفاء من الحث والإغراء مالايكون بحذفها، ولهذا قدم المعمول "فى ذلك" على عامله لإفادة الحصر، والتأكيد على أن ذلك هو مجال التنافس الحقيقى، وما سواه لايستحق التسابق عليه، ولك أن تقدر الشرط على طريقة أهل الصناعة : إن كان تنافسٌ فليتنافس المتنافسون فى هذا لافى سواه.

والحصر فى هذه الفاء أوكد من الحصر بغيرها، لما أن تقدير الشرط والجزاء بالفاء ضرب من التوكيد، والحصر نفسه توكيد، فكانت الفاء توكيدا على توكيد.

---

(١) المطففين ٢٢ - ٢٦.

ومثله قوله تعالى على لسان أحد المنعَّمين فى الجنة بعدأن شاهد قرينه فى سواء الجحيم، وقارن بين ما أنعم الله به عليه، وبين ماصار إليه قرينه: **﴿فاطلع فرآه فى سواء الجحيم. قال تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين. أفما نحن بميتين. إلا موتتنا الأولى ومانحن بمعذَّبين. إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون﴾**(١)

إن سعادة المؤمن بما صار إليه، ومقارنته بما أصبح فيه قرينه، جعلته يهيب بالعاملين أن يخلصوا لهذا الفوز عملهم، فهو الجدير وحده بالتسابق إليه، ولذلك قدم المعمول "لمثل هذا" لإفادة الحصر، مع مافى الإشارة إليه من زيادة الترغيب فيه، ومافى الفاء من معنى الجزاء وإفصاحها عن شرط مقدر من تأكيد الاختصاص، والمعنى : إن كانوا عاملين فليكن لمثل هذا عملهم.

وعلى غراره جاء قوله تعالى : **﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾**(٢)

فإن تقديم هذه الأوصاف الجليلة التى نعت الله بها كتابه المجيد، ودلت على أنه جامع لمنافع الدين والدنيا، مزيل لكل الأدواء التى تصاب بها الأنفس والصدور، هاد لطريق الحق واليقين، هذه النعوت العظيمة تستحضرها الفاء الأولى بالاشارة إليها وتربطها بما ترتبه عليها، وهو ماعناه أبو البقاء بقوله : الفاء الأولى مرتبطة بما قبلها (٣)، أما الثانية فهى المفصحة عن شرط محذوف، تقديره : فإن فرحوا بشىء فليفرحوا بذلك، وتقدير الشرط بهذا العموم يوحى بأنه ليس هناك شىء يستحق المبادرة باغتنامه والفرح له إلا هذا القرآن، وهو تأكيد للحصر، المدلول عليه بتقديم الجار والمجرور "بذلك"، فاجتمع فى هذا الأسلوب من عوامل

---

(١) الصافات ٥٥ - ٦١ (٢) يونس ٥٧ - ٥٨ (٣) إملاء مامن به الرحمن ٢/٢٣٦

التأكيد والحث على استقبال القرآن استقبالا يليق بفيوض الرحمة التى يغمر بها هذه الأمة مايشهد لهذا الموصوف بالإعجاز.

ومثل هذا من جريان الأوصاف على موصوف للترغيب فيه، ببناء الأمر عليه موصولا بالفاء، وإن لم يكن مِثْلَه فى تقديم المعمول، قولُه تعالى : **﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾**(١) الفاء فى "فليصمه" تلمح إلى أن الأمر بالصيام مسبب عما تميز به هذا الشهر الكريم من نزول القرآن فيه، ليكون هدى للناس، فلهذا وجب شكر الله تعالى بصومه، لذلك ردّ الطيبى مانقل عن الأخفش من القول بزيادة الفاء، فقال : (وأقول : يمكن أن يقال : الفاء ههنا للجزاء، فإنه تعالى لما بيَّن كون رمضان مختصا بالفضيلة العظيمة، التى لايشاركه سائر الشهور فيها، فبيّن أن اختصاصه بتلك الفضيلة يناسب اختصاصه بهذه العبادة، ولولا ذلك لما كان لتقديم بيان تلك الفضيلة ههنا وجه، كأنه قيل : لما علم اختصاص هذا الشهر بهذه الفضيلة، فأنتم أيضا خصوه بهذه العبادة) (٢).

وللفاء مذاق خاص حين تربط بين رسالات السماء، وتعكس مابين شرائع الأنبياء من التواصل، ومابين النبيين من وحدة الغاية والهدف، وتستحث النبى عليه السلام على استكمال مابدأه المرسلون، وبناء آخر لبنة فى صرح التوحيد : **﴿شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب. وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت﴾** (٣)

---

(١) البقرة ١٨٥ (٢) فتوح الغيب ١٥٣/٢ (٣) الشورى ١٣ - ١٥

فالفاء الأولى فى قوله : "فلذلك فادع" هى التى تستحضر مع الإشارة وصية الله تعالى لنوح وابراهيم وموسى وعيسى من الدعوة إلى التوحيد، ونبذ التفرق، لتصل دعوة النبى بدعوة إخوانه من الأنبياء السابقين، وتربط بين أولى العزم من المرسلين فى منهاج الدعوة، ووحدة مايدعون إليه، ثم تجىء الفاء الثانية لتتعاون مع الحصر المفاد من تقديم المجرور، فى وجوب تكثيف جهود النبى الكريم، وتسخير كل طاقاته لاستكمال صرح التوحيد، فيزداد الاختصاص توكيدا بفاء الجزاء المشعرة بشرط محذوف، يقدرٌ عامًا ليقع التركيز والاهتمام على جوابه، كأنه قيل : فإن كنت داعيا إلى شىء فادع لهذا التوحيد، وانبذ دواعى الفرقة التى بثها أهل الكتاب بغيا بينهم.

فانظر كيف كانت الفاء الأولى واسطة العقد بين فرائد النبوة، حين ربطت دعوة النبى عليه السلام بدعوة النبيين قبله، وأبرزت وحدة الغاية فى دعوتهم، وكيف تعاونت الفاء الثانية بإفصاحها عن شرط عام، فى تركيز الاهتمام على الأصل الذى يجمع بينهم، وهو التوحيد، وحث النبى الكريم على حصر جهوده فى الدعوة إليه، أفيمكن مع هذا قبول القول بالزيادة؟

والمتأمل للنظم الحكيم لايكاد يخطىء هذه الفاء فى مقامات الترغيب وماتؤديه من دور فى إلهاب المخاطب، وتهييجه لتحصيل المأمور به، حين تجعله الغاية الوحيدة، التى تستحق أن يصرف همته وعنايته إليها.

من ذلك قوله تعالى : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون. قل أفغير الله تأمرونّى أعبد أيها الجاهلون. ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين. بل الله فأعبد وكن من الشاكرين**﴾.(١)

---

(١) الزمر ٦٣ - ٦٦

فإن الغاية هى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده، وقد مهّد الله لذلك بمقدمة أعلن فيها اختصاصه بمُلك السموت والأرض. وهيمنته على ماخلق، ونعى على من يتوجهون بالعبادة إلى من لايملك من الخلق شيئا، ثم حذر من الإشراك بالله على أبلغ صورة حين ساقه فى خطاب موجه إلى النبى الكريم، وإلى الأنبياء من قبله، بادئا بالتخلية قبل التحلية، مترقيا من النهى عن الشرك إلى الأمر بإخلاص العبادة لله، فكان قوله "بل الله فاعبد" قمة أهداف النبوة، وغاية ما أرسل من أجله النبيون، فقدم المفعول لإفادة الحصر، وبه وحده يتحقق الغرض من نبذ الشرك، إذ لو قال : فاعبد الله لما تحقق المطلوب من القضاء على عقائد الشرك عند من يجمعون بين عبادته، وعبادة الوسائط المقرّبة اليه فى زعمهم، ثم جاءت الفاء مؤكدة هذا الحصر حين أفصحت عن شرط، تقديره : إن كنت عابدا فاعبد الله، إشعارا بأن عبادة غير الله تعالى ليست بعبادة، بل هى عين الضلال والكفر حين تشرك من لايملك من الخلق شيئا مع من له الخلق والأمر. يقول السعد فى حاشيته على الكشاف : (وقد يؤكد الاختصاص بدخول الفاء فى الفعل، مثل : زيدا فاضربه، وعليه قوله تعالى : "بل الله فاعبد" "فبذلك فليفرحوا" "وربك فكبر" أى إن كنت عابدا فالله اعبد، وإن فرحوا بشىء فليخصوه بالفرح، وذكر المصنف فى قوله تعالى : "وربك فكبر" أى اختص ربك بالتكبير، ودخول الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل : مهما يكن فلاتدع تكبيره، أى مهما يكن من شىء فلاتترك وصفه بالكبرياء) (١)

هذه الفاء التى قيل بزيادتها آية من آيات الإعجاز، فى قوله تعالى: ﴿**يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر. والرجز فاهجر**﴾ (٢) وهو من أوائل مانزل على قلب الرسول من آيات التحدى. وجرب - إن شئت - حذف الفاءات الثلاث الأخيرة، فسترى أن ذوبا من موسيقى اللفظ قد تفلّت من سمعك، وتسرَّب من بين يديك معنى الاستنهاض والمبادرة، والإصرار على تجاوز كل العقبات التى

---

(١) حاشية السعد ٣٢٣/١ (٢) المدّثر ١ - ٥

تعترض طريق تبليغ الدعوة، والنفاذ بها إلى الأسماع والقلوب.

لقد أصاب الزمخشرى كل الإصابة فى جعل الفاء التى قيل بزيادتها فاء الجزاء فى قوله :"وربك فكبّر" وقدر الشرط معها عاما، فقال : (ودخلت الفاء لمعنى الشرط، كأنه قيل : وماكان فلاتدع تكبيره)(١) فإن تقدير الشرط بهذا العموم : مهما يكن من شىء، فيه استنهاض للرسول عليه السلام، وحفز له على تقويض ما أقامه المشركون من قواعد الشرك، وتقوية لروح الإصرار والتحدى لما عساه يلقاه من صلف المشركين وعنادهم، فكأنه يقول : مهما صادفك من عقبات، ومهما جابهك من قوى الشرك العاتية، فلا تدع ما أمرت به من تخصيص الله بوصف الكبرياء، وفى ذلك تهوين من شأن كبرياء قومه وغرورهم، فالله أكبر من كل كبير، وهذا يتلاءم مع روح الاستنهاض السارية فى النص كله، بدءا من الوصف بالمدّثر، المشعر بأنه لاوقت للراحة والنوم بعد الآن، فعليه أن يخلع ثيابهما ويشمر عن ساعد الجد، ومرورا بلفظ "قم" الدال على وجوب التأهب والاستعداد للمواجهة، والتحلى بالعزم والتصميم، وانتهاء بالدعوة إلى الصبر والتحمل لما سيتعرض له من أذى المشركين، ابتغاء رضوان الله، "ولربك فاصبر" هذا إلى جانب ماتبثه هذه الفاء فى سياقها من المبادرة بتحقيق ما أمر به النبى الكريم.

ولعل روح الاستهاض هذه هى التى دفعت الزجاج فيما حكاه عنه القرطبى إلى جعل الفاء من قوله "فكبر" فى معنى جواب الأمر المنصوص عليه قَبْلَ الفاء فى قوله "فأنذر". يقول القرطبى : (الفاء فى قوله "فكبر" دخلت على معنى جواب الجزاء، كما دخلت فى "فأنذر" أى قم فأنذر، وقم فكبر ربك) (٢)

وليس ذلك بعيدا عن أغراض النظم ودواعيه حين يُجعل التأهب المعبر عنه بالقيام وسيلة لتحقيق هذه الغاية العظيمة من تكبير الله تعالى.

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨٠.
(٢) تفسير القرطبى ١٠/ ٦٨٥٤.

إن هذه الفاء بحق هى ركبة البعير كما قيل، إن نزعت تلاشت من السياق هذه الحركة السريعة الدائبة التى تسرى فى النص الكريم كله، وتفككت أوصال النظم التى كانت الفاء تعقد بينها.

ومن عجيب أسرار هذه الفاء التى يقول النحاة بزيادتها، ماتراه فى دخولها على الأمر بالتهّجد أو التسبيح، حين يكون الليل زمن وقوعه، فيحرص النظم الكريم على تخصيصه بما يميزه عن الأمر بالتسبيح فى النهار، فيقدم زمن الليل مجرورا بِمِنْ على الأمر، ثم يدخل الفاء عليه، لتسبغ مزيدا من العناية والاهتمام على العبادة فى هذا الوقت، الذى لاتنشط فيه النفس للعبادة، مؤكدة فضل قيام الليل والذكر فيه، وهو مالاتجد مثله حين يكون الأمر بالتسبيح فى النهار وذلك مارصدتُه بعد طول تأمل.

قال تعالى : **﴿ومن الليل فتهّجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾** (١) قُدّم الليل على الفعل، وسلّط التهجُّدُ على ضميره، للإشعار بتكرر التهجّد، ودخلت الفاء للحث على التزام هذه العبادة، وكأن الليل سبب يرتبط بها، وذلك لما فى عبادة الليل من المشقة والكلفة، وثقلها على النفس، إلا من وفّق الله لطاعته، وهو صريح قوله تعالى : **﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا﴾**(٢)

ثم انظر كيف تغيُّر النظم إلى التقديم ودخول الفاء فى تسبيح الليل بعد تركهما فى تسبيح النهار من قوله تعالى : **﴿فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾**(٣) فلم يقل : وسبحه بالليل، كما قال : وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.للتأكيد على فضل النسيج والعبادة ليلا. ومثله قوله تعالى : **﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل**

---

(١) الإسراء ٧٩ (٢) المزّمل ٦ (٣) ق ٣٩ – ٤٠.

فسبحه وإدبار النجوم ﴾(١)

ففى الموضعين قدم الأمر بالتسبيح على زمنه، حين كان المطلوب إيقاعه نهارا أو قريبا منه، ولم يقترن الأمر بالفاء، وحين قُيِّد التسبيح بالليل غوير نسق النظم بتقديم المجرور وأدخلت الفاء بينهما، ليتأكد الأمر بطريقين : هما التقديم، والفاء المفصحة عن شرط محذوف، كأنه قيل: إن كنت مسبحا بحق أو متهجدا فخُصّ الليل به، لأنه أعظم أوقات العبادة، وأكثرها تعرضا لنفحات ربك، وهى الجديرة بأن تبلّغك المقام المحمود، أفيكون ذلك النسق المتكرر فى القرآن، الهادف إلى مغالبة هوى النفس، وركونِها إلى السهل اليسير قد جاء مصادفة، حتى يقال : إن الفاء فيه زائدة؟

وتأمّل كيف تشعر الفاء بما فيها من معنى السببية، باستحقاق الله تعالى التوكل عليه، ووجوب إخلاصه له، وتشعر بما فيها من الربط، بالتأسّى والاقتداء، حين تربط توكّل المؤمن بتوكّل الأنبياء، وهم القدوة فى توكلهم على الله تعالى، وقد تكرر ذلك فى دعوة الأنبياء عليهم السلام. قال تعالى على لسان يعقوب : **﴿وقال يابَنِىَّ لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾**(٢)

وقال على لسان الرسل الذين كذبتهم أقوامهم : **﴿ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾** (٣)

فقد حققت الفاء فى قوله " فليتوكل" عدة أغراض، أولها : تأكيد الاختصاص المدلول عليه بتقديم المجرور، بإفصاحها عن شرط محذوف، فيكون فى تأكيدها للتلازم بين الشرط والجواب تأكيد للحصر، وثانيهما : دلّت عليه بمعنى التعقيب فيها، وهو المبادرة بإخلاص التوكل

---

(١) الطور ٤٨ - ٤٩ (٢) يوسف ٦٧ (٣) إبراهيم ١٢

على الله تعالى، والثالث : بدلالتها على الترتيب والتسبيب، فيكون ترتيب توكل المؤمنين على توكل المرسلين، مشعرا بضرورة الاقتداء والتأسّى بهم فى توكلهم، الذى يخصون به ربهم، ولايدعون فى قلوبهم شائبة اعتماد على سواه. وبهذه النكتة الأخيرة صرح الشهاب فى الآية الأولى، فقال : (قصد الاختصاص أوجب تقديم الصلة عليه، وقد دخل عليها العاطف، فلما قصد تسبب توكلهم على توكله، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقتدى بهم، وجب دخول الفاء لبيان التسبب) (١)

وفى مقام الترهيب تكسب الفاء مدخولها ضربا من التهويل، وتبثّ فى نفس المخاطب من الخوف والرعب مالاتنهض به جملٌ عدّة. قال تعالى : **﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين.لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوّف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾** (٢)

الفاء فى قوله "فاتقون" تُضاعِف الأمر بالخشية، وتتصعّد به حتى تبلغ القلوب الحناجر، باستحضارها صورة الخاسرين يظللهم العذاب من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، فتلفت المأمورين بالتقوى إلىماينتظرهم من مثل هذا الجزاء إن هم اجترءوا على الله تعالى، واستهانوا بعقابه، فلم يتقوه. فهى فى عرف أهل الصناعة فاء الجزاء المفصحة عن شرط محذوف، يمكن تقديره : إن أردتم تجنب هذا العذاب فاتقون. وهى فى ذوق أهل البيان تثب بالمخاطب المأمور بالتقوى لتضعه على حافة العذاب، يسمع صرخات المعّذبين، ويرى ماينزل بهم، لتقول له : هذا مصيرك إن لم تتق الله. فإذا ماجَرَّدت الأمر من الفاء. فقلت : ياعباد اتقون، افتقدت ماكان له مع الفاء من التلويح بعذاب كعذاب الخاسرين، وصار مجرد أمر بالتقوى مبتُوت عما قبله، وضاع معه التهديد بالعذاب.

---

(١) حاشية الشهاب ١٩٣/٥ (٢) الزمر ١٥ - ١٦

ويشتدُّ لفح هذه الفاء فى مثل هذا المقام من التحذير، حين يُقَدَّم معمول الأمر، ويشتغل الفعل بضميره، فتدخل الفاء، لتكسب الاختصاص بالتقديم توكيدا، ويؤدى اشتغال الفعل عن المقدَّم بضميره إلى إفادة تكرير التحذير، فيجتمع فى هذا الأسلوب من وسائل المبالغة فى التحذير مايشهد بإعجاز النظم الحكيم. وهذا مانراه فى فاصلتى الآيتين من قوله تعالى : **﴿يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولاتكونوا أول كافر به ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون﴾** (١)

لم يكن لبنى إسرائيل عهد، ولم يفوا مع الله بوعد، حتى قال فيهم: **"فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم"** (٢) فأعقب أمْرَه بالوفاء تحذيرا من الاجتراء على الله، والاستهانة بعهوده "وإياى فارهبون"، كما أعقب الأمر بالإيمان بكتابه، والنهى عن الكفر به، وتحريفه للتكسب من ورائه، تحذيرا آخر، وبنفس الأسلوب "وإياى فاتقون" وفيهما قدم المفعول "إياى" لإفادة التخصيص، ودخلت الفاء على الأمر، دالة على شرط محذوف، تقديره : إن كنتم راهبين شيئا فإياى ارهبوا، وإن كنتم تتقون شيئا فإياى اتقوا، ليزداد الاختصاص توكيدا، بما يدل عليه هذا الشرط من أن الله هو الحقيق بالرهبة والتقوى، وتشعر الفاء معه بوجوب المبادرة بالفعل. ثم إن اشتغال الأمر بالعمل فى الضمير المتصل المحذوف، وهو ياء المتكلم يستوجب تقدير فعل آخر يعمل فى الضمير المنفصل المقدَّم، والأصل : فإياى ارهبوا ارهبونى، ومفاده تكرير الأمر بالرَهبة، كأنه قال : ارهبونى رهبة بعد رهبة، وهى زيادة فى المعنى ومبالغة فى التحذير، أشاعتها الفاء بتعليقها الفعل بعدها عن العمل فيما قبلها. وذلك ما ألمح إليه الزمخشرى وفصَّله شُرَّاحه، كما جاء فى حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف : ("إياى" منصوب بفعل مضمر يدل عليه "فارهبون" كما فى باب الإضمار، لا أنه فرد من ذلك

---

(١) البقرة ٤٠ - ٤١ (٢) المائدة ١٣.

الباب، كما يقال، "ومنه" إذا كان مشابها له نوع مشابهة، وهو أوكد فى الاختصاص، لأن تقدير الكلام :(وإياى ارهبوا فارهبونى) وإنما يقدر الفعل مؤخرا، لأنه لو قدمناه لكان فى الكلام تغيير آخر، وهو جعل الضمير متصلا منفصلا . ففيه وجهان للتخصيص، أحدهما : تقديم المفعول، والآخر : تكرر تعلق الرهبة بالمتكلم، فإن تكرار الفعل لشىء يدل على مزيد اختصاص له به، فإن قلت : كيف عطف "فارهبون" على "إياى ارهبوا" مع اتحادهما فى المفهوم، والعطف يقتضى المغايرة؟ فالجواب أن الفاء تقتضى أن تكون الرهبة المستفادة من "فارهبون" بعد الرهبة المستفادة من "إياى ارهبوا". وليس معنى الكلام إلا : ارهبونى رهبة بعد رهبة، فيكونان متغايرين قطعا، وهذا كما قال المصنف فى قوله تعالى : **﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾** (١) أى كذبوا تكذيبا بعد تكذيب، ففيه إشعار بمزيد الاختصاص. وقوله : " وهو أوكد فى الاختصاص" لأن الاختصاص فيه يفهم من وجهين : أحدهما من تقديم المفعول، والثانى من الفاء الجزائية فى قوله "فارهبون" فإن التقدير : إن كنتم راهبين شيئا فارهبونى، ولاشك أن هذا تخصيص لاستلزام الرهبة المطلقة حينئذ رهبة الله، فتكون رهبتهم محصورة فى الله تعالى" (٢)

وبذلك تتفاوت هذه الأساليب فى دلالتها على الاختصاص، تبعا لاقترانها بالفاء أو تجردها منها، وقد حصرها صاحب التحرير والتنوير فى أربع مراتب أوكدها ما اقترن التقديم فيه بالفاء، والمقترن بالفاء مرتبتان أبلغهما ماجاء فى الآيتين السابقتين. (فتحصل أن فى التعبير عن مثل هذا الاختصاص فى كلام البلغاء مراتب أربع : مجرد التقديم للمفعول، نحو : إياك نعبد، وتقديمه على فعله العامل فى ضميره، نحو : زيدا رهبته، وتقديمه على فعله مع اقتران الفعل بالفاء، نحو "وربك فكبر"، وتقديمه على فعله العامل فى ضميره، مع اقتران الفعل بالفاء،

---

(١) القمر ٩ (٢) حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ٢٠٩/١

نحو : **"واياى فارهبون"** (١)

وفى مقام التشنيع على الذين يؤذون الضعفاء، ولايدعون إلى الخير، دخلت الفاء لتجمع بينهم وبين منكرى الجزاء فى قَرَن، وتجعلهم عين المكذبين بالدين، فى قوله تعالى : **﴿أرأيت الذى يكذب بالدين. فذلك الذى يَدُعُّ اليتيم. ولايَحُضُّ على طعام المسكين﴾** (٢) فقد ربطت الفاء بين المكذِّب بالدين، وبين من يدعُّ اليتيم، وأفرغتهما إفراغا واحدا، وعلقت رؤية الأول برؤية الثانى تعليق الجزاء بالشرط، على معنى : إن لم تكن رأيت المكذب بالدين وعرفته، فهو ذلك الذى يدعُّ اليتيم. وليس هناك تفظيع لحال من ينهر اليتيم ويؤذيه، ويمنع الخير عن الناس، أشد من وصفه بالتكذيب بالجزاء، وهو كفر صُراح. وكأن مثل هذا الفعل من إيذاء اليتامى وترك الحض على الإطعام، لايكون من شأن المسلم أبدا، وأنك إذا مارأيته فى امرىء فاحكم بأنه ليس من أهل الإيمان.

ومن روائع مواقع هذه الفاء التى قيل بزيادتها، ماتدخل فيها على الخبر، فتربط بينه وبين المبتدأ برباط التسبب، لتحقيق أغراض تتنوع بتنوع السياق ودواعى النظم. فإن قال النحاة بزيادتها لوقوعها بين جزءى كلام يرتبطان ارتباطا معنويا لايحتاج إلى رابط لفظى، فإنهم يُغفلون ما أدته الفاء من ارتباط خاص زائد عن ارتباط الخبر بالمخبر عنه، وهذه الخصوصية الزائدة هى الغرض ومناط فائدةِ الكلام، لذلك تجد من تفاوت الأسرار البيانية مثلما تجد من تفاوت اللفظ، بين مانسق فيه الخبر بالفاء، ومانسق بغيرها. مثال ذلك قوله تعالى : **﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون. إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين﴾**(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ٤٥٧/١ (٢) الماعون ١ - ٣ (٣) آل عمران ٩٠ - ٩١

فإنك لتعجب كيف خولف نسق الخبر عن الكافرين، فعُرِّى عن الفاء فى الآية الأولى"لن تقبل توبتهم" ثم اقترن بها فى الثانية "فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا"، مع أن صوغ المبتدأ، وهو الموصول المنسوخ بإن فى الآيتين واحد، ولايزول عجبك إلا بعد التأمل فى أعطاف النصّ، وإنعام النظر فيما عطف على الكفر فى الآيتين، فأنت تجده فى الأولى "ثم ازدادوا كفرا"، وفى الثانية "وماتوا وهم كفار"، فهو فى الأخيرة قطع باستحقاقهم عدم القبول، واستيجابهم العذاب لموتهم على الكفر، وانقطاع الأمل فى إيمانهم، فدخلت الفاء، للإشارة إلى أنهم استحقوا بموتهم على الكفر عدم قبول التوبة، وتبعه الحكم عليهم بعذاب النار "أولئك لهم عذاب أليم"، أما فى الأولى فلم ينقطع الرجاء فى إيمانهم، وإن كانوا قد ازدادوا كفرا، اذ لو تابوا قبل موتهم لقبلت توبتهم، فهم لم يستوجبوا بَعْدُ عدم قبول التوبة استيجاب من ماتوا على الكفر، ولذلك حكم عليهم بالضلال، ولم يوجب لهم العذاب. وقد أوجز أبو حيان الفرق بين الخبرين فقال، (ولم تدخل الفاء فى "لن تقبل" هنا، ودخلت فى "فلن تقبل"، لأن الفاء مؤذنة بالاستحقاق بالوصف السابق، وهناك قال : وماتوا وهم كفار" وهنا لم يصرح بهذا القيد) (١)

وهذان خبران آخران : الأول بيان لجزاء المؤمنين، والثانى جزاء للكافرين، تدخل الفاء فى الأول لتشير إلى المبالغة فى تحققه، لما فى الفاء من معنى السببية الدال على ارتباطه بالمخبر عنه، ارتباط العلة بالمعلول، وتَسْقُطُ من الثانى، دليلا على تسامح الله فى وعيده. وذلك فى قوله تعالى : ﴿يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (٢). قال البيضاوى فى تعليل دخول الفاء فى قوله "فلا خوف" وسقوطها فى "أولئك"، وكلاهما خبر عن موصول : (وإدخال الفاء فى الخبر الأول دون الثانى،

---

(١) البحر المحيط ٥١٩/٢ (٢) الأعراف ٣٥ - ٣٦

للمبالغة فى الوعد، والمسامحة فى الوعيد) [١] وفسّر الشهاب وجه المبالغة بقوله : (ووجه المبالغة فى الوعد، لعدم تخلفه جَعَله سببا عن التقوى والعمل الصالح، المشعِر بأنه لاينفكُّ عنه، إذ المعلول لايتخلف عن العلة غالبا، بخلاف الوعيد، فإنه يجوز تخلفه) [٢] والعجيب - والقرآن لاتنقضى عجائبه - أنك تجد هنا نكتة استوجبت دخول الفاء فى جزاء المؤمنين، وَطْرحَها من جزاء الكافرين، وتجد فى موقع آخر منه نكتة استوجبت عكس ذلك، فتدخل الفاء فى جزاء الكافرين، وتسقط فى جزاء المؤمنين، مما لاتملك معه إلا أن تخّر ساجدا لعظمة من أنزل هذا الكلام. فإذا كانت الفاء فى المثال السابق قد أدت دورها فى المبالغة فى تحقيق الوعد، وأدّى سقوطها إلى المسامحة فى الوعيد، فإنها فى قوله تعالى : **﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم. والذين كفروا وكذبوا بآياتنافأولئك لهم عذاب مهين﴾** [٣] دلَّ طرحها على أن دخول الجنة بفضل الله تعالي، لابسبب عملهم الصالح، على ماجاء فى حديث الرسول عليه السلام : "لن يدخل أحدكم الجنة عمله، قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته" فألقيت الفاء التى تربط بين المبتدأ والخبر برباط السببية لهذه النكتة، ودخلت الفاء فى جزاء الكافرين، للإشارة إلى عدل الله فى العقاب، فما كان هذا الجزاء الأليم إلا بسبب كفرهم وتكذيبهم بآيات الله، وهذا ما أفاض الله به على قلب البيضاوى : (فإدخال الفاء فى حيّز الثانى دون الأول، تنبيه على أن إثابة المؤمنين بالجنات تفضل من الله تعالى، وأن عقاب الكافرين مسبب عن أعمالهم، ولذلك قال : " **لهم عذاب**" **ولم يقل : هم فى عذاب**) [٤]

وقريب من هذا إدخال الفاء وطرحها فيما اشتبه نظمه من قوله تعالى : **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف**

---

(١) تفسير البيضاوى ١٦٦/٤
(٢) حاشية الشهاب ١٦٦/٤
(٣) الحج ٥٦ - ٥٧
(٤) تفسير البيضاوى ٣٠٨/٦

عليهم ولاهم يحزنون﴾ (١). وقوله تعالى : ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ (٢)

لفَتَ دخولُ الفاء على قوله : "فلهم أجرهم" فى الآية الثانية دون الأولى، نظر الزمخشرى، فحاول بيان السر فى ذلك قائلا : (فإن قلت : أى فرق بين قوله " لهم أجرهم" وقوله فيما بعد : "فلهم أجرهم" ؟ قلت : الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط، وضمِّنه ثمَّة، والفرق بينهما من جهة المعنى : أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة) (٣)

لكن الزمخشرى لم يقل لنا ماسر اختصاص كل منهما بموضعه، ولم دخلت الفاء لتدل على مادلت عليه فى الثانية دون الأولى؟ ولعمرك هذا هو عمل البلاغيين، وماقاله الزمخشرى تحرير للمعنى، لاتفسير لبلاغة النظم.

ثم تقدم البيضاوى خطوة حين أشار إلى أن ترك الفاء أبلغ فى وصف المنفقين، فقال : (لعله لم يدخل الفاء فيه، وقد تضمن ما أسند إليه معنى الشرط، إيهاما بأنهم أهل لذلك، وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا) (٤)

وبنى عليه أبوحيان، ولكنه لم يضع اللبنة الأخيرة فى بلاغة هذا التركيب، فقال : (والجملة من قوله : "لهم أجرهم" خبر، ولم يضمن المبتدأ معنى اسم الشرط، فلم تدخل الفاء فى الخبر، وكأن عدم التضمين هنا، لأن هذه الجملة مفسرة للجملة قبلها، والجملة التى قبلها أخرجت مخرج الشىء الثابت المفروغ منه، وهو تشبيه إنفاقهم بالحبة الموصوفة، وهى كناية عن حصول الأجر الكثير، فجاءت هذه الجملة كذلك، أخرج المبتدأ والخبر فيهما مخرج الشىء الثابت المستقر، الذى لايكاد خبره يحتاج إلى تعليق استحقاقه بوقوع ماقبله، بخلاف ما إذا

---

(١) البقرة ٢٦٢ (٢) البقرة ٢٧٤ (٣) الكشاف ١/١٩٤ (٤) تفسير البيضاوى ٣٤٢/٢

دخلت الفاء، فإنها مشعرة بترتب الخبر على المبتدأ واستحقاقه به) [١]

- تمام هذا الكلام أن يقال : لماذا أخرج الخبر فى هذه الآية مخرج الشىء الثابت المفروغ منه، ولماذا كان غير محتاج إلى تعليق بالفاء؟

وهو فيما أرى - والله أعلم - أن ماوصف به المنفقون فى الآية التى عريت عن الفاء أعظم وأبلغ مما وصفوا به فى الثانية، فهو فى الآية الأولى صرَّح بإخلاص نفقتهم لله تعالى بقوله "فى سبيل الله"، واكتفى فى الثانية بما يدل على كثرة إنفاقهم وتنوُّعه بين السر والعلانية، ثم زاد فى الآية الأولى "ثم لايتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى" وهذه درجة عاليه فى سماحة النفس واعتيادها على هذا العمل الجليل، حتى ألِفَتْه، وجادت به سخية نشطة، وكانت "ثم" دليلا على أن هذا الوصف أبلغ من الإنفاق ذاته، بمادلت عليه من التفاوت الرتبى، إيماء إلى أن الجود عن سماحة ورضا يحولان بين المنفق وبين إتباع نفقته بما يبطلها هو أعظم مافى الإنفاق، فكان هذا دليلا بيِّنا على ثبات أجرهم واستحقاقه، حتى لم يعد للفاء المؤكدة للاستحقاق مكان، لنصل إلى النتيجة التى قررها أبو السعود وإن لم يذكر أسبابها، وهى أن (تخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ماقبلها لمابعدها للإيذان بأن ترتب الأخير على ماذكر من الإنفاق، وترك اتباع المنّ والأذى أمر بيِّن لايحتاج الى التصريح بالسببية) [٢] فهذه نتيجة ذكرنا نحن مقدماتها وأسبابها.

ويلفت السعد التفتازانى الى نكتة لطيفة فى الفاء من قوله تعالى : "**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**" [٣] فقد ألقيت الفاء من الخبر فى الآية الأولى، ودخلت فى خبر التائبين تعظيما لتوبتهم.

---

(١) البحر المحيط ١٩٠/٢ (٢) تفسير أبى السعود ٢٥٨/١ (٣) البقرة ١٥٩ - ١٦٠.

وتأكيدا على أنها السبب الذى استحقوا به رحمة الله تعالى وغفرانه، فعلل السعد طرح الفاء فى الأولى بقوله : (ولم يأت بالفاء فى الخبر، أعنى "أولئك يلعنهم الله" لئلا يتوهَّم أن لَعْنهم إنما هو بهذا السبب، بل له أسباب جمّة) (١)

رحم الله السعد!! لقد كنت على وشك أن أقول إن إلقاء الفاء هو من باب المسامحة فى الوعيد، وإن اقترانها بالخبر فى قوله "فأولئك أتوب عليهم" هو من باب المبالغة فى تحقق الوعد، كما كان فى مثله من آيتى الأعراف السالفتين، لكن السعد كان أصدق حسًا حين رأى أن هؤلاء الذين ارتكبوا جناية الكتمان، وأتبعوها جنايات أشد ترتبت على هذا الكتمان طواها القرآن هنا، ونشرها فى مواضع أخرى، وهى تحريف كلام الله، ولبْس الحق بالباطل، والتكسب بذلك، على ماجاء فى قوله تعالى : **﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولاتكونوا أول كافر به ولاتشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون. ولاتلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾** (٢) فكان طرح الفاء من قوله "أولئك عليهم لعنة الله" إشعارا بأنهم استحقوا هذه اللعنة بهذا الذى وصفوا به وبغيره مما لم يذكر، ثم جاءت الفاء فى قوله "فأولئك أتوب عليهم" إشعارا بأن الله تعالى تسبق يده إلى التائب، فور إقباله على ربه بالتوبة، وأن الله تعالى لايغلق الباب دون من لجأ إليه صادقا فى توبته.

ومن دقائق الحسّ فى فقه بلاغة القرآن ما التقطه الطيبى من إشارة الفاء فى قوله عز وجل : **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾** (٣)

فالذين تنسب إليهم الآية قتل الأنبياء، وقتل الهداة الصالحين، الآمرين بإقامة العدل بين الناس، هم مَن غبر من أسلاف اليهود،

---

(١) حاشية السعد ١/٤٤٦ (٢) البقرة ٤١ - ٤٢ (٣) آل عمران ٢١

والمأمور بأن يبشّر بالعذاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس من سبيل لتبشير الأجيال الغابرة منهم، فوجب أن يكون تبشيره بالعذاب لمن عاصروه من أخلافهم، فدخلت الفاء لتذكر اليهود الحاضرين بأن عذابا من الله ينتظرهم، إن هم مضوا على سنة أسلافهم، وهمّوا بقتل النبى وصالحى هذه الأمة، ولولا هذه الفاء التى ربطت الخالف بالسالف، والحاضر بالماضى لما انتظم فَصْل الآية مع صدرها فى سلك، وهذا ماكشف عنه الطيبى فى قوله : (وفى دخول الفاء على الخبر ههنا بعد دخول "إنّ" على المبتدأ إشارة لطيفة، وهى أنهم إن بقوا على ماكانوا عليه، وأصروا عليه من الارتضاء بما فعل المقدمون منهم، والعزم على ماهموا به من قتل النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فبشرهم، لأنهم مستحقون للتبشير بذلك، وإن رجعوا عن الله وأسلموا لم يستحقوا ذلك، فكانوا كسائر المؤمنين، ولاتحصل الإشارة بدون الفاء)(١)

إنه عدل الإسلام وسماحته، يجسده الله تعالى فى هذه الفاء، حين تنادى على أن الجزاء مرهون بالعمل، وتربط الأسباب بمسبباتها، لا أثر لعصبية عرقية، أو ثقافية، ولاتَحْمِلُ خالفةٌ عن سالفة وزْرها، فليس من قانون الوراثة فى الإسلام أن يُلعن الأبناء بتاريخ آبائهم، إلا إذا كانوا هم صفحة فى هذا التاريخ بما سطروه بأيديهم.

ومن روائع مواقع الفاء التى قيل بإقحامها بين المبتدأ والخبر، ما أوجزه البيضاوى وبسطه الشهاب فى قوله تعالى خطابا لليهود : **﴿قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾** (٢) فقد أشعرت الفاء بمفاجأة المخاطبين بعكس ماسعوا إليه، وباغتتهم بالهلاك فيما ظنوه سببا للنجاة، فهم يفرون من الموت ليجدوا أنفسهم فى قبضته، فكان تعكيس الحال الذى أبرزته الفاء، وماجسّده من المرارة وخيبة الرجاء، هو سرّ دخولها فيما لايلزم الدخول فيه. قال البيضاوى : ("فإنه ملاقيكم" لاحق بكم لاتفوتونه، والفاء لتضمن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وكأن فرارهم يسرع لحوقه بهم) (٣) وعلق الشهاب على

---

(١) فتوح الغيب ١/ ورقة ١٥٨ (٢) الجمعة ٨ (٣) تفسير البيضاوى ١٩٥/٨

ذلك فقال (قوله : "وكأن فرارهم يسرع لحوقه" أى الموت بهم، هو من الفاء فى قوله "فإنه ملاقيكم" فإنها تفيد تعقيب ملاقاته المفسَّرة باللحوق فيما مرّ، وليست هذه الفاء لازمة كالتى فى الجواب الحقيقى، فإقحامها لنكتة تليق بالمقام، وهى ماذكر، فكان الفرار الذى أعدوه سببا للنجاة سببا للهلاك تعكيسا للحال) (١)

ففى هذه الفاء رائحة الاستعارة التهكمية حيث يشبه مايفترض أنه سبب للنجاة بما هو سبب للهلاك، ولذلك حمل بعض رجالات البيان مثل هذه الفاء على اللام فى قوله تعالى **﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزَناً﴾** (٢) وذلك عند تفسير كلام الزمخشرى للفاء فى قوله تعالى : **﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون. قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. ولو أن للذين ظلموا مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون. فإذا مس الإنسان ضرٌ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم﴾**(٣) فقد جعل الزمخشرى قوله " فإذا مس الإنسان ضر دعانا" معطوفا على "اشمأزّت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة، ومسبَّبا عنه، وهو خلاف الظاهر، لأن الاشمئزاز لايتسبب عنه اللجوء إلى الله، بل الظاهر هو العكس، قال الزمخشرى(فإن قلت : من أى وجه وقعت مسببة، والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم إليه، بل هو مقتض لصدوفهم عنه؟ قلت : فى هذا التسبيب لطف، وبيانه أنك تقول : زيد مؤمن بالله، فإذا مسه ضر التجأ إليه،فهذا تسبب ظاهر لالبس فيه، ثم تقول : زيد كافر بالله، فإذا مسّه ضر إلتجأ إليه، فتجىء بالفاء مجيئك به ثمة، كأن الكافر حين التجأ إلى الله

---

(١) حاشية الشهاب ١٩٥/٨ (٢) القصص ٨ (٣) الزمر ٤٥ - ٤٩

التجاء المؤمن إليه، مقيم كفره مقام الإيمان، ومجريه مجراه فى جعله سببا فى الالتجاء، فأنت تحكى ماعكس فيه الكافر، ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله)(١)

وعلق السعد عليه بقوله : (حاصله الدلالة على تعكيس الكافر الأمر، وجعله ماهو أبعد الأشياء عن الالتجاء إلى الله سببا للالتجاء ووسيلة إليه، ولهذا صحّ القصد بهذا إلى الإنكار والتعجب، وليس المراد بالسببية ههنا هو الغرضية، ليكون على منوال "فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا" على ماتوهم) (٢)

وهذا هو نفس المعنى فى دخول الفاء فى قوله "فإنه ملاقيكم" وإن افترقت الفاءان فى كون هذه مشبهة للجزائية، وتلك عاطفة، فلامجال لأن يقول أحد بزيادتها، وإن كانت وضعت موضع الواو، لإبراز التناقض فى الفكر والسلوك عند هؤلاء الذين ينفرون من ذكر الله فى السراء ويهرعون باللجوء اليه فى الضراء.

ولما كانت الفاء تدل على المبالغة، وتأكيد الربط بين المحكوم به والمحكوم عليه، والمسارعة فى تنجيز الحكم وعدم التهاون فيه، كثر دخولها فى آيات القرآن، المتضمنة أمرا بتنفيذ أحكام الله تعالى، لتشير إلى خطر ما أمر به، ووجوب مسارعة أولى الأمر فى تطبيق حدود الله وشرائعه.

وهذا هو سر دخولها فى الحدود التى تتضمن أحكاما شديدة، قد تدفع المجاملة إلى التخاذل والتهاون فى تنفيذها، كما فى قوله تعالى : **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾** (٣) حيث اقترنت الفاء بالأمر بقطع الأيدى، لتنفخ فيه من روح الجد والمسارعة فى إقامة ماحدّه الله، وتأكيد الالتزام به وعدم المراوغة فيه، مايقطع كل سبيل إلى دعوى الشفقة والمماطلة، والممالأة فى التطبيق، فليس هناك ماهو أرحم، ولا أعلم بما

---

(١) الكشاف ٤٠٢/٣ (٢) حاشية السعد ٦٣٠/٢ (٣) المائدة ٣٨

يصلح خلقه ممن خلق، لتتعاون الفاء مع أنفاس النصّ الملتهبة، من مثل قوله "جزاءبما كسبا" وقوله : "نكالا من الله"، والتذييل المشحون بالغضب والتهديد "والله عزيز حكيم". وكأنه يقول : إن ثبتت سرقتهما فبادروا بإقامة حد الله تعالى عليهما دون تثاقل، وهذا هو سر دخول الفاء، الذى ضاع فى زحمة الجدل، والمعارك التى دارت فى أروقة النحاة، مابين مقدّر للمبتدأ خبرا يترتب عليه مابعد الفاء، كما هو مذهب سيبويه، أو القول بزيادة الفاء كما هو رأى الأخفش.

إن القرآن بهذه الفاء يحسم الدعاوى المتسترة وراء الرحمة المصطنعة، للافتيات على شرع الله فيما يزعمون من قسوة الحدود، من مثل مانسمعه اليوم فى ضجيج دعاة حقوق الإنسان، الذين كانوا هم أول من أهدرها حين جعلوا دماء الكلاب أرفع قدرا عندهم من دماء الإنسان فى الشعوب المغلوبة على أمرها، فيقيمون الدنيا إذا ما اعتدى على حيوان فى بلادهم، ويضحكون ملء أفواههم، وهم يشاهدون دماء المسلمين تخضب الأرض فى شتى بقاع العالم.

هذه النبرة الحادة، وتلك الفاء بما فيها من الحسم والإلزام هى التى نجدها فى قوله تعالى ﴿ **والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ (١)

فمتى ثبتت جريمة الزنا على المرء - بعد أن أحاطها الله بكل الضمانات فى الإثبات حتى لايؤخذ برىء بشبهة - فلاسبيل إلى التهاون والمماطلة فى تنفيذ حكم الله، ألا ترى كيف أعقب ذلك الحسمَ ووجوب المسارعة قولُه : "ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله" ذلك أن الحرص على إقامة شرع الله وحماية الأعراض، هو الذى يجب أن يكون مناط التعاطف، بل إن الحدَّ نفسه هو الرأفة عينها، وإن بدا مؤلما، كمبضع الطبيب حين يتعين سبيلا وحيدا لاستئصال الداء، ثم انظر

---

(١) النور ٢.

كيف يلهب القائمين على أمر الله، ويستثير حماسهم الديني في الإسراع بتنفيذ حدود الله، بقوله "إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر".

وللفاء حين تدخل على ماكان الشأن فيه أن يقع جوابا للشرط بغيرها إشارات مدهشة، على مانراه في مشتبه النظم الحكيم، من مثل قوله تعالى في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام : **﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا. قال لاتؤاخذني بما نسيت ولاترهقني من أمري عسرا. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا﴾** (١)

فقد كان المتوقع أن يقول : حتى إذا لقيا غلاما قتله، قياسا على قوله : "حتى إذا ركبا في السفينة خرقها" ليمضي النظم على نسق واحد فيما هو كالغاية الواحدة، لكن حين يفجأ السامع بهذا الاختلاف، وتسري أنسام هذه الفاء في عروقه، يدرك سر هذه المغايرة. ذلك أن التلازم بين الشرط والجزاء، وترتب الثاني على الأول ليس بلازم أن يتعقب فيه الجواب الشرط، لزوم الفاء فقد يقع الجواب بعد الشرط بزمن طويل، كما تقول : إن تسلم تدخل الجنة، فإن دخول الجنة لايعقب الإسلام. فكان إلقاء الفاء الدالة على موالاة المعطوف للمعطوف عليه، مشعرا بأن الخضر عليه السلام في أمر السفينة انتظر حتى تحيَّن الفرصة في اختفاء الأنظار، ليكون خرقهافي غيبة عن الأعين، حتى لايحال بينه وبين تحقيق ما أراد، إذ لو شاهده أصحابها لمنعوه، أو لبادروا إلى إصلاح الخرق، فيفوت ماكان يرمي إليه، ثم جاء القول مفصولا متولدا عن الفعل، لامسببا عنه.

أما عطف قتل الغلام بالفاء، ففيه دلالة على المسارعة بقتله، وتركيز على ردّ فعل موسى بعد أن اعتذر في الأولى، وكأن هذا الفعل

---

(١) الكهف ٧١ - ٧٤ .

الغريب من الخضر كان متوقّعا بعد أن مهدت الحادثة الأولى له، فلم يكن ينتظر المتلقى المترقب لاختبار إرادة موسى وصبره، حين سمع "حتى إذا لقيا غلاما" إلا فعلا من جنس خرق السفينة، فهو أشد تلهفا لمعرفة رد الفعل من الفعل نفسه، لذلك دخلت الفاء، لتمرر القتل بسرعة ، وصولا إلى مايرقبه المتلقى من تصرف موسى ورد فعله. وهذا ماجلاّه الألوسى، وأنقله كاملا لتكتمل الفائدة : (وكان العطف بالفاء التعقيبية، ليفيد أن القتل وقع عقيب اللقاء من غير ريث، كما يشعر به الاعتراض، إذ لو مضى زمان بين اللقاء والفعل، أمكن نظرا للأمور العادية إطلاع الخضر فيه من حاله على مالم يطلع عليه موسى عليه السلام، فلايعترض عليه هذا الاعتراض، ولايضر فى هذا ادعاء أن الخرق أيضا كذلك، لأن المقصود توجيه اختيار الفاء دون الواو أو ثم بعد توجيه اختيار أصل العطف، بأن ذلك يتأتى جعل الاعتراض عمدة، والحاصل أنه لما كان الاعتراض فى القصة الثانية معتنى بشأنه وأهم، جعل جزاء لإذا الشرطية، وبعد أن تعيّن للجزائية، لذلك لم يكن بدٌ من جعل القتل من جملة الشرط بالعطف، واختيرت الفاء من بين حروفه ليفاد التعقيب، ولما لم يكن الاعتراض فى القصة الأولى مثله فى الثانية جعل مستأنفا، وجعل الخرق جزاء.) (١)

---

(١) روح المعانى ١٥/٣٤٠.

الفصل الثاني

مواقع (ثم) وأسرارها

خصائصها وإثراء القرآن لمعانيها

طبيعة هذا الحرف

"ثم" أداة ربط رقيقة، تسوس الألفاظ برفق، وتشد عراها فى أناة، وتجمع أباعدها ومتنافرها فى يسر ولين. وذلك ماينم عنه أصلها الذي تنتسب إليه. فالثُّمُّ : إصلاح الشيء وإحكامه. وثَمَّ الشيء يثُمه : جمعه. وقول الشاعر :

.... وثمُّوا الأوطب النواشجا

أراد : أنهم شدوها وأحكموها(١). فالفاء والميم - كما قال ابن فارس - أصل واحد، هو اجتماع الشيء فى لين(٢). وقال السهيلى : (لاغرو أن يتقارب معنى الحرف من معنى الاسم المشتق المتمكن فى الكلام. فهذه "ثم" حرف عطف، ولفظها كلفظ الثُّم، والثُّم هو رمّ الشيء بعضه إلى بعض .... وأصله من ثممت البيت : إذا كانت فيه فرج فَسُدُّ بالثمام. وقال الشاعر :

وأما الرياح فقد غادرت   رواكد واستمتعت بالثمام

والمعنى الذى فى "ثُمّ" العاطفة قريب من هذا، لأنه ضم شىء إلى شىء بينهما مهلة، كما أن ثَمَّ البيت ضمٌّ بين شيئين بينهما فرجة) (٣)

ومن مفاتن هذه اللغة الشاعرة، ودقة مواءمتها بين اللفظ والمعنى، أنها اختارت الفاء، وهى حرف واحد لمعنى المسارعة، و"ثم" وهى ثلاثة أحرف للمهلة، ليواكب قصر الزمن فى النطق بالفاء التوالى السريع للأحداث، ويتناغم طول النطق بحرف المهلة مع التراخى فى وقوع الأحداث .

وما أثبته النحاة لهذا الحرف، من معانى التشريك، والترتيب،

(١) ينظر : لسان العرب مادة : ثمّ   (٢) معجم مقاييس اللغة ٨/١
(٣) نتائج الفكر ١٢٤

والمهلة، ملتفت إلى هذا الأصل، ومستمد منه. يقول المرادى فى تحديد مدلوله : ("ثم" حرف عطف يشرك فى الحكم، ويفيد الترتيب بمهلة، فإذا قلت : قام زيد ثم عمرو، آذنت بأن الثانى بعد الأول بمهلة) (١)

فامتازت عن الواو بالترتيب والمهلة، وعن الفاء بدلالتها على التراخى، فإذا قلت - والكلام لسيبويه -: (مررت برجل راكب وذاهب، استحقهما، لا لأن الركوب قبل الذهاب. ومنه : مررت برجل راكب فذاهب استحقهما، إلا أنه بيَّن أن الذهاب بعد الركوب، وأنه لا مهلة بينهما، وجعله متصلا به. ومنه : مررت برجل راكب ثم ذاهب، فبيَّن أن الذهاب بعده، وأن بينهما مهلةوجعله غير متصل به، فصيَّره على حدة)(٢)

والاتصال الذى يقصده سيبويه، اتصال زمن المعطوف بزمن المعطوف عليه فى الفاء، وانقطاعه فى حرف التراخى.

تلك هى خصائص هذه الحروف، حين ترتدى ثوبها الذى نسجت اللغة خيوطه، ووثَّق عراه قدامى النحاة.

وقد لفتنا إمام النحاة إلى نكتة دقيقة، لم تأخذ حظها من الدراسة والتأمل فى الفرق بين حرفى التعقيب والتراخى. وكثيرا ماوطّأ - رحمه الله - لعلم المعانى بما بثَّه فى كتابه من إشارات صارت فيما بعد مباحث من أصول هذا الفن. قال سيبويه : (ومن ذلك قولك : مررت بزيد فعمرو، ومررت برجل فامرأة، فالفاء أشركت بينهما فى المرور، وجعلت الأول مبدوءا به، ومن ذلك : مررت برجل ثم امرأة، فالمرور ههنا مروران، وجعلت "ثم" الأول مبدوءا به، وأشركت بينهما فى الجر)(٣)

كانت هذه الإشارة نواة التفرقة عند البلاغيين بين عطف غرضه تفصيل المسند إليه، وعطف آخر يهدف إلى تفصيل المسند، فمن الأول العطف بالواو، ومن الثانى العطف بالفاء وثم. وقد بنى البلاغيون ذلك على ما أشار إليه سيبويه من أن المرور فى قولك : مررت برجل وامرأة

---

(١) الجنى الدانى ٤٢٦ (٢) كتاب سيبويه ٤٢٩/١. (٣) كتاب سيبويه ٤٣٨/١

مرورٌ واحد، فالتفصيل حينئذ فى المرور به، وفى قولك مررت بزيد ثم عمرو مروران لامرور واحد، فالتفصيل فى المسند، يقول السعد فى المطول : (وأما العطف، أى جعل الشيء معطوفا على المسند إليه، فلتفصيل المسند إليه مع اختصار، نحو : جاءنى زيد وعمرو، فإن فيه تفصيلا للفاعل، من غير دلالة على تفصيل الفعل، إذ الواو إنما هو للجمع المطلق، أى لثبوت الحكم للتابع والمتبوع، من غير تعرّض لتقدّم أو تأخر أومعية ... أو لتفصيل المسند، بأنه قد حصل من أحد المذكورين أولا، ومن الآخر بعده، متراخيا أو غير متراخ كذلك، ... نحو : جاءنى زيد فعمرو، أو ثم عمرو. أو جاءنى القوم حتى خالد، فهذه الثلاثة تشترك فى تفصيل المسند، وتختلف من جهة أن الفاء تدل على أن ملابسة الفعل للتابع بعد ملابسته للمتبوع بلامهلة، و "ثم" كذلك مع مهلة) (١)

ويعلق عليه السيد الشريف متكئا على عبارة سيبويه، فيقول : (يشير إلى أن تفصيل المسند، إنما هو بأن يشار إلى تعدده وامتياز بعضه عن بعض، بحسب الوقوع فى الأزمنة، إما على التعاقب أو التراخى، فإن هذا هو المعتبر فى باب العطف، دون ماعداه من الامتياز بحسب القوة أو الضعف، أو المحل، أو المتعلق، فإن المرور فى قولك : مررت بزيد وحمار يعد عرفا مرورا واحدا، وفى قولك : مررت بزيد فحمار يعدّ مرورين) (٢)

لكن ظاهر عبارة سيبويه - كما أثبتناها - لايدل على أن المرور في العطف بالفاء مروران، بل هو مرور واحد متصل توالى على المرأة والرجل بلا فاصل زمنى، فهو يقول : "فالفاء أشركت بينهما فى المرور"، ولم يصرح بأنه مروران، كما صرح به فى "ثم". وغيّر عبارة الإشراك فى المرور مع الفاء، إلى الإشراك فى الجر مع ثم، وليس مثل سيبويه من يغيّر عباراته بلا قصد.

---

(١) المطول ١٠١

(٢) حاشية السيد على المطول ١٠١

وفى كلام الرضى دليل على مافهمت من كلام سيبويه. جاء فى شرحه للكافيه : (قوله "وثم" بمهلة، أى مثل الفاء فى الترتيب، إلا أنها تختص بالمهلة والتراخى. ومن ثَمَّ قال سيبويه فى "مررت بزيد ثم عمرو" إن المرور مروران"(١) فأنت تراه يستدل بكلام سيبويه على اختصاص ثم وامتيازها عن الفاء بالمهلة والتراخى، ولاوجه لهذا الاستدلال لوكانت الفاء تشاركها ما استدل به.

ثم إن تفريقه بين الفاء وثم باتصال زمن المتعاطفين فى الأولى، وانقطاعه فى الثانية، يؤكد ماصرّح به من جعل المرور مع "ثم" مرورين، لوقوعهما فى زمنين متباعدين.

وذلك مافهمه، وصرح به عصام الدين طا شكبرى زاده فى شرح الفوائد الغياثية، فقال : (نقل عن سيبويه الفرق بين التعقيب والمهلة، أن الفعل فى الأول واحد، لعدم انقطاع الثانى عن الأول، بخلاف الثانى، إذ يتخلل بينهما التراخى) (٢)

أصل بذلك إلى اللمحة الطريفة التى طيّرتها عبارة سيبويه، وهى تكثير الحدث وتنميته، والاتساع به زمنا ومعنى، بجعل المرور مروين فيما عطف بحرف المهلة، وهو الذى قلت إنه لم يستثمر على المستوى النظرى، وإن كانت تطبيقات المفسرين ورجالات البيان على النصوص القرآنية لم تخل من الإفادة منه، فهم يقولون فى عطف المكرر بها، إن المعطوف أبلغ من المعطوف عليه، ولن يكون ذلك إلا إذا كان الثانى غير الأول، وإن كان أهل البيان يرونه ضربا من التجوز فى معنى الحرف، وهو ماسنعرض له فى موضعه.

أثر الدراسات القرآنية في إثراء دلالاته :

لقد أثرى القرآن حرف التراخى بما خلعه عليه من حلل المجاز، التى لم نره فيها بعيدا عن محيط الدراسات القرآنية، فكان القول بالتفاوت

---

(١) شرح الكافية ٣٦٧/٢ (٢) شرح الفوائد الغياثية ٩٢

الرتبى، والاستبعاد، وهما ضربان من التجوز فى معنى الحرف وليد هذه الدراسات وحدها، حتى صرح أبوحيان أكثر من مرة فى تفسيره بأنه لم يسمع هذا المعنى لثُمَّ إلا من جار الله الزمخشرى فى كشافه. وفى ذلك الدليل على أن القرآن نفخ فى الدراسات التى دارت حوله من روح الإعجاز فى نظمه ماجعلها جديرة بتمثل معانيه وإدراك أسراره.

وإذا أردت دليلا على مانقول، فانظر كيف عولج معنى هذا الحرف بعيدا عن محيط الدرس القرآنى، وكيف عولج نفس الحرف فى نفس البيت من الشعر عند الاستشهاد به على دلالته فى النص القرآنى، وكأنما يُعاد استكشاف معناه لأول مرة. ففى شرحه لقول جعفر بن علبة الحارثى :

لايكشف الغمّاءَ إلا ابنُ حّرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

قال المرزوقى المتوفَّى فى الربع الأول من القرن الخامس الهجرى : (فإن قيل : لم عطف الزيارة على رؤية الغمرات بحرف المهلة، وهلا جعلها عقيب الرؤية؟ قلت : إن "ثم" وإن كان فى عطفه المفرد على المفرد يدل على التراخى، فإنه فى عطف الجملة على الجملة ليس كذاك. ألا ترى قوله عزوجل : **﴿وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا﴾**(١). ولايجوز تراخى الإيمان عن شىء مما عده وذكره) (٢) هذا مثال لتناول معنى الحرف فى محيط الدراسات الأدبية، وأنت تراه يخلع عن "ثم" معناها الأصيل الذى به تمتاز عن شقيقتها الفاء، وهو التراخى، ويستشهد لذلك بالنص القرآنى.

قارن ذلك بما قاله الزمخشرى فى قوله تعالى : **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾**(٣) واستشهد بالبيت نفسه، لترى كيف خلع على"ثم" فى البيت مافاضت به من المعانى فى النظم الحكيم. وهو خير شاهد على ماقلت من إثراء القرآن لهذا الحرف وتفجير عيون

---

(٢) البلد ١٢-١٧ (٣) شرح ديوان الحماسة ٥٠/١ (٣) السجدة ٢٢

من الدراسة حوله لم نشهدها بعيدا عن دراسات الإعجاز. قال الزمخشري : ("ثم" في قوله "ثم أعرض عنها" للاستبعاد، والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل، كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة، ثم لم تنتهزها، استبعادا لتركه الانتهاز. ومنه "ثم" في بيت الحماسة :

لايكشف الغمّاء إلا ابن حرة   يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت، بعد أن رآها، واستيقنها، واطلع على شدتها) (١).

إن هذا الاستبعاد في العقل والعدل الذي وسوست به "ثم" في الآية، هو الذي كسى الإعراض غلالة من القبح، وأبرز جهل المعرضين، حين خالفوا بصنيعهم موجبات العقل وسَنَن العقلاء، فأدبروا عما يستوجب الإقبال، وهو نفسه الذي بلغ بالشجاعة والصبر في بيت الحماسة حدا فاق تصور العقول، حين ألقى الحر بنفسه في قُحم الموت، وأقبل على خوض غمراته، بعد أن شاهد نذر الهلاك، إقبال الزائر المحب، الذي يرى سعادته في زيارة من يهواه، ليتعانق التجوز بالاستعارة في "ثم" مع التجوز بالاستعارة في الفعل "يزور" في رسم مشهد للجرأة والإقدام فاق كل تصور.

إن مثل هذا البيان الذي سرى إلى بيت الحماسة، من نبع الدراسة القرآنية، ماكنا لنرى مثله، لولا مافجّره القرآن بنظمه السامي في عقول دارسيه، وألقى على أذواقهم ذوبا من رحيق إعجازه. ليعاد على ضوئه النظر فيما كان مستورا من بيان لغتنا الشاعرة.

---

(١) الكشاف ٢٤٦/٢

المهلة بين حقيقة الزمن والإحساس به

تصوير الإحساس بالزمن

حقيقة "ثم" الدلالة على التراخى، وهو أن يكون بين المعطوفين مهلة، لكن هذا التراخى يخضع لاعتبارات نفسية وعقلية، وتقديرات فى تصور المتكلم حينا، وفى عقل المخاطب وحسّه حينا آخر، ولأحوال ودواع تقتضيها مقامات الكلام وسياقاته حينا ثالثا، وورء هذا تكمن أسرار الحرف، وبقدر استجابته لهذه الطموحات يتفاضل كلام على كلام.

وأهم ما يميز "ثم" قدرته على نقل تلك الأحاسيس من خلال تحريك زمن الأحداث، مدا وجزرا، وقبضه وبسطه بما يستطيع تصوير أحوال النفوس، وتجسيد مايغمرها من فيض الشعور، وتمثيله فى بُعْد حسى، تعكس عليه النفوس والعقول انفعالاتها وخواطرها.

وقد لمس الأستاذ الكبير محمود شاكر هذه الخصوصية فى "ثم" برقة، وفى عبارة شديدة التركيز، حين قال تعليقا على قول الشاعر :

وفتوٍ هجَّروا ثم أسروا ليـــلهم حتى إذا انجاب حلوا

(ولم يعطف بالواو، فيقول : "هجروا وأسروا ليلهم" بل قال : "ثم أسروا" لأن العطف بالواو يجعل الكلام كأنه أخبار عن أفعال كانت فى زمن وانقضت، ولايراد بها غير الخبر. أما "ثم" فهى بطبيعتها تحمل معنى الحركة والتتابع، بلا نظر إلى الزمن المقيد، كما تقول : "صعد فى الجبل، ثم وقف على قمته، ثم نظر، ثم رمى بنفسه، فهوى" ومعنى الحركة والتتابع ظاهر كل الظهور فيما ذكر الله سبحانه وتعالى من أمر الوليد بن المغيرة المخزومى، لما تعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم سمع القرآن : **﴿إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر ثم نظر. ثم عبس ويسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر﴾**[1]. وهذا موضع يحتاج

---

(١) المدثر ١٨ - ٢٥

إلى فضل تأمل منك وترداد، وهو من روائع هذه اللغة الشريفة -الشاعرة، كما أسماها أستاذنا العقاد رحمه الله وغفر له، أما مايقوله النحاة فى "ثم" من أنها حرف عاطف يقتضى الترتيب والتراخى والمهلة، فهو نظر نحاة يحتاج إلى بيان) (١)

الفرق بين قولك : صعد فى الجبل، ووقف على قمته، ونظر، ورمى بنفسه فهوى، وبين عطف هذه الأفعال بثم، هو الفرق بين مشهد مقروء، تقف فيه على أخبار منقضية، وبين مشهد ممثَّل، يعرض عليك حركة الصعود، وصعوبتها، ويريك ثقل الأرجل فى خطوات بطيئة عاثرة، كما يريك حركة التردد فى ذهن المنتحر، يبعث عليها حب الحياة، والتشبث بها، فى قوله "ثم نظر". فالحركة والتتابع تراها فى خطوات الصاعد، وتحسها فى خطرات فكره، ونبضات قلبه. وهذا ماعنيته بقدرة هذا الحرف على تصوير أحوال النفوس، والكشف عن مكنوناتها. وخير مثال لذلك ماجسّدت فيه "ثم" الصراع النفسى الذى احتدم فى نفس الوليد بن المغيرة، حين استمع إلى القرآن، فلمس ماسمعه شغاف قلبه، واقتحم عليه جدرانه المغلقة، والوليد عربى لايستطيع أن يسدّ مسام حواسه عن التأثر بروائع البيان. إنه زلزال يهز بعنف أركان نفس عنيدة، ويحطم معتقدات كان بالأمس يراها ثابتة عميقة الجذور، فتدور فى نفسه معركة بين الحق الغازى والهوى المتسلط، بين الخضوع لسلطان الحق والعقل، والتشبث بالزعامة والأثرة، وتأرجحت فى نفسه نتائج المعركة، وظهر أثر ذلك فى إقدامه وإحجامه، واعترافه بالحق، وردّته عنه. يؤيد ذلك ماجاء فى تفسير الطبرى من (أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أباجهل. فأتاه، فقال : زُعِم أن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال : لم؟ قال : يعطونكه، فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قتله. قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا! قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال، وأنك كاره له، قال : فماذا أقول فيه؟ فوالله ما

---

(١) من مقال بعنوان "نمط صعب ونمط مخيف" منشور بمجلة المجلة – الحلقة الخامسة – العدد ١٥٥ نوفمبر ١٩٦٩، ص ٩.

منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه مني ولابقصيده، ولا بأشعار الجن، والله مايشبه الذى يقوله شيئاً من هذا. والله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ماتحته، وإنه ليعلو ومايُعلى. قال : والله لايرضى قومك حتى تقول فيه. قال فدعنى حتى أفكر فيه. فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر عن غيره) (١)

فقد أبدع النظم الحكيم فى تصوير أطوار الصراع المحتدم فى نفس الوليد، وجسده فى حركات الجوارح. وملامح الوجه، وأبرز شتات فكره وتناقضاته، إنه فكَّر وأطال التفكير بحثا عن مغمز فى الكتاب الحكيم "ثم قتل كيف قدر. ثم نظر" وكأنه قد أعيته الحيلة بعد طول الفكر. فجلس شاردا مقطب الوجه، "ثم عبس وبسر"، وأخيرا وبعد ولادة متعسرة، وطول تردد وحيرة، "أدبر واستكبر" وكأنه فى كل هذا ينازع نفسه، ويستجمع قواه الخائرة، إلى أن خطرت له خاطرة رمى بها دون وعى أو فكر، وكأنه يلقى عن نفسه عبئا ثقيلا آده حمله، وشلّ تفكيره. "فقال إن هذا إلا سحر يؤثر"، فأدت "ثم" دورها فى تعميق الصراع، وإبراز المعاناة، وتكاثف الحيرة، وصعوبة التخلص من آثار الهزيمة النفسية، التى خلفها سماع القرآن فى نفسه، كما أدت الفاء فى الآية الأخيرة دورها كذلك، فى الدلالة على التسرع والنزق فيما وصفَ به القرآنَ من السحر، وأنه لم يخضع قولته لفكر ونظر، ولم يقل ماقاله عن قناعة ويقين، وكأنه يسرع الهرب بعد أن ألقاها.

هذا التراخى الذى جسّد حيرة الوليد وتردده نجد مثله فى موقف المشركين، حين يلجم الله ألسنتهم بحجته فى الحوار الذى حكاه القرآن

﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون. ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين﴾ (٢)

فإن الجواب من شأنه أن يعقب السؤال، لا أن يتأخر عنه، خاصة إذا كان السائل هو الله العلى الكبير، ولو جرى الجواب على الظاهر، لقيل:

---

(١) جامع البيان ٨٤/٢٩ مطبعة الميمنية بمصر (٢) الأنعام ٢٢ - ٢٣

فلم تكن فتنتهم إلا أن قالوا. لكن حرف المهلة الذى اقترض موقع الفاء، دل على ما أصابهم من الحيرة والدهشة، فطال بهم الزمن قبل أن تطاوعهم ألسنتهم بالجواب، وإن كان جوابا أفضل منه السكوت. قال الألوسى فى رده على من قال بدلالة "ثم" هنا على التراخى الرتبى : (وأنت تعلم أنه لاضرورة للعدول عن الظاهر، لجواز أن يكون هناك تراخ فى الزمان، بناء على أن الموقف عظيم، فيمكن أن يقال : إنهم لما عاينوا هول ذلك اليوم، وتجلّى الملك الجبار جل جلاله عليهم بصفة الجلال، كما ينبىء عنه الجملة السابقة، حاروا ودهشوا، فلم يستطيعوا الجواب إلا بعد زمان، ومما ينبىء عن دهشتهم وحيرتهم أنهم كذبوا، وحلفوا فى كلامهم هذا، ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين، لما قالوا الذى قالوا، لأن الحقائق تنكشف يوم القيامة)(١).

وهذا حرف التراخى يجسّد حالة الذعر والانهزام النفسى لفرعون، وخوفه من مواجهة موسى مع مكابرته ودعواه الربوبية، فتبرز تثاقله وتردده بعد أن جمع سحرته، وكأنه يرى عرشه يهتز من تحته، فلايريد أن يتعجل نهاية ملكه، وهذا درس يجب أن يعيه أصَحاب الحق، وهو أن الطاغية مهما كان مستبدا، فإنه يهتز من الداخل أمام كل صاحب صوت صادق، وإن تظاهر بغير ذلك. قال تعالى : ﴿**ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى. قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى. فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى. قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى. قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى. فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى. فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفًا وقد أفلح اليوم من استعلى**﴾ (٢)

---

(١) روح المعانى ١٢٣/٧ (٢) طه ٥٦ - ٦٤

تأمل قوله "فجمع كيده ثم أتى"، وكيف أسرع إلى جمع كيده كما تعبر عنه الفاء، وكيف تثاقل عن الإتيان للقاء موسى، فأشعرت "ثم" بطول زمن الاستعداد وحشد الجموع، وعدم المبادرة باللقاء بعد أن جمع كيده. أَفَتَرى فرعونَ وقومه على يقين من أن موسى ساحر؟ وأى ساحر هذا الذى تحشد له كل هذه الجموع من قوم هم أرباب صناعة السحر؟ أو ليست "ثم" تشى بحالة الذعر التى انتابت فرعون وملأه، ودفعتهم إلى المبالغة فى الحشود، والمماطلة فى المواجهة؟ وهو مايؤكده تنازع القوم واختلافهم "فتنازعوا أمرهم بينهم" فأى تنازع هذا وهم مجمعون على حربه والقضاء عليه، ومواجهته بنفس السلاح الذى زعموا أنه يحاربهم به؟ أليس ذلك دليلا على هزيمتهم النفسية بعد أن رأوا الآيات الناطقة بتأييد الله لنبيه؟

إلى هذه النكتة يشير قول أبى السعود : (وفى كلمة التراخى إيماء إلى أنه لم يسارع إليه، بل أتاه بعد لأىٍ ،وتلعثُم) (١).

وقد سرى هذا التردد والتثاقل من نفس فرعون إلى أنفس القوم، فهم يخشون مواجهة موسى فرادى، ويطيلون فترة الاستعداد، ويتواصون بأن يجتمعوا له صفا واحدا مهما طال بهم زمن الحشد والإعداد، وجاءت "ثم" مرة ثانية لتكشف عما انطوت عليه نفوسهم من الذعر والقلق "فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا"، وكأنى بهم وهم يطيلون زمن النطق بثم قبل الدعوة إلى لقائه يستهلكون الوقت، ويتهربون من المواجهة، ويتمنون ألا تكون.

وانظر كيف يصور حرف التراخى شدة وطأة الزمن، وثقل حركته على أنفس المسلمين إثر هزيمتهم المباغتة، وما أصابهم من الدهشة والذهول فى غزوة حنين، **﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها﴾**(٢)

(١) تفسير أبى السعود ٦/٢٤

(٢) التوبة ٢٥ - ٢٦

فقد كشفت "ثم" فى قوله "ثم وليتم مدبرين" عن شدة وقع المفاجأة على المسلمين حين باغتهم العدو، فشتت فكرهم وجمعهم، وجسّدت حيرتهم وارتباكهم". إنها لحظات قلائل بعمر الزمن، بين مباغتة العدو للمسلمين، وتوليهم مدبرين، لكنها لحظات عصيبة، أبرز فيها حرف المهلة ما أصاب فكرهم منَ الشلل، وماغشيهم من الحيرة، فأعجزهم عن الحركة السريعة القادرة على استيعاب الحدث، وحسن التصرف فى معالجته، وهو ماصورته الكناية فى قوله "وضاقت عليكم الأرض بما رحبت"، فهو ضيق النفس، وضعف الحيلة، والعجز عن الحركة، وذهاب الفكر، ذلك الذى عكسه حرف التراخى فى صفحة الزمن.

وجاءت "ثم" مرة ثانية فى قوله "ثم أنزل الله سكينته"لتشيرإلى عظم المصيبة، وشدة الابتلاء، ليمرَّ الوقت مابين إدبارهم وإنزال الله سكينته عليهم بطيئا بغيضا، يضغط وقع الهزيمة على نفوسهم، ويعتصرهم الألم، الذى ضاعفه أنهم لم يهزموا عن قلة. إنه لون من العقاب، وقسوة فى التأديب، تلوح بها عصا الزمن، وينم عنها حرف التراخى.

وأحسب أن هذا التراخى الزمنى أقدر على تصوير ضيق النفس ومعاناتها، من القول بالتراخى الرتبى، وهما وجهان ذكرهما ابن عاشور فى قوله : (و "ثم" دالة على التراخى الرتبى، فإن نزول السكينة، ونزول الملائكة أعظم من النصر الأول يوم حنين، على أن التراخى الزمنى مراد ، تنزيلا لعظيم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها، فإن أزمان الشدة تخيل طويلة وإن قصرت) (١)

فإن القول بالتراخى الرتبى مبنى على أن "أنزل" معطوف على "نصركم" وأن المسلمين كانوا منتصرين فى أول المعركة يوم حنين، وهذا العطف بعيد، والتكلف فيه ظاهر. وماقاله من التراخى الزمنى وتفسيره له هو الأليق ببلاغة النظم.

وهذا المشهد نفسه كان قد تكرر مع المسلمين فى غزوة أحد حين

---

(١) التحرير والتنوير ١٥٧/١٠

نال منهم المشركون مانالوا، ونزل بهم من الغم مانزل، فوقعت "ثم" كذلك مصورة تثاقل خطوات الزمن، وإحساس المسلمين بتجمده، وهم يئنُّون تحت وطأة الهزيمة : **﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون. ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ..﴾** (١)

فقد أشارت "ثم" إلى تأخر فرج الله تعالى، وطول احتباس أنفاس المسلمين تحت جُدُر الهموم المطبقة عليهم، جزاء ماخالفوا أمر رسولهم، سعيا وراء الغنائم.

وهذا السر نفسه يكمن وراء حرف المهلة الذى قال البعض بزيادته، فى قوله تعالى : **﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا﴾** (٢)

فالآية تصور عقابا إيجابيا، قَاطَع فيه المجتمع المسلم ثلاثة من صادقى المسلمين، انتابتهم لحظة من لحظات الضعف البشرى، فتخلفوا بلا عذر عن الخروج للجهاد فى سبيل الله، فى غزوة العسرة، وكان العقاب قاسيا، والمقاطعة عنيفة، ألفى الثلاثة فيها أنفسهم معزولين عن الحياة والأحياء، فهجرهم أصدقاؤهم وأقرباؤهم. حتى أولادهم وأزواجهم، وظلوا يرقبون عفو الله بقلوب واجفة، يعتصرهم الحزن على حاضرهم، ويقتلهم الخوف من مستقبلهم، فدخلت ثم بين ضيق أنفسهم، وعفوا الله عنهم، لتطيل زمن العقاب، وكأنها سوط التأديب، يلهب مشاعرهم، ومرارة الانتظار الطويل تغصّ بها حلوقهم.

إن هؤلاء الذين يقولون بزيادتها بين الشرط والجواب يميتون أشعاعها، ويذهبون بما أومأت إليه من إحساس المقاطعين بطول المعاناة، وقسوة العقاب، لأنه لا مهلة بين الشرط وجزائه، على ماصرح به الإمام

---

(١) آل عمران ١٥٣ - ١٥٤ (٢) التوبة ١١٧

عبد القاهر فى شرحه للإيضاح : (ولتعّرى الفاء من التراخى وقع فى جواب الشرط، نحو : إن تأتنى فأنا أكرمك، ولم يقع "ثم" نحو : إن تأتنى ثم أنا أكرمك، لأن الجواب من حقه أن يلحق بالشرط سريعا" [١]

فإذا ماجعلت التوبة من الله عليهم جوابا للشرط، ضاع الغرض من إبراز إحساسهم بقسوة الوحدة، وإطباق ساعات الليل والنهار على نفوسهم. وشدة ماعانوه فى محبسهم.

إن الزمن إحساس ينبض به القلب، ويفيض به الشعور، قبل أن يكون دقات ساعة، وحركة عقارب، فيستقصر الطويل من الزمن فى لحظات السعادة، وليالى الأنس، وتطول الثوانى القليلة فى عين الضائق المهموم، لذلك تجد الشعراء العرب فى تعبيرهم عن نفثات صدورهم، وفيض شعورهم، يقيّدون الزمن، ولايطلقونه، فيجعلون للمتكلم أو المخاطب ليلا خاصا به، يطول ويقصر فى نفسه، وذلك غاية الصدق وقمة البيان، حين يطوّع الزمن للتعبير عن انقباض النفس وانبساطها، كما تحسه فى قول امرىء القيس.

تطاول ليلك بالإثمد   وبات الخلىّ ولم ترقد

فلم يقل : تطاول الليل، لأن التطاول ليس فى حقيقة الزمن، وإنما هو فى إحساسه به، لذلك أضافه إلى نفسه على سبيل التجريد، فحّمل ليله شحنة من المشاعر، امتدت به سعة وطولا. وقريب من ذلك ماتجده فيما حكاه الله عن العزير :

﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لَبثت يوما أو بعض يوم﴾ [٢] فعبر الله عن حقيقة الزمن بحرف التراخى، لطول مابين الإماتة والبعث، وعبّر العزير عن إحساسه بالزمن، وكان صادقا، حين قال : "لبثت يوما أو بعض يوم".

فهناك إذا فرق بين حقيقة الزمن، والإحساس به، فقد يكون الزمن

---

(١) المقتصد فى شرح الإيضاح ٩٤١/٢   (٢) البقرة ٢٥٩

طويلا فى نظر شخص، وجدّ قصير فى عين آخر، وهو فى حقيقته زمن واحد لم يتغير، وهذا ماوسعته لغتنا الشاعرة، وبثّته فى حروف العطف، على نحو يشهد للغة القرآن بالعظمة والتفرد.

وقد كان للنحاة لفتة دقيقة، تعبر عن تنوع الإحساس بالزمن، واختلاف اعتبارات النظر إليه، وإن لم تصل إلى تمامها. قال الّرضى فى احتمال النص لحرفى التعقيب والمهلة، وترك تقدير ذلك للمتكلم فيما يريد أن يلقيه فى نفس المتلقى : (ثم اعلم أن فائدة الفاء للترتيب بلا مهلة لاينافيها كون الثانى المترتب يحصل بتمامه فى زمن طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبا لما تقدم. كقوله تعالى : **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾** (١)، فإن اخضرار الأرض يبتدىء بعد نزول المطر، لكن يتم فى مدة ومهلة، فجىء بالفاء نظرا إلى أنه لافصل بين نزول المطر، وابتداء الاخضرار، ولو قال : ثم تصبح نظرا إلى تمام الاخضرار جاز) (٢)

وتمام الجواب فى صحة تعاور الحرفين هذا الموقع، أن يقال :إن اخضرار الأرض مترتب على نزول الماء ومسبب عنه، وأن زمن الاخضرار طويل وممتد، فإذا ماقصد بيان أثر الماء فى إحياء الأرض وتوقفها عليه، وقعت الفاء لتربط الثانى بالأول ارتباط السبب بالمسبب، والمسبب يتعقب سببه، وإذا قصد الإشارة إلى تمام النعمة والانتفاع بما أنبته الله تعالى فى الأرض، دخلت "ثم" للدلالة على امتداد أثر الماء حتى يكتمل اخضرار الأرض، ويتحقق كمال الانتفاع بما أنبتت من زروع وثمار. ولذلك كله دواع وأغراض يحددها السياق، وتوجب البلاغة كلا فى موضعه، وليس المراد أن "ثم" يصح استبدالها بالفاء فى هذا الموضع من السياق.

---

(١) الحج ٦٣ (٢) شرح الكافية ٣٦٧/٢

مَطْل زمن المعطوف عليه

تأتى "ثم" لمطل زمن الفعل قبلها، وتكثيف حدثه، واستعارة طول الزمن وامتداده لقوة الفعل وتكرره، مُفَارِقَة حقيقتها الدالة على الانقطاع، وتخلل الزمن بين المتعاطفين.

من ذلك ما ألقت به مشاعر الغضب المتأججة على لسان موسى عليه السلام، فى مخاطبته للسامرى بعد أن فَتَن قومه وأضلهم، بما أخرجه لهم من عجل اتخذوه من دون الله إلها. **﴿قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عليه عاكفا لنحرّقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نسفا﴾** (١)

تأمل قوله "لنحرّقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا" كيف ينم عن غيظ تفجر فى صورة الانتقام والتشفى من هذه الآلهة المزعومة، ففاضت هذه المشاعر على الألفاظ، ونفخت فيها من روحها، ما أثقل وزنها، ومدّد حجمها، ألا ترى إلى هذه التأكيدات المتتابعة، من القسم، ولامه، ونون التوكيد، وتضعيف الفعل "نحرّق" الدال على المبالغة والتكثير، وكأنه لايكتفى بحرقه مرة، حتى يعيد إحراقه مرة ومرة، مما امتد معه زمن التحريق، فاستوجب حرف المهلة، لينقل إليك إحساسا بالتشفى، ومعاودة الفعل وتكراره، حتى لايبقى للمحروق أثر. فلو وضعت الفاء موضعه، لأفادت سرعة التخلص منه وإلقائه فى اليم، ويضيع ماجسّدته "ثم" من الإفراط فى التشفى والانتقام.

ومثله قوله تعالى على لسان فرعون يهدد السحرة بعد إيمانهم برب موسى : **﴿قال فرعون آمنتم له قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون. لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾** (٢)

فأكسبت ثم فعل التقطيع قوة وكثرة، ومبالغة فوق مافيه من

---

(١) طه ٩٧ (٢) الأعراف ١٢٣ - ١٢٤

المبالغة بالتضعيف، وكأنه سيستمر على التقطيع حتى لايبقى شىء يقطعه. إنه تمثيل لاتعذيب، يريك تفلت أعصاب فرعون وشدة حنقه، وخوفه من أن يكون إيمانهم هذا بداية انهيار مملكته.

هذه المبالغة تتجاوب مع نبرة التهديد التى ازدادت حدتها فى هذه السورة عما أشبهها من النظم فى سورتى طه والشعراء، وفيهما عطف التصليب بالواو، وسبق تهديدَه بالتقطيع والتصليب قولُه "**إن هذا لكبيركم الذى علمكم السحر**" فنسب إليهم التبعية لموسى والتتلمذ عليه فحسب، أما فى سورة الأعراف، فقد جعلهم شركاء فى التآمر عليه، وإسقاط حكمه، وإجلاء أصحاب الأرض عن ديارهم، وتلك تُهَمٌ يحلو للناس فى كل عصر أن ينعتوها بالخيانة العظمى، التى تستوجب أقسى الأحكام، فتناغم حرف المهلة بما أضفاه من التكثير والمبالغة المُلَوَّحُ له بطول زمن التصليب، مع هذا الإرعاد والإبراق فى الوعيد والتهديد.

ومثل هذا فى الغرض وقوع حرف المهلة فى قوله تعالى : **﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقًا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا. وحدائق غلبا. وفاكهة وأبًا. متاعا لكم ولأنعامكم﴾** (١)

فقد عهدنا القرآن يعقّب نزول الماء بالإنبات، وإخراج الثمرات، واخضرار الأرض، مستخدما حرف التعقيب، كما فى قوله تعالى : **﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم﴾** (٢) وقوله : **﴿والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾** (٣) لكنه هنا يتحدث عن مرحلة شق الأرض بين نزول الماء والإنبات، ويعطفها على صب الماء بحرف المهلة، مع أن تخلل الماء لتربة الأرض يعقب نزوله، كما جاء فى قوله تعالى : **﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون﴾** (٤)

---

(١) عبس ٢٤ - ٢٣ (٢) ابراهيم ٣٢ (٣) النحل ٦٥ (٤) المؤمنون

فعطف "أسكناه فى الأرض" بحرف التعقيب وهو الظاهر.

فإذا فتشت عن سر العدول إلى حرف المهلة وجدته راجعا إلى اختلاف الغرض فى الآية، حيث كان المراد لفت الأنظار إلى حقيقة تبدو غائبة عنها، يرى الناس آثارها، ولايرون أعيانها، تلك هى تطويع مسام الأرض الصلبة، التى تستعصى على قبول الماء ونفاذه فيها، فضلا عن جذور نبات تضرب فى أعماقها كجذور النخل، حتى إن الإنسان ليعجب كيف تصل بعض الأشجار المعمّرة إلى مسافات غائرة فى الأرض تحتاج أنت إلى معدات حديثة للوصول إليها، فكيف استطاعت هذه النباتات الرخوة الضعيفة أن تشق باطن الأرض بأيسر مما تقوم به هذه الآلات مستخدمة أشد أنواع المواد صلابة ؟!

لذلك لم يعبر بالإنزال، واستبدل به الصب، وهو الموضع الوحيد الذى ورد فيه هذا اللَفظ، معبّرا به عن نزول الماء، للدلالة على قوة اندفاعه، إذ الصبّ خاص بإراقة الماء من عل، وذلك أقوى فى تدفقه ونفاذه إلى غرضه، ومنه قيل للحيات الأساور : الصُّب، وذلك أنها إذا أرادت النَّكْل انصبت على الملدوغ انصبابا، ثم أكد ذلك بالمصدر صبًّا، وعطف الشق بثم ليطيل زمن الصب، فجمع له بين القوة والكثرة، كى يلفت الانتباه إلى أثر الماء فى شق مايستعصى فى العادة شقه من الأرض، وتهيئته لما أراد الله تعالى من نبات تقرب جذوره من سطح التُّرْبة، وأشجار تغور جذورها فى أعماق الأرض. أما حين كان الغرض حفظ الماء فى أعماق الأرض فى قوله تعالى "فأسكناه فى الأرض" لتكون مخزونا احتياطيا يستخدمه الإنسان وقت الحاجة، فقد دخلت فاء التعقيب لتدل على سرعة وصوله إلى مستودعه فى الأرض، وهو سر التعبير بالإسكان، الدال على الاستقرار، ودخولُ "ثم" يفسد الغرض، لأن إطالة زمن بقائه قبل إسكانه فى الأرض تكون عاملا من عوامل ضياع بعضه بالتبخر وغيره، مما يتنافى مع ما أراده النظم من التنبيه على رحمة الله بحفظ ما أنزله من السماء، لينتفع به الخلق وقت الحاجة. ولذلك ذيلت الآية بقوله " وإنا على ذهاب به لقادرون".

ويرمز حرف المهلة إلى طول المعاناة، وشدة التحمل فى قوله تعالى على لسان نوح مناجيا ربه، شاكيا إليه سوءَ ماصنعه قومه :
﴿قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا. فلم يزدهم دعائى إلا فرارا. وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا. ثم إنى دعوتهم جهارا. ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾(١)

فقد استنفد نوح عليه السلام كل فنون الدعوة،وهو ينتقل من طور إلى طور، ولم يتخلل ذلك انقطاع أو فتور، جّرب معهم الإسرار بدعوته، ولم يدخر جهدا فى ليل أو نهار، فلما أعياه ذلك انتقل إلى المجاهرة، وصبر على تكاليفها وتضحياتها، فلم يحقق بها ما أراد، ثم انتقل الى المزاوجة فى دعوته بين الإعلان والإسرار، فما كان ذلك بأسعد حظا من التفرد بالإسرار أو الجهار، وحرف المهلة بين هذه المراحل يمطّ زمن المرحلة قبله، وكأنه يُعذِر لنبى الله نفاد صبره مع قومه، فهو لم يتعجل الانتقال من طور الى طور، بل كان دءوبا صبورا، يطرق كل باب، ويبذل كل جهد. ألاترى قوله فى الطور الأول : "ليلا ونهارا" وقوله "فلم يزدهم دعائى إلا فرارا" مما يدل على مداومة الدعوة وتكرارها، وأنه كلما جدد معهم دعوة، جددوا صدّا وكفرانا؟!

فالتراخى الزمنى هو الذى يشعر بطول معاناة نوح، وشدة صبره على أذى قومه، وهو أحب إلىّ من القول بالتراخى الرتبى الذى ذهب إليه الزمخشرى فى قوله : (فعل عليه الصلاة والسلام، كما يفعل الذى يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر فى الابتداء بالأهون، والترقى فى الأشد فالأشد، فافتتح بالمناصحة فى السر،فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة، فلما لم تؤثر، ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان. ومعنى "ثم" الدلالة على تباعد الأحوال، لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من الإفراط فى أحدهما) (٢)

---

(١) نوح ٥ - ٩ (٢) الكشاف ٤/١٦٢

فلست أظن أن الجمع بين الإسرار والمجاهرة أغلظ من إفراد المجاهرة، لما هو معلوم من أن المجاهرة بالدعوة تستثير المعاند، وتستنفر حميّته، وتدفعه إلى الإغلاظ للداعى وإيذائه، والتهكم به، فكيف تكون المداومة على المجاهرة أهون من الجمع بينها وبين الأسرار ؟

لقد فرّ جار الله إلى القول بالتراخى الرتبى هروبا من حقيقة "ثم" المستوجبة الانقطاع بين أطوار الدعوة، ونحن نرى أن المباعدة بحرف المهلة منظور فيها إلى بداية المرحلة، وهى طويلة طويلة بالنظر إلى المرحلة التى تليها، وهى وحدها القادرة على نقل الإحساس إلى القارىء بطول المجاهدة وشدة المعاناة، ولو قيل : فدعوتهم جهارا. فأعلنت لهم وأسررت، لضاع ما أومأت إليه "ثم" واعتذرت به لنبى الله حين ضاق بهم، وجار إلى ربه : ﴿**رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديّارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا**﴾ (١).

وتقف "ثم" شاهدا على عظمة الإسلام، وروحه السمحة فى صيانة أرواح غير المسلمين، وتهيئة سبل الأمان لهم فى أرضه، وتمكينهم من التعرف على حقيقة الإسلام، وتدبّر آيات الكتاب الحكيم، فى قوله تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون**﴾ (٢) فقد وقعت بين الأمر بإجارة المشرك للاستماع إلى كلام الله، وبين الأمر بإبلاغه مأمنه، لتوجب عدم معاجلته واستمرار حمايته، وتمكينه من الإقامة الآمنة زمنا رخيا يستطيع معه التعرف على أصول الشريعة وأحكامها، وتدبرمعانى الكتاب المجيد، ومعايشة المسلمين، ليرى آثار الدين فى سلوكهم، لأنهم الترجمة الحقيقية والصورة الممثّلة للقرآن الحكيم. وفى تذييل الآية "ذلك بأنهم قوم لايعلمون" إيحاء بأنه ليس المراد الاستماع إلى كلام الله فحسب، وإلا لكان ذلك موضع الفاء، ومعها ينتهى عهد الأمان بمجرد الاستماع، وإنما المراد إمهاله حتى يتدبر ويعى، ويعاود

---

(١) نوح ٢٦ - ٢٧ (٢) التوبة ١٦

الاستماع، وهو مستمتع بالأمان، لأن الذى لايعلم بحاجة إلى من يعلّمه ويصبر عليه حتى يزيل جهله، وتلك حضارة الإسلام ورسالته التى أوجب الله على المسلمين حملها إلى البشرية، منذ أن اختتمت رسالات السماء بنبيهم الكريم، ولم يعد سواهم مؤهلا لإشاعة نور الحق فى بقاع الدنيا، لذلك قال البيضاوى:("فأمّنه "حتى يسمع كلام الله"، ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر) [١] فما فُهِم التدبُّر، والاطلاع على حقيقة الأمر إلا من نفث حرف التراخى. وقد تعاونت "ثم" مع "حتى" التى تمتاز عن "إلى" بامتداد الغاية معها، لتمتد حماية المسلمين للكافر المستجير بهم إلى تمام الاستماع، لأن "إلى" لايدخل مابعدها فى حكم ماقبلها كما عليه أكثر المحققين [٢]، لذلك جاءت "إلى" فى قوله تعالى : **﴿وأتموا الصيام إلى الليل﴾** [٣] لتدل على تعجيل الفطر، كما حثت عليه السنة المطهرة.

ومنه مجيئها فى قوله تعالى : **﴿الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير﴾** [٤] فإن "ثم" فيه دلت على شفع النظر بالتأمل واجالة الفكر، وتدبر أحوال الخلق، وصولا إلى الخالق، وكأن "ثم" هى الحاجز بين النظرة الحمقاء، التى لاترى من الأشياء إلا أشكالها وألوانها، والنظرة النافذة إلى حقائق الأشياء، وإدراك غاياتها. إنها دعوة إلى التوقف بعد كل نظرة للتدبر فى أسرار الصنعة، والاستدلال بها على عظمة الصانع. يقول الزمخشرى : (فإن قلت : فما معنى "ثم ارجع"؟ قلت : أمره برجْع البصر، ثم أمره بألا يقتنع بالرجعة الأولى، وبالنظرة الحمقاء، وأن يتوقف بعدها ، ويُجِمَّ بصره، ثم يعاود ويعاود، إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة، فإنه لايعثر على شىء من فطور) [٥]

---

(١) تفسير البيضاوى ٣٠٢/٤ (٢) ينظر الجنى الدانى ٢٨٥ (٣) البقرة ١٨٧
(٤) الملك ٣ - ٤ (٥) الكشاف ١٣٥/٤

الدلالة علي سعة الرحمة

كثيرا مايرمز حرف التراخى إلى سعة رحمة الله، وعظيم عفوه، حين يمهل المذنب، فلا يعاجله بالعقوبة، ويفتح أمامه أبواب الرجاء، وإن طال أمد المعصية. قال تعالى : **﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾** (١) فإن عطف الاستغفار المنبىء عن التوبة والإقلاع عن الذنب بحرف المهلة، وتعقيب ذلك بقوله "يجد الله غفورا رحيما"، فيه إشارة إلى أن الله تعالى يسع برحمته كل من أقبل عليه، واستمطره عفوه، وأنه لايوصد أبواب التوبة عن عبده، مهما أوبق نفسه بالمعاصى، ولئن كان ذلك شأنه مع العصاة الذين طال عصيانهم، فلأن تكون رحمته للمسارعين إلى التوبة أعظم. إنها يد الله ممتدة للعصاة، لايقبضها حتى يملوا.

وقد توالت الآيات مؤكدة على هذا المعنى، كما فى قوله تعالى : **﴿إلا من ظلم ثم بدّل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم﴾** (٢) وإن كانت الرحمة هنا أعظم وأوسع، بدلالة توالى التوكيدات فى وعد الله تعالى بالمغفرة والرحمة، ومقابلة تراخى عبده فى التوبة، بمسارعته إلى المغفرة، وهو مدلول الفاء فى الجواب، وذلك لأن درجة التائب هنا أعظم، فهو لم يقلع عن المعصية فحسب، ولكنه بدّل حسنا بعد سوء، فذهبت حسناته بسيئاته، وبقى له فضل الله عظيما.

وعلى نحو منه فى الدلالة والدرجة، قوله تعالى : **﴿إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾**(٣) فهم مع طول زمن عصيانهم المعبَّر عنه بحرف التراخى قبل التوبة، وتأكيده بالظرف "من بعد ذلك"، فإن الله عظَّم هذه التوبة، وقابلها بمزيد من الغفران والرحمة، فحشد النظم الكريم من أدوات التوكيد والمبالغة مايجلّل ذنوب التائبين ولو أتوا بقراب الأرض خطايا، ألا ترى إلى أداتى التوكيد : إنَ واللام، واسمية

---

(١) النساء ١١٠. (٢) النمل ١١٩ (٣) النحل ١١٩

الجملة، ولفظ الرب، المشعر ببالغ العطف والحنّو، وإضافته إلى المخاطب، الدالة على الرضا والقبول، وصيغتى المبالغة فى صفتى الغفور الرحيم !! إن هذا الفيض الغامر من الرحمة استحقه التائبون مع طول عصيانهم، لأنهم عصوه عن جهالة، لا عن إصرار وهم يعلمون، ثم لم يكتفوا بالتوبة، بل شفعوها بالعمل الصالح، وبدلوا سيئاتهم حسنات، وهو مادل عليه بقوله : "وأصلحوا".

ومثله قوله تعالى : **﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدهاوآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾** (١) غير أنه عطف الإيمان على التوبة، والإيمان والإصلاح متلازمان. ولعلك تدرك سعة عفو الله وشمول رحمته مع هؤلاء الذين طال عصيانهم، إذا علمت أن الآية هنا تتحدث عن توبة عبدة العجل من بنى إسرائيل، حيث جاءت بعد قوله تعالى : **﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين﴾** (٢) فإذا كان هذا عفو الله مع التائبين من أعظم الذنوب، فكيف تكون رحمته مع من تاب من قريب؟! يقول صاحب التحرير والتنوير : (وحرف "ثم" هنا مفيد للتراخى، وذلك إلجاء إلى قبول التوبة، ولو بعد زمان طويل، مملوء بفعل السيئات. وقوله "من بعد" تأكيد لمفاد المهلة، التى أفادها حرف "ثم". وهذا تعريض للمشركين بأنهم إن آمنوا يغفر لهم، ولو طال أمد الشرك عليهم) (٣)

الإذلال والتحقير

يكثر وقوع "ثم" بين مواقف الحشر، لتصوير إحساس أهل الموقف بطول الزمن والتعبير عن شدة مايعانونه حينا، وللاستهانة والتحقير، بحبس الموقوفين، والإعراض عنهم، وإطالة زمن ترقبهم حينا آخر. من هذا قوله تعالى : **﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون﴾** (٤)وقوله : (ويوم نحشرهم

---

(١) الأعراف ١٥٣ (٢) الأعراف ١٥٢

(٣) التحرير والتنوير ج٩ الكتاب الأول ١٢٠. (٤) الأنعام ٢٢

جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ [١] وقوله: **﴿ويوم يحشرهم ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾** [٢] فإن فى إطالة زمن الانتظار بين حشر المشركين وسؤالهم قصدا إلى إغفالهم، والإعراض عنهم، تحقيرا لهم وإذلالا. وقد كانوا الكبراء والسادة فى الدنيا وهولون من العقاب يضاف إلى مرارة الانتظار وترقب نزول العذاب، وذلك ما أفاده ابن عاشور عند تفسيره للآية الأولى : (وعطف "نقول" بثم، لأن القول متأخر عن زمن حشرهم بمهلة، لأن حصة انتظار المجرم ماسيحل به أشد عليه، ولأن فى إهمال الاشتغال بهم تحقيرا لهم، وتفيد "ثم" مع ذلك الترتيب الرتبى" [٣]

غير أن جمعه بين دلالتها على التحقير المفادة بالتراخى الحقيقى، وبين التراخى الرتبى هو من الجمع بين الحقيقة والمجَاز، فضلا عن تصادمهما، لأن التراخى الرتبى لايصار إليه الا إذا استحال التراخى الزمنى، ويكون عدم صحة المهلة الحقيقية قرينة المجاز والتراخى الزمنى هنا ممكن، وبه دلّ حرف التراخى على التحقير، فلامبرر للعدول إلى التجوز.

ومنه قوله تعالى : **﴿ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لايؤذن للذين كفروا ولاهم يستعتبون﴾** [٤] حيث يستمع الله إلى شهادة الشهداء، ويعرض عن المشهود عليهم، ولايعلنهم بعدم الاستماع إليهم، بل يتركهم يترقبون سؤالهم، يعتصرهم ألم الانتظار، وإذلال الإهمال، ثم يلقيهم بعد ذلك فى النار دون أن يأذن لهم بالخطاب، ليكون حبسهم فى الموقف بعد سماع الشهداء غاية فى التحقير. وهذا هو سر العدول عن الواو أو الفاء -- وهما الأصل فى هذا الموقع - الى حرف التراخى.

ومما هو ذاهب إلى هذا الغرض ما أومأت به "ثم" إلى طوله حبس الغالّ يوم القيامة، قبل أن يوفّى جزاءه، للتشهير به، وفضحه على

---

(١) يونس ٢٨ — (٢) سبأ ٤٠

(٣) التحرير والتنوير ١٧٤/٧ — (٤) النحل ٨٤

رءوس الأشهاد، وهو يحمل على ظهره ما غلّه فى دنياه، إنْ بقرةً لها خوار، أوبعيرا له رغاء، أو شاة لها ثغاء. وذلك فى قوله تعالى : **﴿وماكان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون﴾** (١)

فإذا كان الغرض من الإتيان بالغال حاملا ماغله قُصد به فضحه أمام الخلق يوم المشهد العظيم ، فإن إبقاءه على هذه الصورة المزرية زمناطويلا حتى يراه أهل الموقف جميعا، فيه غاية التهكم والازدراء.

وإمعانا فى التحدى، وعدم المبالاة بكيد الخصوم، والاستهانة بجمعهم، أمر الله رسوله أن يخاطب المشركين بما جاء فى قوله تعالى : **﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون﴾** (٢)

فقد نشر حرف المهلة جوا من الاستخفاف وعدم المبالاة بكيد مَنْ دعاهم إلى كيده، ثقة فى معيّة الله تعالى، ويقينا بأنهم لن يستطيعوا كيده بعد أن عصمه الله منهم، لذلك أرخى لهم العنان، ليجمعوا كل مايستطيعون جمعه من الأنصار والشركاء، وأملى لهم بما يمكنهم من حشد كل طاقاتهم قبل أن ينازلوه : "قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون"، وزيادة فى التحدى والاستخفاف، دخلت الفاء فى قوله "فلا تنظرون" إشارة إلى أنه يمهلهم ليستعدوا له، ولايستمهلهم إذا ما أكملوا استعدادهم، وجمعوا جموعهم، وقرروا الإيقاع به. أترى احتقارا وازدراء أشد من هذا الاحتقار ؟!

ومثله ماتحدى به نوح عليه السلام قومه، فيما قصّه الله تعالى فى كتابه : **﴿واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا**

---

(١) آل عمران ١٦١ (٢) الأعراف ٩٤ - ١٩٥

أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولاتنظرون﴾ (١)

ولما كان العناد فى قوم نوح أشد، وتماديهم على الكفر والاستكبار أطول زمنا مما بين محمد عليه السلام وقومه، جاء التحدى هنا أشد، والإملاء للمعاندين أرخى وأوسع، وكأن النظم الحكيم يقسم سنوات الرسالة، وحجم المعاناة على ألفاظ التحدى. لقد مهّد نوح لتحديه بإخلاص توكله لربه، بما يعنى أنه يقوى عليهم بما يستمده من قوة الله، ويستعين على مكرهم بخير الماكرين، وقد زاد نوح على طلبه دعوة شركائهم - مطالبتَهم بإجماع أمرهم، وهذا غاية الاستخفاف والاستهانة، حين يوجههم إلى حشد قواهم، ويهديهم إلى عوامل النصر والتغلب عليه، المتمثلة فى وحدة الكلمة، ووضوح الرؤية والهَدف "ثم لايكن أمركم عليكم غمة" فإذا ما تأكدوا من تمام الاستعداد، وهيأوا لأنفسهم وسائل الانتصار، فليعجلوا الإيقاع به.

أرأيت محاربا باسلا، يرسم لخصمه طرق التقوى عليه، ويرشده إلى العوامل التى تمكنه من تحقيق أهدافه ؟ إنه هذا الذى جاء على لسان نوح، وقد بلغت "ثم" بهذا التحدى مبلغا من الاستهانة لاينطق به إلا من كان على مثل ثقة نوح فى عون من أرسله. فقد أمهلتهم أولا لحشد قواهم وقوى آلهتهم، وأمهلتهم ثانيا ليراجعوا خططهم وأهدافهم، حتى لايقدموا لمنازلته وأمرهم غمة، وأمهلتهم ثالثا ليختاروا من الوقت مايرونه مناسبا لإنفاذ أمرهم. وقد أوجز الزمخشرى هذا التحدى والاستهانة فى قوله : ﴿فأجمعوا ماتريدون من إهلاكى، واحتشدوا فيه، وابذلوا وسعكم فى كيدى، وإنما قال ذلك إظهارا لقلة مبالاته، وثقة بما وعده ربه، من كلاءته وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا﴾ (٢)

ومما يمت إلى ذلك بسبب قوله تعالى : **﴿من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم**

---

(١) يونس ٧١ (٢) الكشاف ٢/٢٤٥

ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده مايغيظ﴾ (١)

فانظر كيف تلاحم فعل المدّ، بما تضمنه من طول المكان الممدود إليه السبب، مع طول الزمان المعبّر عنه بحرف التراخي، لتتعاون سعة الزمان والمكان فى إرخاء العنان لهذا المتبرم الخارج عن طاعة ربه، وتتيحا له من هذا الفضاء الواسع ومن امتداد الزمن، مايستنفد معه كل حيلة، ويسخر كل إمكاناته، فإنه لن ينتهى بعد كل هذا إلا إلى حتفه، ولن تخسر الدنيا بهلاكه شيئا.

التلطف والمصانعة :

تشعر "ثم" بإحكام الحيلة، والمبالغة فى الحذر، والتلطف فى الوصول إلى الغرض، فى مواضع عديدة من الذكر الحكيم، فيبرز حرف المهلة دقة الترتيب والاحتيال فى البلوغ إلى الهدف، وينزلهما منزلة طول الزمن، لما أن مثل هذا الإحكام من شأنه أن يحتاج إلى طول الوقت. ومثاله قوله تعالى فى وصف المنافقين، وهم أكثر الناس قدرة على المخادعة والمداهنة **﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون﴾**(٢)

فالمنافق بطبعه ينفر من كل دعوة إلى الحق، ويفر من تكاليف الوحى، فرار الحُمُر من الأسد، كما صوّره قوله تعالى : **﴿فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة﴾** (٣)، والآية التى معنا تكشف أثر نزول السورة من القرآن فى نفوس المنافقين، بما تَنم عنه أفعالهم وحركات جوارحهم، فهم يسترقون النظرات، ويتحَينون الفرصة للانصراف حتى يتسللوا من بين الصفوف دون أن يشعر بهم أحد، فكان عطف الانصراف بحرف المهلة، إيذانا بالاحتيال والتلطف في محاولتهم، ومخاتلة القوم، حتى لايحسوا بانصرافهم، وهى بحساب الزمن لحظات خاطفة، لكنها بحساب الحذِر

(١) الحج ١٥ (٢) التوبة ١٢٧ (٣) المدثر ٤٩ - ٥١

المتوجّس زمن طويل، فجسّد حرف التراخى هذه المداهنة، والمبالغةفى الحذر والتخفى، فى البعد الحسى المتمثل فى طول الزمن بين النظر والانصراف، وسواء فى ذلك أن يكون المراد الانصراف بالقلب عما دعوا إليه من الحق والهدى، أم انصرافا بالقالب عن مجلس رسول الله الذى أنزلت فيه السورة. يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : (إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، "نظر بعضهم إلى بعض"، أى تلفتوا هل يراكم من أحد؟ "ثم انصرفوا"، أى تولوا عن الحق، وانصرفوا عنه، وهذا حالهم فى الدنيا، لايثبتون عند الحق، ولايقبلونه، ولايفهمونه، كقوله تعالى : **﴿فمالهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾**، وقوله تعالى : **﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين، عن اليمين وعن الشمال عزين﴾** (١))(٢) . لاحظ كيف قرن الآية بموضعين، كل منهما ينطق بسرعة التولى والإعراض، كما فى تشبيههم بالحمر المذعورة تفرّ من الأسد، وكما فى التعبير "مهطعين". مما يدلك على أن المهلة هنا، أريد بها تحيّن الفرصة للتسلل فى غفلة من الجالسين.

ومما دلت فيه "ثم" على التلطف والمبالغة فى إحكام الحيلة، قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام، حين احتال على استبقاء أخيه بتسريقه، ودسّ الصواع فى وعائه، وإخراجه منه : **﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه، كذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله﴾** (٣)

فلم يمض من الوقت بين التنقيب فى أوعية إخوته، والوعاء الذى دُسَّ فيه الصواع، مايستوجب حرف المهلة، لكنه التلطف، والتمويه على المشاهدين، بتأخير البحث فى الوعاء المنشود، ومحاولة الانصراف عنه، لإظهار اليأس من وجود مايبحثون عنه. كل هذه المصانعة والحذر من أن يتسرب الشك إلى نفوس الأخوة لو بدءوا به وتعجلوا استخراجه، هو الذى بسطه حرف المهلة، وأبرزه فى صورة زمن ممتد، ألا ترى كيف عدل

---

(١) المعارج ٣٦ - ٣٧ (٢) تفسير ابن كثير ٤٠٣/٢ (٣) يوسف ٧٦

النظم الكريم من أن يقول : أخرجه، إلى "استخرجه" فأطالت هذه الزيادة فى الحروف زمن البحث، ومطّته مبالغة فى إعمال الحيلة ؟! هذا إلى جانب مايصوره حرف المهلة من الخوف والترقب الذى كان يملأ نفوس إخوة يوسف، وهم يتابعون البحث فى أمتعتهم، انتظارا لما يسفر عنه، فيضغط الزمن على نفوسهم، ويطول قصيره فى أعينهم.

وأحسب أن هذا هو السر فى قوله تعالى : ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾ (١) فهؤلاء المحّرفون لصوص كلمة يتحيّنون الفرصة فى التخفّى، واستراق الأعين والعقول عند عرضها، وهذا هو الذى يومىء إليه حرف التراخى، معبرا بطول الزمن بين الكتابة بأيديهم، والزعم بأنه كلام الله، مع أنهما مقترنان فى الحقيقة عن الاحتيال، والمصانعة، وتزيين القول، وإحكام الحيلة، حتى لاينكشف أمرهم، ويظهر باطلهم. فتنزّل المداهنة وخداع المشترى منزلة البعد الزمنى، للإشعار بإحكام الحيلة وإتقانها. ألا ترى إلى قوله تعالى يصف هذه المخادعة واستهواء الأسماع ﴿**وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وماهو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وماهو من عند الله**﴾(٢) وربما يكون هذا الذى ذهبت إليه حملا للتراخى على الحقيقة أقرب من القول بالتراخى الرتبى الذى صرح به أبوالسعود فى قوله : (و "ثم" للتراخى الرتبى، فإن نسبة المحرّف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحا أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل) (٣) فإن هذا القول يجعل التحريف جناية، ونسبة المحرَّف إلى الله جناية أشنع، مع أنهما جناية واحدة ممتدة، لأن التحريف واقع فى كلام الله بداية، ولايسمى تحريفا مالم يكن منسوبا إلى الله، إنما التراخى فى إظهار ما حرّفوه، دليل على أنهم يتقنون الصنعة، ويدارون عوارها قبل ترويجها، ويتحينون الفرصة لتسويقها.

---

(١) البقرة ٧٩ (٢) آل عمران ٧٨ (٢) تفسير أبى السعود ١/ ١٢٠.

معانيها المجازية ومواقعها

تحرير القول بالمجاز

إن أعظم مواقع " ثم" فى الكتاب الحكيم، ماجازت فيه معانيها الوضعية، إلى معان أخرى، تكسوها رداء الزمن، وتفيض عليها من البعد الحسى، ماينفخ فى روحها، ويملؤها حركة ونماء. وقد كان جار الله الزمخشرى أول من افتض عذرة معانيها المجازية، وأحس بأنفاس الزمن تسرى بين الأحداث المتواصلة، فتمطها، وتباعد بينها، لتبرز التفاوت فى الأوصاف والأحوال، وتجسّد أغراض الكلام ومراميه.

نعم. لقد سبقت الزمخشرى إشارات سريعة، ولمحات خاطفة، يمكن أن تكون قد مهّدت لما أسماه التراخى الرتبى، وأهمها - فيما عثرت عليه - قولُ الراغب الأصفهانى فى المفردات : ("ثم" حرف عطف يقتضى تأخر مابعده عما قبله، إما تأخيرا بالذات، أو بالمرتبة، أو بالوضع، حسبما ذكر فى قبلُ وفى أوّل) (١).

وماذكره فى قبل، هو قوله : (قَبْلُ : يستعمل فى التقدم المتصل والمنفصل، ويضاده بعدُ ... هذا فى الأصل، وإن كان يتجوز فى كل واحد منهما، فقبلُ يستعمل على أوجه، الأول فى المكان، بحسب الإضافة، فيقول الخارج من أصبهان إلى مكة : بغداد قبل الكوفة، ويقول الخارج من مكة إلى أصبهان : الكوفة قبل بغداد، والثانى فى الزمان، نحو : زمان عبد الملك قبل المنصور، قال : ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾(٢). الثالث فى المنزلة، نحو : عبد الملك قبل الحجاج، الرابع فى الترتيب الصناعى، نحو : تعلُّم الهجاء قبل تعلُّم الخط) (٣)

فليس الترتيب والتراخى فى حرف المهلة، مقصورين على الترتيب والتراخى الزمانى، بل هناك ترتيب وتراخ فى المنزلة، وهو ماقال به الزمخشرى فى المواضع التى يستعصى فيها الترتيب

---

(١) المفردات ١١ (٢) البقرة ٩١ (٣) المفردات٣٩١

الحقيقى، ثم إن الترتيب فى الرتبة ضرب من التجوز، على ماصرح به الراغب فيما ناظر به لحرف المهلة، من الظرف "قبلُ". وربما كانت مثل هذه الإشارة هى التى فجّرت عند الزمخشرى ينابيع المعانى المجازية، التى استخرجها لحرف التراخى.

توسّع جار الله فى التراخى المفهوم من حرف العطف، ليشمل به التباين فى الصفات، والتباعد فى الأحوال والمنازل، واستخرج من ذلك أسرارا للإعجاز، لم يقع عليها قبله أحد.

الفرق بين الاستبعاد والتراخي الرتبي

أدار الزمخشرى أمر المجاز فى "ثم" حول غرضين ، فرّق بينهما بوعى ووضوح كاملين، وإن اختلطا على بعض من تابعه، فأفرغهما إفراغا واحدا، وهما الاستبعاد، والتراخى الرتبى.

ومفهوم الأول عنده : هو التباعد بين أمرين يمتنع ترتب ثانيهما على أولهما. ومفهوم الثانى : التفاوت بين المتعاطفين فى المنزلة، فيجعل المعطوف أرفع رتبة من المعطوف عليه، وليس بينهما من التناقض ما فى الاستبعاد.

وقد أحسن الدكتور أبو موسى تتبع الزمخشرى فى الموضعين سالفى الذكر، وميَّز بينهما، حين قال : (أما "ثم" فإننا حين نتابع تحليله لمواقعها فى الكتاب العزيز يتضح لنا أصلان يرجع بمعنى "ثم" إليهما : 'الأول الاستبعاد، وذلك يكون إذا كان مابعد "ثم" أمرا مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبلها، أو بعبارة أخرى : إذا كان ما قبل "ثم" من الأحداث والأفعال مهيئا لعدم حصول مابعدها ...

الثانى بيان البعد بين الأمرين، وهذا غير الاستبعاد، إذ المراد أن الأمرين من جنس واحد، ولكن مابعد "ثم" أعلى مرتبة فى هذا الجنس، وأبلغ مما قبلها، فليس بين الأمرين منافاة، كما فى الاستبعاد، وإنما

بينهما تفاوت، وهما من جنس واحد) (١)

- هذه المنافاة بين المتعاطفين قائمة فى معظم ماذكره الزمخشرى من الاستبعاد، وإن كان قد أطلقه نادرا على مَا لامنافاة فيه بين الأمرين، كقوله تعالى :**﴿يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التى تؤويه. ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه﴾** (٢). قال الزمخشرى : ("ينجيه" عطف على "يفتدى"، أى يود لو يفتدى، ثم لوينجيه الافتداء، أو من فى الأرض. وثم لاستبعاد الإنجاء، يعنى : تمنى لو كان هؤلاء جميعا تحت يده، وبذلهم فى فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك. وهيهات أن ينجيه) (٣)

فإن الاستبعاد هنا مفهوم من قرائن أخرى، لا من المنافاة بين الافتداء والإنجاء، إذ الشأن لو أن الافتداء قُبِل لكان سبيلا إلى الإنجاء، ولكن لأمرين كليهما من المحالات، فلا هو يملك افتداء نفسه بمن ذكر من أقربائه وأهل الأرض جميعا، ولاذلك على فرض وقوعه بمنجيه.

المهم أن الحاجز الذى أقامه الزمخشرى بين الغرضين : الاستبعاد والتراخى الرتبى تهاوى عند البعض حتى لم يعودوا يفرقون بينهما، مما دعا قطب الدين التحتانى إلى التنبيه على هذا الخلط، عند قوله تعالى : "فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون. ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة)(٤) فذكر قول صاحب الكشاف : ("ثم قست" استبعاد القسوة بعد ماذكر مايوجب لين القلوب ورقتها) (٥) وعلق عليه بقوله : (يعنى أن "ثم" موضوعة للتراخى فى الزمان ، ولاتراخى ههنا، إذ قسوة قلوبهم فى الحال، لابعد زمان، فهى محمولة على الاستبعاد مجازا، أى يبعد من العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة، كقولك لصاحبك : قد وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها. ومن الناظرين فى هذا الكتاب من حمل هذا الاستبعاد على التباعد فى المرتبة، وليس بذلك، فإن معناه أن مدخول "ثم" أعلى، كمافى قوله "ثم استوى" (٦)،

---

(١) البلاغة القرآنية ١٩٠. (٢) المعارج ١١ - ١٤ (٣) الكشاف ١٥٨/٤

(٤) البقرة ٧٢ - ٧٤ (٥) الكشاف ٢٩٠/١. (٦) يشير إلى قوله "هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء" البقرة ٢٩.

والمراد ههنا أن مدخولها بعيد عن الوقوع) (١)

والغريب أن الشهاب الخفاجى وهو من الأئمة المدققين، يرفض أن يكون هناك فرق بين الاستبعاد والتفاوت الرتبى. فيقول فى تفسيره لهذه الآية : (وماذكر من الفرق بين التفاوت فى الرتبة والاستبعاد ليس بشىء، لأنه بعد رتبى أيضا، إلا أنه يعتبر فى الثانى العلو) (٢) لكنه يقول فى موضع آخر : (والاستبعاد غير التفاوت الرتبى، بل عُدَّ الشىء بعيدا غير مناسب هنا لما عطف عليه، كما تقول : تسىء إلى، ثم ترجو إحسانى، فتنزل البعد المعنوى منزلة البعد الزمانى) (٣)

وهو - كما ترى - تناقض ظاهر، فهل عاد فى آخر حاشيته عما قاله فى أولها؟ أو أنه يقصد إلى البعد المعبر عنه بحرف المهلة بعد مجازى فيهما معا؟ ربما.

الاستعارة بين معني الحرف ومدخوله :

للزمخشرى فى استعارة الحروف جهود رائدة، كان من ثمارها هذا الجدل الطويل، الذى نراه فى كتب البلاغيين حول إجراء الاستعارة فى معنى الحرف أو فى مدخوله، وكلا الفريقين يعتمد فى فهمه على نصوص من الكشاف، يدل ظاهر بعضها على إجرائها فى معنى الحرف، وظاهر بعضها الآخر على إجرائها فى مدخوله. يقول الدكتور أبو موسى: (أما الاستعارة فى الحرف فلم يلتفت إليها كثير من البلاغيين قبل الزمخشرى، وإن وجدت إشارات موجزة تومىء إليها فى كتب التفسير، وإذا كان البلاغيون متفقين على أن الاستعارة فى الأفعال والمشتقات تؤول إلى مصادرها، فإنهم اختلفوا فيما تؤول إليه الاستعارة فى الحرف، فقال السكاكى : إن الاستعارة فى الحرف تابعة للاستعارة فى متعلقه، وفسر المتعلق بقوله : "والمراد بمتعلقات الحروف، مايعبر بها عنها، عند تفسير معانيها، مثل قولنا : "مِن" معناها

---

(١) حاشية قطب الدين التحتانى على الكشاف ١/ ٢٤٠.

(٢) حاشية الشهاب ٢/ ١٨٦ (٣) السابق ٨/ ٢٧٤

الابتداء، و "فى" معناها الظرفية ..... وكان السكاكى يميل الى تجريد الكليات، وهذه روح علمية مستقيمة، ولكن فاتها أن تدرك فى هذا الموقف أن الذى يفهم من التعبير ليس هو ذلك التشبيه والتصوير، الذى يجرى فى المعانى التجريدية للحروف، وإنما هو تصوير يجرى فى الأفق القريب لمدلول العبارة، فقولك : زيد فى نعمة، تصوير للنعمة فى صورة ظرف يحيط بزيد، ويغمره من جهاته، فيؤكد معنى فيوض النعمة التى هو فيها، والتى ملأت جوانب نفسه وحياته، ولهذا رأينا الخطيب وابن يعقوب يقررون أن الاستعارة فى الحرف تابعة لتشبيه يجرى فى مدخول الحرف، أى فى مجروره ...

وهذا الوجهان يمكن أن نرجع بهما معا إلى كلام الزمخشرى، فقد ذكر فى بعض الصور مايفيد أن التشبيه والاستعارة يجريان فى مدخول الحرف، كما ذكر فى غيرها أن الاستعارة تجرى فى الحرف، وأنه مستعار كاستعارة الأسد للشجاع) (١)

وكأنى بأستاذنا يقصر الحديث فى هذا التحقيق على استعارة حروف الجر، بدليل قوله "فى مدخول الحرف، أى مجروره" وهو رصد دقيق لكلام الكشاف، وفهم صحيح لمذهب السكاكى، لكن فى إطار استعارة حروف الجر وحدها. أما فيما عداها، فإن السكاكى خالف تطبيقُه تنظيرَه، فهو يقول عند التقعيد : (وفى الحروف متعلقات معانيها، فتقع الاستعارة هناك، ثم تسرى فيها، وأعنى بمتعلقات الحروف مايعبر عنها عند تفسيرها، مثل قولنا "مِنْ" معناها ابتداء الغاية، و "إلى" معناها انتهاء الغاية، و "كى" معناها الغرض ..) الى أن يقول : (وعلى هذا لاتستعير الحرف إلا بعد تقدير الاستعارة فى متعلق معناه، فإذا أردت استعارة "لعل" لغير معناها قدرت الاستعارة فى معنى الترجّى، ثم استعملت هناك لعل) (٢) لكنه عند التطبيق، وحين لاتظهر الاستعارة فى معنى الحرف يجريها فى مدخول الحرف، فيقول : (فتشبه حال المكلف الممكّن من فعل الطاعة والمعصية، مع الإرادة منه أن

(١) التصوير البيانى ٢٢٣ - ٢٢٥ بتصرف. (٢) مفتاح العلوم ٢٠٩

يطيع باختياره، بحال المرتجى المخير بين أن يفعل وألا يفعل، ثم تستعير لجانب المشبه لعل، جاعلا قرينة الاستعارة علم العالم بالذّات، الذى لاتخفَى عليه خافية، يعلم ماكان، وماهو كائن، وماسيكون، قائلا : خلق الله الخلق، لعلهم يعبدون، أو لعلهم يتقون، وعليه قول رب العزة علام الغيوب : **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلم تتقون﴾** (١) ونظائره) (٢)

هذا الكلام مستمد من الكشاف، وهو ظاهر فى إجراء الاستعارة فى حاله المشبه والمشبه به، لأن تشبيه الإرادة بالترجى مما لايظهر معناه، ولايتوصل إلى الغرض إلا إذا أجرى التشبيه فى حال مدخوله، وذلك مانبه إليه السيد الشريف فى حاشيته على الكشاف، فقال : (وأيضا ليس تظهر المشابهة بين الإرادة والترجى إلا باعتبار حال متعلقهما، أعنى المكلف والمترجَّى منه. فذكر التشبيه بين حاليهما، لتظهر تلك المشابهة فى أن متعلق كل من الإرادة والترجى يترجح، أى يتردد بين أن يفعل، وألا يفعل، مع رجحان جانب الفعل) (٣). وهذا هو الذى كان يحكم الزمخشرى، فيجرى الاستعارة فيما يرى أنه يبرز الغرض المسوق له الكلام، سواء كان متعلق معنى الحرف أم مدخوله.

أما فى استعارة حرف التراخى للدلالة على التباعد فى الأحوال والمراتب، فإن الزمخشرى كان يجرى الاستعارة فى معنى الحرف، فى كل ماصرح فيه بالتجوز، لوضوح المشابهة بين المعنيين : الحقيقى والمجازى، ففى قوله تعالى : **﴿ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لَجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾** (٤) يقول صاحب الكشاف : (فإن قلت : ثم فى هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور الثلاثة، فإن الثانى أعظم من الأول، والثالث أعظم منهما، تشبيها

---

(١) البقرة ٢١ (٢) السابق ٢١٠.

(٣) حاشية السيد على الكشاف ١/٢٣١ (٤) الفرقان ٤٥ - ٤٦

لتباعد مابينهما فى الفضل، بتباعد مابين الحوادث فى الوقت) (١) وهو واضح فى أنه يجرى الاستعارة فى معنى حرف المهلة، تجوزا بالتباعد فى الزمان عن التباعد فى الفضل. ويقول فى قوله تعالى : **﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق﴾** (٢) ("ثم" للتراخى فى الوقت، فاستعيرت للتراخى فى الأحوال، والمعنى : أن لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم، وإنما يعتدُّ الله بالمنافع الدينية. قال سبحانه : **﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾** (٣) وأعظم هذه المنافع، وأبعدها شوطا فى النفع "محلها إلى البيت العتيق")(٤)

أولا : مجاز الاستبعاد

دلالة "ثم" على الاستبعاد دلالة مجازية، يشبه فيها البعد المعنوى بالبعد الحسى، المقدر بالزمن، وهو لايقع إلا فى عطف الجمل، لأن المستبعَد هو وقوع مضمون الجملة المعطوفة. بالنظر إلى ماعطفت عليه، ولايتصور ذلك فى عطف المفردات، لأن المتعاطفات فيها معمولات لفعل واحد، ولاتباعد مع اتحاد العامل. يقول الشريف الرضى : (وقد تجىء فى الجمل خاصة لاستبعاد مضمون مابعدها عن مضمون ماقبلها، وعدم مناسبته له، كما ذكرنا فى قوله تعالى : **﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾** (٥) وكقوله : **﴿خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾** (٦)، فالإشراك بخالق السموات والأرض مستبعد غير مناسب، وهذا المعنى فرع التراخى ومجازه) (٧) ويلاحظ أن الرضى يطلق الاستبعاد على مايشمل التراخى الرتبى، كغيره ممن يخلط بينهما، بعد أن ميّز بينهما الزمخشرى تمييزا دقيقا.

ولكى تعرف مدى ثراء حرف المهلة فى مواقعه من الذكر الحكيم، فاعرف أنها لم ترد فيه عاطفة لاسم مفرد على اسم مفرد، وهو العطف

---

(١) الكشاف ٣/٩٤ (٢) الحج ٣٣ (٣) الأنفال ٦٧ (٤) الكشاف ٣/١٤
(٥) المؤمنون ١٤ (٦) الأنعام ١ (٧) شرح الكافية ٢/٣٦٧

الملازم للحقيقة. وذلك ما أحصاه أستاذنا الشيخ عضيمة - رحمه الله - حين قال : (جاءت "ثم" فى (٣٣٠) موضع من القرآن الكريم، وجاءت فى هذه المواضع عاطفة للجملة، وللفعل المنصوب، والمجزوم، وللجار والمجرور. فلم تقع فى القرآن عاطفة اسما مفردا على اسم مفرد) [١]

وإذا كان الشيخ قدسها فى عَدّه عن خمسة مواضع، زيدت فى معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم [٢]، فإنه كان أكثر دقة فى رصده لنوع ماعطف بها. وحين تكون جميع هذه المواضع من عطف الجمل أو الأفعال، فإن ذلك ينبئك عن تكاثف دلالاتها، وتزاحم أسرارها. وخاصة فيما حفت به من ضروب المجاز وهو كثير فى الذكر الحكيم.

والاستبعاد - فيما قرره رجالات البيان - هو مايحكم الفعل والطبع والعادة ببعد وقوع المعطوف، واستحالة ترتبه على ماشأنه أن يمنع وقوعه، فيشبه بعد الوقوع بالبعد الزمانى، لما أن الزمن أقرب إلى الحس، وأقدر على تجسيد التناقض بين المتعاطفين.

أغـــــراض الاستبعـــــاد :

الاستبعاد ضربن : تكذيبي وتوبيخي :

الأول : الاستبعاد التكذيبى ويكون فيما لم يقع من الأفعال المستبعدة، لإنكار وقوعه، وتوبيخ من يدعيه، أو يتوهم إمكانه، بما يبرزه من تناقض بين المقدمة والنتيجة، فيكون بمثابة دليل على سفَه المدعى وغفلته، وغياب وعيه. كما تراه فى قوله تعالى ردا على عبدة المسيح عليه السلام : **﴿ماكان لبشرأن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونواربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾** [٣] فقد حشد النظم الحكيم فى المقدمة من الأسباب مايستحيل معه فى حكم العقول والطباع أن ينتج ما ادعوه من ربوبية المسيح، فهو بشر،

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن ق١ ج٢/ ١٠٢.　　(٢) معجم الأدوات والضمائر ٢٢٢

(٣) آل عمران ٧٩

والبشرية تناقض الألوهية، وهو يتقلب في نعم الله تعالى التي يستحيل معها التمرد على المنعِم، وما أوتيه من الكتاب شاهد على من أرسله، والنبوة رسالة، ولن يكون الرسول إلها، ثم إن الله وهبه من الحكمة مالا يقع معه في هذا الجهل الذي نسبوه إليه. فكان المجيء بثم بين نتيجة ومقدمات تتعارض معها، تجسيدا لهذا البعد والمفارقة، وهي بما تشيعه من حقيقتها، الدالة على البعد الزمني تبرز إحالة تلاقيهما، كما يستحيل أن يتلاقى من تفصل بينهم الأزمان المتطاولة. وفي هذا الاستبعاد تسفيه وتجهيل لمن ادعى ربوبية المسيح، وإظهاره بمظهر من يدعي الجمع بين المتناقضات.

وقد ذهب أبوحيان إلى أن الغرض من دخول حرف المهلة هنا تعظيم القول، وهو غرض من البلاغة صحيح، غير أن جعله ملزوم دلالة التراخي الحقيقي مما لانسلم به. يقول أبو حيان : (أتى بلفظ "ثم" التي هي للمهلة تعظيما لهذا القول، وإذا انتفى هذا القول بعد المهلة، كان انتفاؤه بدونها أولى وأحرى، أي أن هذا الإيتاء العظيم لايجامع هذا القول، وإن كان بعد مهلة من هذا الإنعام العظيم) (١)

فلا أحسب أن هذه الأولوية تنسحب على نبي كريم أنعم الله عليه بنعم هي غضّة طرية لايجف نداها، بل تنمو وتتكاثر، ولاتضعف بتقادم العهد، كإيتاء الكتاب والحكم والنبوة، فليس آخرها بأضعف من أولها، حتى يقال : إذا لم يقل ذلك بعد مهلة، فإن عدم القول على الفور أولى، فربما يكون ذلك صحيحا لو كان الإنعام بمال أو جاه، أوغيرهما مما شأنه أن يكون طول العهد من مظان نسيانه وإضعاف أثره.

ومن هذا الضرب في الاستبعاد لإنكار وقوع مايتوهم وقوعه، قوله تعالى : **﴿يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. وصاحبته وأخيه. وفصيلته التي تؤويه. ومن في الأرض**

---

(١) البحر المحيط ٢/٥٠٤

جميعا ثم ينجيه كلا إنها لظى﴾ (١)

فقد أبرزت "ثم" البون الشاسع بين الأوهام والواقع، وجسّدت بُعد نجاة المجرم بعد أن أتي من ألوان الكفر ما استوجب معه أشد العذاب. وقد مهّد القرآن لهذه النتيجة المؤلمة بألوان من المبالغة، حيث علقها على محال، وهو افتداء النفس بأعز مايملك من الأهل والأقربين ومن فى الأرض جميعا، وهى محالات ساقها بلو الامتناعية، وبالغ فى الامتناع والبعد بحرف المهلة، على فرض تحقق المحال الأول، وكأنه يقول له : حتى لو تحقق لك هذا المحال، وهو أن تقدم أهل الأرض جميعا فداء لك، وعتقا من النار، فإن ذلك لن ينجيك، ثم دل على ذهوله وفقدان وعيه، حين قدم فى الفداء أحب الناس إليه، وهم بنوه، وشأن الأسوياء وأصحاب العقول أن تكون أغلى الأشياء عندهم وأنفسها هى آخر مايضحون به، لكنه هنا عكس الأمر فان أول من يضحى به هم أعز الناس إليه. مما يصور شدة هلعه حين رأى العذاب.

المهم أن المستبعد هنا وهو الإنجاء أمر لم يقع، والاستبعاد لإنكار توهم ،قوعه، وتوبيخ المجرم وتسفيهه على تمنى مالايمكن فى العقل والعدل حدوثه. لذلك كان الرد عليه بأداة الردع والزجر "كلا إنها لظى".

وقريب من ذلك تمنى الوليد بن المغيرة مالايكون فيما قصه الله تعالى عنه : **﴿ذرنى ومن خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا ومهّدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا﴾**(٢) فليس الطمع فى ذاته هو المستبعد، لأن الشأن فى الإنسان أنه نَهِمٌ لايشبع، وأن حبه للدنيا وزينتها لايقف عند حد، حتى قيل : إن المال كالماء المالح، كلما شربت منه ازددت عطشا. وإنما المستبعد أن يطمع فى زيادة الله له وهو على هذه الحال من الكفر بمن يستزيده، وهو ما اقتضى ردعه وزجره عما طمع فيه "كلا إنه كان لآياتنا عنيدا" فكان هذا العناد والكفران هو علة الاستبعاد، وإنكار طمعه فيما

---

(١) المعارج ١١ - ١٥ (٢) المدثر ١١ - ١٦

لايكون، فدلت "ثم" على استبعاد وقوع ماطمع فيه بعد أن أتى من الاستكبار والعناد، ما أغلق دونه أبواب رحمة الله.

الضرب الثاني : الإنكار التوبيخي

هو أكثر مواقع الاستبعاد في القرآن، وغرضه استنكار وقوع الفعل، والتعجب منه، وتوبيخ فاعله عليه، ومنه قوله تعالى : **﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾** (١) فإن اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلها لم يتراخ زمنه عن ذهاب موسى لميقات ربه، كما يدل عليه قوله تعالى : **﴿وما أعجلك عن قومك ياموسى. قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى. قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى﴾**(٢) فما كاد موسى يتركهم للقاء ربه حتى أسرعوا إلى العجل الذى أخرجه لهم السامرى فعبدوه، فالتراخى فى حرف المهلة ليس حقيقيا، وإنما هو مجاز عن استبعاد العقل وقوع عبادة العجل، من قوم فضّلهم الله وكرّمهم، وأفاض عليهم من نعمه مايستوجب الشكر، وآخرها تكريمهم بمواعدة موسى، لمناجاته وإلقاء التوراة عليه، وهو تشريف وتكريم لهم ولنبيّهم، فالإعراض عن المنعم ولما يجفّ أثر نعمته فى أيديهم، مما يستبعده العقل وينفر منه أصحاب الفطرة السليمة، فكيف بمن لم يكتفوا بالإعراض حتى عبدوا العجل من دونه؟ أهناك بعد أعظم مما بين تكريم الله لهم على هذا النحو الذى استدعى فيه نبيّهم، ليغرقهم بفيض وحيه، ويشرفهم بنزول التوراة، وبين أوقح صورة للعبادة، وأخسّ مثل للمعبودات؟ أو يكون دون "ثم" أداة تصور هذا البعد وعمق التناقض بين جلال النعمة ووقاحة الكفران بها؟

وهل هناك قبح أشد من قبح بنى إسرائيل بعد أن يأخذ الله ميثاقهم ألا يسفكوا دماءهم، ويقروا بما عاهدوا الله عليه، ثم تراهم يقدمون على قتل أنفسهم ولما يزل صوت إقرارهم ترجّع أصداءه

---

(١) البقرة ٥١ (٢) طه ٨٣ - ٨٥

الآفاق:﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم﴾ (١)

فهل يمكن أن يترتب فى العقل قتل وإخراج بعد معاهدة المرء ربه على أن مثله لن يكون، وهل يمكن تصوُّر إنسان يجمع بين الإقبال على الله تعالى، ووضع يده فى يده، وإظهار القناعة والرضا، بَلْه الحماس ووفور الهمة، لإنجاز عهده، على مايظهره شفع الميثاق بالإقرار والشهادة، وبين نقض العهد، وخفر الذمة؟

ذلك ماتشى به "ثم" حين تفرغ أعمالهم من الوعى، وتباعد بينهم وبين صنيع العقلاء، وتكشف التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، حتى لكأنهم أشخاص آخرون، غير هؤلاء الذين أخذوا الميثاق، وأقروه، وشهدوا عليه، فجمعت لهم "ثم" بين معنيين : استبعاد حدوث ذلك فى حكم العقل والعادة؟ وإبرازهم فى صورة من تغيرت ذواتهم بتغير صفاتهم. المعنى الأول بطريق التجوز بالبعد الزمنى عن البعد المعنوى، والثانى بحقيقة اقتضاء العطف للمغايرة، والإخبار عن الضمير "أنتم" باسم الإشارة "هؤلاء" وكأنه يقول لهم " أنتم قوم آخرون غير المقرّين، للدلالة على أن الوصفين محال عقلا اجتماعهما فى مخاطب واحد، وذلك ماكشف عنه جار الله الزمخشرى فى قوله : ("ثم أنتم هؤلاء" استبعاد لما أسند اليهم من القتل، والإجلاء، والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم وشهادتهم. والمعنى : ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعنى أنكم قوم آخرون، غير أولئك المقرّين، تنزيلا لتغير الصفة منزلة تغير الذات، كما تقول : رجعت بغير الوجه الذى خرجت به) (٢)

وانظر كيف يجسد حرف المهلة انتكاسة الفطرة، واختلال الفكر، وغرابة السلوك، حين يقر الإنسان بأن الله هو الخالق والمنعم، ثم يتجه بالعبادة إلى غيره، فى قوله تعالى : **﴿فإن تولوا فإنما عليك البلاغ**

---

(١) البقرة ٨٤ (٢) الكشاف ٢٩٣/١

المبين . يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون﴾(١)
فلو أنهم ينكرون وجود الله، ويجهلون نعمه، وينسبونها إلى معبوداتهم، لقلنا إنه ضلال العقل، وغيبة الوعى، أما أن يشهدو لله بما أنعم عليهم، ويقروا بفضله، ثم يسجدوا لمن هو أثر من آثار خلقه، فذلك موطن العجب، وغاية القبح. فأبرزت ثم " هذا التناقض بين العلم والسلوك الذى لايستقيم فى منطق الأشياء.

ومما جاءت فيه للاستبعاد، وأشاعت معانى التعجب والتوبيخ، قوله تعالى : **﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون﴾** (٢)

فما أبعد أن يضع المرء الكفر موضع الشكر، ويقابل الإحسان بالإساءة وما أعجب أن يتمرد المخلوق على خالقه، ويتنكر لمن يده فى فمه تطعم وتسقى! ذلك ماينشره حرف المهلة ويفيض من بعد الزمن روحا من استبعاد الفعل، والتعجب من وقوعه وتوبيخ فاعله. هذا التعجب والتوبيخ ملزوم الاستبعاد، وهو معنى مجازى فى "ثم"، لأن فعل مايستبعده العقل، ويَنكره الطبع والعادة أمر غريب عجيب يستوجب استنكاره وتوبيخ فاعله، وليس التعجب من المعانى الوضعية لهذا الحرف، كما ذهب إليه أبو البقاء الكفوى فى قوله : (وقد يجىء بمعنى التعجب، نحو : ﴿الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾)(٣)

وذهب ابن عطية إلى أن التراخى فى الآية حقيقى، والغرض من إيثار حرفه على الواو الدلالة على قبح العدل بالله، وتوبيخ العادلين، لأن المهلة الزمنية تتيح للعاقل أن يتبين آيات الخلق، ويستدل بها على

---

(١) النحل ٨٣ — (٢) الأنعام ١ - ٢ — (٣) الكليات ٢/١٢٦

الخالق، فإذا ما استبدل الكفر بالحمد بعد التروى والنظر، كان ذلك أقبح مما لو تعجل الكفران، لأنه جاء بعد تمام المعرفة، وهو وجه من البلاغة صحيح، لو أنهم لم يسارعوا إلى الكفر، ويبادروا إلى الافتراء. يقول ابن عطية : ("ثم" دالة على قبح فعل الذين كفروا، لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض، وغيرهما قد تقرر وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول : يافلان أعطيتك وأحسنت إليك، ثم تشتمنى، أى بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف فى هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم) (١)

لقد أحسن ابن عطية بيان سر إيثار حرف المهلة على الواو، لأن التوبيخ معها ألزم وأعظم، لكن ذلك لايلزم أن يكون التراخى حقيقيا، لأن المعروف أن المشركين بادروا بالكفر، فور دعوتهم إلى عبادة ربهم، فكان لابد من تأويل البُعد فى معنى الحرف بالبعد المعنوى، كما أن البعد فى قول القائل : "أحسنت إليك ثم تشتمنى" هو بعد مجازى أيضا، لأن التوبيخ والتعجب من الإساءة يتضاءل فيما لو وقعت هذه الإساءة بعد زمن طويل، إذ الشأن معه النسيان بخلاف ما إذا أساء إلى المحسن ولما يجفَّ ندى نعمته فى يده، فإن القبح حينئذ أشد، فكان لابد من حمل ثم على المجاز بالاستبعاد.

وقد جعلها الإمام ابن عاشور للتراخى الرتبى ذاهبا إلى أن المعطوف أعجب وأغرب مما عطف عليه، قال : (و "ثم" للتراخى الرتبى، الدال على أن مابعدها يتضمن معنى من نوع ماقبله، وهو أهم فى بابه. وذلك شأن "ثم" إذا وردت عاطفة جملة على أخرى، فإن عدول المشركين عن عبادة الله مع علمهم بأنه خالق الأشياء أمر غريب فيهم أعجب من علمهم بذلك ... والخبر مستعمل فى التعجيب على وجه الكناية، بقرينة موقع "ثم" ودلالة المضارع على التجدد) (٢)

---

(١) المحرر الوجيز ٣/٦ (٢) التحرير والتنوير ١٢٨/٧

كون "ثم" هى التى أومأت إلى التعجيب من شأن العادلين لاجدال فيه، أما أنها للتراخى الرتبى فذلك مالانسلم به، لأن التراخى الرتبى لايتناقض فيه المعطوف مع المعطوف عليه، بل يكون أرفع منه درجة، وها هنا يهيىء المعطوف عليه لعكس الفعل المعطوف، فلا تلاقى بينهما حتى يكون هناك تفاوت فى الدرجة، والعجيب بحق أن يقول الشيخ إن التراخى الرتبى هو الدال على أن مابعدها يتضمن معنى من نوع ماقبله، فهل الكفر بالله تعالى والعدل به من نوع المعطوف عليه وهو ثبوت الحمد لخالق السموات والأرض ؟!

ثم انظر كيف تصل "ثم" بالتعجيب حدا يستسقط عقول المتعجَّب من فعلهم فى قوله تعالى : **﴿وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾**(١) فالمحتكمون إلى رسول الله عليه السلام لايؤمنون به، وهو واحد من العجائب، ولدى المحتكمين حكم فى كتابهم الذى يدينون به، والعدول عنه إلى مالا يؤمنون به عجب آخر، والتولى عمن احتكموا إليه بعد الحكم غاية العجب، كل ذلك بسطته "ثم" فى هذا البعد الحسى المتجوز به عن استبعاد العقل ترتب النتيجة على مقدمات تتناقض معها، مما يعكس اختلال الفكر والسلوك لدى القوم.

ومن ذلك قوله تعالى توبيخا للمشركين، وتعجيبا من إدبارهم وتبهيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما رأوا من المعجزات الموجبة للإيمان : **﴿أنّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون﴾** (٢) ففى المعطوف عليه مايستوجب الإقبال على الرسول والإيمان به. بعد أن أراهم من الآيات ما يقطع برسالته، وفى المعطوف إغراق فى الكفر، وإبعاد فى الضلال، حيث لم يكتفوا بالإعراض حتى بهّتوه، ووصفوه بالافتراء والجنون. فباعدت "ثم" بين الأمرين، على مايوجبه العقل والعدل وجسّدت بهذا البعد الحسى غرابة ما ادعوه والتعجب من صنيعهم، وتوبيخهم على فعل ماكان

---

(١) المائدة ٤٣ (٢) الدخان ١٣-١٤

ينبغى أن يكون.

وفى قوله تعالى : **﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيّوك بمالم يحيّك به الله﴾** (١) يتصاعد حرف المهلة بالتعجيب من صنيع اليهود والمنافقين بعد التعجب بالاستفهام، ليدل على غاية القبح فيما ارتكبوه من أفعال نهاهم الله تعالى عنها، وحذّرهم منها، فتمادوا ولجوا فيما نهوا عنه، من التناجى بالإثم والعدوان. وقد حفلت الآية بوسائل الإنكار والتوبيخ، بدءا من الاستفهام بصيغته الدالة على التعجب "ألم تر"، واختيار فعل الرؤية، لفضحهم فيما ظنوا أنه بمنأى عن اكتشافه، فهو لم يسمع ماقالوه فحسب، بل رأى فى أعينهم، ولمحات وجوههم آثار تغامزهم، والمجىء بإلى الموحية بالبعد النفسى بين المخاطب والمتناجين تحقيرا لهم، وازدراءً لفعلهم، وإيثار حرف المهلة لإبراز البعد والتناقص بين موجبات الانتهاء، ودواعى الإقلاع عن التناجى، وبين استكبارهم وإصرارهم على فعل مانهوا عنه.

بين دلالة الحرف ومفهوم السياق

فجَّر أبوحيان قضية حول الدلالة على الاستبعاد، أهى مفادة من حرف المهلة، أم مفهومة من سياق الكلام؟ فقال فى تفسير قوله تعالى : **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾** (٢): (قال الزمخشرى : معنى "ثم قست" استبعاد القسوة بعد ذكر مايوجب لين القلوب ورقتها، ونحو : "ثم أنتم تمترون". انتهى. وهو يذكر عنه أن العطف بثم يقتضى الاستبعاد، ولذلك قيل عنه فى قوله "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون". وهذا الاستبعاد لايستفاد من العطف بثم، وإنما يستفاد من مجىء هذه الجمل، ووقوعها بعدما تقدم مما لايقتضى وقوعها، ولأن صدور هذا الخارق العظيم، الخارج عن مقدار البشر فيه

(١) المجادلة ٨ (٢) البقرة ٧٤

من الاعتبارات والعظات مايقتضى لين القلوب، والإنابة إلى الله تعالى، والتسليم لأقضيته، فصدر منهم غير ذلك من غلظ القلوب، وعدم انتفاعها بما شاهدت، والتعنت والتكذيب) (١)

وقال أيضا عند تفسيره لقوله تعالى **﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾** (٢)، بعد أن ذكر رأى ابن عطية والزمخشرى فى معنى "ثم" : (وهذا الذى ذهب إليه ابن عطية من أن "ثم" للتوبيخ، والزمخشرى من أن "ثم" للاستبعاد ليس بصحيح، لأن "ثم" لم توضع لذلك، وإنما التوبيخ والاستبعاد مفهوم من سياق الكلام، لا من مدلول "ثم".ولا أعلم أحدا من النحويين ذكر ذلك، بل "ثم" هذه للمهلة فى الزمان، وهى عاطفة جملة اسمية على جملة اسمية) (٣)

وقبل أن نناقش أبا حيان فيما ارتآه، يجب أن ننوه بأن ابن عطية حين قال بدلالة "ثم" على التوبيخ لم يخرجها عن حقيقة معناها، بل إن دلالتها على المهلة عنده هى التى أفادت التوبيخ، لأن من يعدل بالله تعالى غيره بعد زمن من تأمل خلقه وظهور الأدلة على وحدانيته، أحق بالتوبيخ والتسفيه ممن لم يتح له مثل هذا الزمن، من النظر والاستبصار. وقد أثبتنا نص كلام ابن عطية آنفا (٤).

وقول أبى حيان : "إن ثم لم توضع لذلك" كلام صحيح، وإن لم يؤد إلى ماقصد إليه. ذلك أننا لانقول، ولاقال الزمخشرى وغيره ممن تابعوه وهم كثير : إن دلالة ثم على الاستبعاد دلالة وضعية، وإنما هى ضرب من التجوز بالبعد الزمانى عن البعد المعنوى.

أما كون الاستبعاد مفهوما من مضمون الكلام، لا من حرف المهلة، فلذلك أمر يحتاج إلى مناقشة، وليس بالأمر السهل على ماهوّنه الشهاب فى قوله : (إن منهم من جعل الاستبعاد مأخوذا من الكلام، لامدلول ثم، والأمر فيه سهل) (٥)

---

(١) البحر المحيطالمحيط ٢٦٢/١ (٢) الأنعام ١ (٣) البحر المحيط ٦٩/٤

(٤) انظر ص١٩٥ من هذا الكتاب (٥) حاشية الشهاب ١٨٦/٢

وسبب أهمية ما أثاره أبو حيان - فى نظرى - أن إسقاط دلالة الحرف على معناه المجازى، ونسبته إلى إشارات السياق، لايختص بحرف المهلة وحده - إذا ماقلنا به - بل إنه يسرى إلى غيره من الحروف، حين تخرج عن دلالاتها الوضعية، كحروف الاستفهام وحروف الجر، بل إن ذلك ينسحب على أفعال الأمر والنهى حين تفارق حقائقها. فإن قوله تعالى : **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾**(١) يدل فيه الأمر "اعملوا" على حقيقته من الطلب. وهذا الفعل نفسه وقع فى قوله تعالى : **﴿اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير﴾** (٢) دالا على التهديد والوعيد. وفى قوله عليه السلام : "**لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال : أعملوا ماشئتم، فقد غفرت لكم**" دل الفعل عينه على التشريف والتكريم، وبذلك صرح ابن حجر العسقلانى فيما نقله عن القرطبى : فقال : (وقد ظهر لى أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة) (٣)

فالفعل "اعملوا" تكرر فى الأمثلة الثلاثة، فدل على الطلب حقيقة فى المثال الأول، وعلى التهديد مجازا فى الثانى وعلى كمال الرضا والتشريف تجوزا أيضا فى الثالث، والناطق بذلك هو السياق والقرائن، فهل نقول إن هذه الدلالات ليست للأفعال وإنما هى مدلول الكلام الذى وقعت فيه؟

ثم إن النحاة الذين جعلوا الهمزة للاستفهام، وهو معناها الحقيقى، أثبتوا لها معانى مجازية، وهذه المعانى من نشر السياق كذلك، لأن الهمزة لم تتغير من حيث هى، وإنما الذى تغيّر هو سياقها، ومع ذلك نقول : إنها دلت على التوبيخ أو التقرير، أو الإنكار، وغير ذلك من معانيها العديدة، فهل يقال كذلك إن هذه المعانى وليدة مضمون الكلام، فإليه تنسب، والهمزة دالة على طلب الفهم على ماهى موضوعة له؟

---

(١) التوبة ١٠٥ (٢) فصلت ٤٠. (٣) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨/٥١٥

إن هذا لم يقل به أحد من النحاة، فهذا الخليل بن أحمد فى كتابه الجُمَل فى النحو، يقول فى قوله تعالى : **﴿أإذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون﴾** (١) (إن هذه الألف ألف التعجب، لأن الكفار لاتستفهم)(٢)، ويقول فى قوله تعالى : **﴿ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾** (٣) (فهذه ألف التقرير، وقد علم الله أن المسيح عليه السلام لم يقل للناس ماقالوا فيه) (٤) فما الذى تغير فى هذه الألف، وهى الموضوعة للاستفهام لتكون بمعنى التعجب والتقرير؟ أليس السياق هو الذى نشر عليها هذه المعانى؟ فهل يمكن القول بأن الهمزة فيه للاستفهام، والتعجبُ أو التقريرُ دل عليه مفهوم الكلام؟

الفصل فى هذه القضية هو أن يقال : هل يمكن للتعجب أو التقرير المصاحبين للهمزة، أو الاستبعاد المصاحب لحرف المهلة، أن يؤدى بغير الهمزة وثم؟

فإن أمكن ذلك - وهو ليس بممكن - كان مدلولَ الكلام لا مدلول الحرف، وإن لم يمكن كان قطعا من دلالات الحرف.

وإذا كان ابن عطية قد قرر أن التوبيخ فى قوله تعالى : "ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" لازم لحرف المهلة، وأنه لو وقعت الواو موقعه لما دلت عليه دلالته، فإننا نقول فى قوله تعالى : **﴿وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم أياته لعلكم تعقلون. ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾**(٥) ماذا لو قيل : فقست قلوبكم. أو وقست قلوبكم أيكون ذلك دالا على الاستبعاد؟ إذا لم يكن - وهو بالقطع لايكون - فإنه يتعين أن يكون الاستبعاد مدلول حرف المهلة، ويكون ذلك سر إيثاره على أخويه فى موضعه.

---

(١) النمل ٦٧ (٢) الجمل فى النحو ٢٤٦ (٣) المائدة ١١٦
(٤) الجمل فى النحو ٢٤٦ (٥) البقرة ٧٢ - ٧٤

ثم ها هنا ماهو أضعف لحجة أبى حيان، فقد نقل فى قوله تعالى : **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾** (١) من سورة السجدة قول الزمخشرى : "ثم للاستبعاد، والمعنى أن الإعراض عن آيات الله فى وضوحها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعادة" ولم يعلق عليه(٢) مما يدل على أنه ارتضاه معنى لحرف المهلة. وفيما أشبهه من النظم فى سورة الكهف، وهو قوله تعالى : **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها﴾**(٣) وقد حلّت فيه الفاء محل "ثم" لم يقل أبو حيان ولاغيره : إن مضمون الجملة دل على الاستبعاد مع اتحاد النظم فى الآيتين والمغايرة فى العاطف فحسب، فلو لم يكن الاستبعاد ملزوم حرف المهلة، لقال أبو حيان بالاستبعاد كما قال فى آية السجدة، والكلام هو نفس الكلام.

نصل بذلك إلى القول بأن الاستبعاد معنى مجازى من معانى "ثم"،وإذا كان النحاة قبل أبى حيان لم يذكروه من معانيها،فلأنهم معنيون بإثبات المعانى الوضعية، أماالمعانى المجازية فهى صناعةأهل البيان.

ولأهل البيان كلام دقيق فى دلالة الكلمة على معان تتولد عن دلالاتها الأصيلة بمعونة القرائن. قال السكاكى فى أدوات الاستفهام، بعد أن أوضح حقائقها : (واعلم أن هذه الكلمات كثيرا مايتولد منها أمثال ماسبق من المعانى، بمعونة قرائنُ الأحوال، فيقال : ماهذا؟ ومَن هذا؟ لمجرد الاستخفاف والتحقير، ومالى؟ للتعجب)(٤) ثم كشف عن القرائن الدالة على التعجب فى قوله تعالى : **﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم﴾** (٥) فقال : (ووجه تحقيق ذلك هو أن الكفار فى حين صدور الكفر منهم، لابد من أن يكونوا على إحدى الحالين : إما عالمين بالله، وإما جاهلين به، فلاثالثة. فإذا قيل لهم : كيف تكفرون بالله؟ وقد

---

(١) السجدة ٢٢ (٢) ينظر البحر المحيط ٢٠٤/٧
(٣) الكهف ٥٧ (٤) مفتاح العلوم ١٧٥ (٥) البقرة ٢٨

علمت أن "كيف" للسؤال عن الحال، وللكفر مزيد اختصاص بالعلم بالصانع، وبالجهل به انساق إلى ذلك، فأفاد : أفى حال العلم بالله تكفرون، أم فى حال الجهل به؟ ثم إذا قيّد "كيف تكفرون بالله" والحال حال علم بهذه القصة، وهى أن كنتم أمواتا فصرتم أحياء، وسيكون كذا وكذا صيّر الكفر أبعد شىء عن العاقل، فصار وجوده مظنة التعجب" (١)

فالتعجب هنا وليد استبعاد وقوع الكفر ممن يعلم أن الله أحياه بعد موت، وسيميته ويحييه، وهى قرائن خروج الاستفهام عن حقيقته، وحين ينسب البلاغيون والنحاة التعجب الى كلمة الاستفهام، فإنما ذلك لأنه لايؤدى بغيرها، ودور القرائن هنا وفى كل تجوز الدلالة على خروج الكلمة عن حقيقتها، ولاترقى الى أن تكون هى مصدر المعنى المتجوز به.

---

(١) مفتاح العلوم ١٧٥

ثانيا : التجوز فى الترتيب

مما امتازت به "ثم" عن الواو، دلالتها على الترتيب، بحيث يقع المعطوف بها بعد المعطوف عليه. تلك حقيقة هذا الحرف كما أثبتها النحاة.

لكن كثيرا من النصوص فى فصيح لسان العرب وردت فيها "ثم" عاطفة مارتّبتُه التقدم فى الوجود، فاختلفت فى تفسيرها أقوال النحاة، وتصارعت حولها مذاهبهم. يقول المالقى : (واختلف الكوفيون والبصريون من النحويين : هل تعطى رتبة أو لاتعطى؟ فذهب الكوفيون إلى عدم الترتيب. واحتجوا بقول الشاعر :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم ساد قبل ذلك جدّه

والصحيح مذهب البصريين، بدليل استقراء كلام العرب، أنها لاتكون إلا مرتّبة، وما احتج به الكوفيون لاحُجَة فيه بوجهين : أحدهما أنه قد يحتمل أن يسود الوالدان بسيادة الولد، والجد بسيادة الوالد، وهذا موجود حسا، فلا يلزم أن تكون سيادة أحدهم قبل الآخر، والثانى أن تكون سيادة الجد قبل الوالد، والوالد قبل الولد، ولايعلم المتكلم بالإخبار السيادةَ، فيخبر على نحو ماعلم، لا على الأصل، وما احتمل لاحجة فيه) (١)

حاول المالقى إيجاد وجه للترتيب الوجودى بجعل منشأ السيادة من الولد، ثم سرت إلى الوالد، ومنه إلى الجد، كما قال ابن الرومى :

فكم أب علا بابن ذراشرف كما علت برسول الله عدنان

لكن يكدر على ذلك أمران : أولهما أن ذلك يخلُّ بكمال المدح، حيث يعرّى أصله من الشرف والسيادة بجعل الممدوح بداية المجد والسؤدد. وثانيهما : قوله " قبل ذلك" فإنها تدل على أن الجدّ قد سبق إلى هذه

---

(١) رصف المبانى ٢٥٠.

(١) رصف المبانى ٢٥٠.

السيادة. وبه رد المرادى على ابن عصفور حين حمل البيت على سبق الابن بالمجد، فقال : (وما ذكره ابن عصفور فى تأويل البيت لايساعد عليه قوله "قبل ذلك")(١) أما الوجه الثانى الذى ذكره المالقى فهو الذى اصطلح على تسميته بالترتيب فى الذكر، أو ترتيب الإخبار.

ومايمس البلاغة فى قضية الترتيب بثم، هو العدول عن حقيقة الترتيب إلى مجازه، وأسرار هذا التجوز.

وإذا كان المالقى يرى أن الداعى إلى المخالفة يتعلق بحال المتكلم الذى رتَّب كلامه فى البيت، وفقا لترتب المعانى فى ذهنه، حيث سبقت فى علمه سيادة الابن سيادة أبيه، وسيادة أبيه سيادة جده، فدل بهذا الترتيب على سبق العلم بالخبر، لا على سبق الخبر فى ذاته، فإن السهيلى ذهب إلى أن عكس الترتيب غرضه الاهتمام بالمقدَّم، فكأن المتكلم رتب المتعاطفات على حسب أهميتها، لا على وفق ترتيبها فى الوجود. مثلما قدم الله الإهلاك على مجىء الناس فى العطف بالفاء (٢) وهى مثل "ثم" فى دلالتها على الترتيب - فى قوله تعالى : **﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾**(٣)

وجعلها الرضى للتدرج والارتقاء، والبدء بما هو أخص، فقال : (وقد يجىء "ثم" لمجرد الترتيب فى الذكر، والتدرج فى درج الارتقاء، وذكر ماهو الأولى، ثم الأولى، من دون اعتبار التراخى، والبعد من تلك الدرج، ولا أن الثانى بعد الأول فى الزمان، بل ربما يكون قبله، كما فى قوله :

إن من ساد ثم ساد أبوه   ثم قد ساد قبل ذلك جده

فالمقصود ترتيب درجات معالى الممدوح، فابتدأ بسيادة نفسه، ثم بسيادة أبيه، ثم بسيادة جده، لأن سيادة نفسه به أخص، ثم سيادة الأب، ثم سيادة الجد، وإن كانت سيادة الأب مقدمة فى الزمان على سيادة نفسه) (٤)

---

(١) الجنى الدانى ٤٢٩   (٢) ينظر نتائج الفكر ٢٥٠.
(٣) الأعراف ٤   (٤) شرح الكافية ٢/٢٦٧

العدول عن ترتيب المخَبر به إلي ترتيب الأخبار

الترتيب فى الإخبار يعنى أن مرتبة الإخبار الثانى بعد مرتبة الأول[١] والزمخشرى يجعله تدرجا وارتقاء إلى ماهو أشد وأعظم، فهو ترتيب رتبى، يكون المعطوف فيه أعلى درجة من المعطوف، وتستعار فيه "ثم" من الدلالة على الترتيب فى الوجود إلى الترتيب فى الدرجة والمنزلة، وحينئذ لابد أن يكون الإخبار الثانى أعظم من الإخبار الأول.

من هذا ماجاء تبشيرا للمؤمنين بأن اليهود لن يظهروا عليهم فى حرب، وأن الخذلان حليفهم أبدا، فى قوله تعالى : **﴿لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لاينصرون﴾**[٢] فقد تضمن العطف فى قوله " ثم لاينصرون" مبالغتين : أولاهما دل عليها رفع الفعل "ينصرون" بدلا من جزمه عطفا على ماقبله، حتى لايكون عدم نصرهم مشروطا بمقاتلتهم. والثانية عطفه بثم دون الواو - وهو موقعها - لأن عدم نصرهم ليس متأخرا عما قبله. وفى ذلك إشعار بأن الإخبار بهذا الخذلان الدائم أعظم فى البشارة مما عطف عليه، فكان تأخيره ترقيا فى الإخبار، وتعظيما للبشارة الثانية، وهذا ما أفاده الزمخشرى (فإن قلت : هلاجزم المعطوف فى قوله "ثم لاينصرون"؟ قلت: عدل عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل : ثم أخبركم أنهم لاينصرون. فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه؟ قلت : لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان النصر وعدا مطلقا، كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها، وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون، منتف عنهم النصر والقوة، لاينهضون بعدها بجناح، ولايستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر عن حال قريظة، والنضير، وبنى قينقاع، ويهود خيبر. فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر؟ قلت : جملة الشرط والجزاء، كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم أنهم لاينصرون. فإن قلت : فما معنى التراخى فى ثم؟ قلت : التراخى فى المرتبة، لأن الإخبار بتسليط

---

(١) ينظر تقرير الشربينى على فيض الفتاح ٣٠٦/٢

(٢) آل عمران ١١١

الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم الأدبار) (١)

ويوضح ابن المنير هذا التراخي ونوع التجوز فيه تعليقا على ماجاء في الكشاف، فيقول : (وهذا من الترقي في الوعد عما هو أدنى إلى ماهو أعلى، لأنهم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقاتلة، ثم ترقى الوعد إلى ماهو أتم في النجاح معه من أن هؤلاء لاينصرون مطلقا، ويزيد هذا الترقي بدخول "ثم" دون الواو، فإنها تستعار هاهنا للتراخي في الرتبة، لا في الوجود، كأنه قال : ثم ها هنا ماهو أعلى في الامتنان، وأسمح في رتب الإحسان، وهو أن هؤلاء القوم لاينصرون البتّة) (٢)

الترتيب في الإخبار إذاً ضرب من التجوز في معنى الحرف، يستعار فيه التراخي في الزمن للتراخي في المراتب. وهو خاص بحرف المهلة، وبه يمتاز على الواو، ولذلك أوثر عليها هنا، وفيما أشبهه من النظم الكريم.

على أن القول بالترتيب في الذكر أو ترتيب الإخبار، ليس مما اخترعه الزمخشري، بل سبقه إليه النحاة والمفسرون وعللوا به كل موطن تخالف فيه "ثم" حقيقتها من الدلالة على الترتيب الوجودي، سواء أكان المعطوف سابقا للمعطوف عليه، أم واقعا معه في آن واحد. ففي قوله تعالى : **﴿هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾**(٣) تقدم خلق الأرض على خلق السموات، مع أن خلق السموات أسبق، على ماجاء في قوله تعالى: **﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها﴾**(٤) فقوله "بعد ذلك" صريح في تأخر خلق الأرض عن خلق السموات. فقال ابن عطية : (وقوله تعالى :"ثم استوى" ثم هنا هي لترتيب الأخبار، لا لترتيب الأمر في نفسه) (٥)

---

(١) الكشاف ٤٥٥/١ (٢) الإنصاف ٤٥٥/١ (٣) البقرة ٢٩

(٤) النازعات ٢٧ - ٣٠ (٥) المحرر الوجيز ١٦٠/١.

لكن الزمخشرى أضفى عليه جدة وطرافة، حين جعله ضربا من التجوز بالترتيب الزمانى عن الترتيب فى المنزلة، وكشف عن أسرار هذا التجوز فى مواقعه من النظم الحكيم، وأغراض العدول عن ترتيب المعانى المخبَر بها إلى ترتيب الإخبار بها. وإذا أردت أن تعرف الفرق فى المعالجة بين الزمخشرى ومن سبقوه، فقارن بين ماقاله ابن عطية فى الآية السابقة، وبين قول الزمخشرى : ("ثم" ههنا لما بين الخلقين من التفاوت، وفَضل خلق السموات على خلق الأرض، لا للتراخى فى الوقت) (١)

فتقديم السموات على الأصل من الترتيب الوجودى يضيع الغرض من الدلالة على الارتقاء فى الذكر من خلق عظيم إلى خلق هو أعظم منه، وهو السر الذى من أجله استعيرت ثم للتراخى الرتبى.

والغريب أن الرازى - وهو من رجالات البيان - وممن تابع الزمخشرى فى القول بدلالة "ثم" على التراخى فى المرتبة كما صرح به فى أكثر من موطن فى تفسيره (٢) نجده يقول فى عطف الاستواء بحرف المهلة ("ثم" ليس للترتيب ههنا، وإنما هو على جهة تعديد النعم. مثاله قول الرجل لغيره : أليس قد أعطيتك النعم العظيمة، ثم رفعت قدرك، ثم دفعت الخصوم عنك، ولعل بعض ما أخره فى الذكر قد تقدم، فكذا ههنا) (٣) فإن مثل هذا القول يجرد "ثم" من دلالتها على الترتيب، ويجعلها والواو سواء، ويعّرى إيثارها فى مثل هذا الموضع على الواو من الفائدة، ولو أن الرازى يقول بمثل ذلك فى كل موضع وقعت فيه لكان أعذر له. أما أن يجعلها للترتيب حينا، وينزع عنها هذه الدلالة حينا آخر، فمما لاعذر له فيه. وقديما نعى الإمام عبد القاهر على من يقول بإفادة التقديم حينا، وعدم إفادته حينا آخر، فقال : (واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر فى تقديم الشىء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدا فى بعض الكلام، وغير مفيد فى بعض، وأن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه، ولذلك

---

(١) الكشاف ٢٧١/١ (٢) ينظر تفسير الرازى ١٩٩/٦ (٣) السابق ١٧٠/٢

سجعه. ذاك لأن من البعيد أن يكون فى جملة النظم مايدل تارة ولايدل أخرى) (١) وهذا عين ماوقع فيه الرازى حين يوجب تقدم المعطوف عليه بثم فى موضع، ويجيز تأخيره فى موضع آخر.

وقد سبق ابن عطية إلى مثل هذا القول فى تعليل عطف الإفاضة الثانية بثم فى قوله تعالى : ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ (٢) قال ابن عطية : (المخاطب بهذه الآية قريش ومن ولدت من الحمس، وذلك أنهم كانوا يقولون : نحن قطين الله،فينبغى أن نعظم الحرم، ولانعظم شيئا من الحل، فسنّوا شق الثياب فى الطواف إلى غير ذلك، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة هو موقف إبراهيم لايخرجون من الحرم، ويقفون بجَمْع، ويفيضون منه، ويقف الناس بعرفة، فقيل لهم أن يفيضوا مع الجملة، و "ثم" ليست فى هذه الآية للترتيب، إنما هى لعطف جملة كلام على جملة منها منقطعة) (٣)

اندفع ابن عطية إلى سلب الترتيب من حرف العطف، لأن المعطوف عليه، وهو قوله عز وجل : "فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام" ليس مما يسبق المعطوف، بل هما إفاضة واحدة، خوطب بالأولى عامة الناس، وبالثانية قريش، فالترتيب الزمنى لامحل له، والقول بانقطاع الكلام قصد به أن "ثم" للاستئناف، وليست عاطفة لفعل على فعل، وإنما هى عاطفة لجملة كلام على جملة كلام آخر. ومثل هذا القول لايُقنع به أهل البيان، لأنه لايكشف عن سر العطف بحرف المهلة مع إمكان تأدية هذا العطف بالواو.

وفى جواب الزمخشرى يظهر سر المغايرة بين الإفاضتين، وسر إيثار حرف التراخى، لأن إيجاب المساواةبين قريش وعامة الناس، فى المكان الذى تبدأ به الإفاضة، أومأ إلى أن اختصاص قريش نفسها

---

(١) دلائل الإعجاز ١١٠. (٢) البقرة ١٩٨ - ١٩٩ (٣) المحرر الوجيز ١٥٩/٢

بالإفاضة من المزدلفة، دون عامة الناس الذين يفيضون من عرفات، ضرب من المخالفة فى النسك، فألمحت "ثم" إلى بعد مابين إفاضة صحيحة وأخرى باطلة. يقول الزمخشرى : (فإن قلت : كيف موقع "ثم"؟ قلت : نحو موقعها فى قولك : أحسن إلى الناس ثم لاتحسن إلى غير كريم، تأتى بثم لتفاوت مابين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره، وبعد مابينهما، فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات. قال "ثم أفيضوا" لتفاوت مابين الإفاضتين، وأن إحداهما صواب، والثانية خطأ)(١)

أصاب الزمخشرى هدفين بسهم واحد، فدل على نكتة العطف فيما يبدو كما لو كان من عطف الشىء على نفسه، وعلى إيثار "ثم" على الواو، فهو من عطف الخاص على العام أو من عطف المقيد على المطلق، والغرض من حرف التراخى الدلالة على التفاوت بين المتعاطفين، قياسا على قولك : أحسن إلى الناس ثم لاتحسن إلى غير كريم. وقد فصل ابن المنير ما أجمله الزمخشرى فقال : (وقد اشتملت الآية على نكتتين : إحداهما عطف الإفاضتين، إحداهما على الأخرى ومرجعهما واحد، وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشىء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهما من التغاير ما بين العام والخاص. والمخبر عنه أولا الإفاضة من حيث هى غير مقيدة، والمأمور به ثانيا : الإفاضة مخصوصةً بمساواة الناس، والثانيةبعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهلة، وذلك يستدعى التراخى مضافا إلى التغاير، وليس بين الإفاضة المطلقة والمقيدة تراخ، فالجواب غيرَ ذلك أن التراخى كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة، وبُعدها فى العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذى أجاب به بعد مزيد تنشيط وإيضاح) (٢)

غير أن قول الزمخشرى : " أن إحداهما صواب والثانية خطأ" يجعل قياس الآية على قولك : "أحسن إلى الناس ثم لاتحسن إلى غير كريم" قياسا غير صحيح، لأن الأول يتناقض فيه المعطوف مع المعطوف

---

(١) الكشاف ٣٤٩/١ (٢) الإنصاف ٣٤٩/١

عليه تناقض الصواب والخطأ،والثانى فيه تفاوت فى درجة الإحسان. ولعل الزمخشرى قصد التشابه فى التفاوت والبعد، وفى كونهما من عطف الخاص على العام، وفى التجوز بالترتيب الزمانى عن الترتيب الرتبى، وهى وجوه من المشابهة تكفى لصحة التشبيه، وليس المراد مطابقة المثال للآية. ولعلنى بذلك أدفع اعتراض أبى حيان فى قوله : (وليست الآية كالمثال الذى مثّله. وحاصل ماذكر أن "ثم" تسلب الترتيب، وأنها لمعنى غيره سماه بالتفاوت والبعد لما بعدها مما قبلها) (١)

والحق أن الزمخشرى لم يسلب "ثم" معناها من الترتيب، وإنما استعار دلالتها على الترتيب الوجودى للترتيب المعنوى.

ومما ثار حول الترتيب فيه جدل طويل، قوله تعالى : ﴿**وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون. ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون. وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه**﴾ (٢)

فإن إيتاء موسى الكتاب سابق على ماوصى الله تعالى به فى القرآن، فذهب البعض إلى أنه عطف على قوله فى نهاية قصة إبراهيم ﴿**ووهبنا له إسحاق ويعقوب**﴾ (٣) فكأنه من عطف القصة على القصة، ولكن الفاصل الطويل الذى يبلغ سبعين آية يضعف هذا القول. وقال آخرون : إن ثم بمعنى الواو لاتفيد ترتيبا، وقد استسقطنا مثل هذا القول من قبل، وقيل إنها للترتيب الإخبارى (٤). وقال الزجاج : (فأما دخول "ثم" فى قوله : "ثم آتينا" وقد علمنا أن ثم لايكون الذى بعدها أبدا معناه التقديم، وقد علمنا أن القرآن أنزل من بعد موسى، وبعد التوراة. فقال : "ثم آتينا موسى الكتاب" فإنما دخلت "ثم" فى العطف على التلاوة، والمعنى : ﴿قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم، أتل عليكم ألا تقتلوا أولادكم، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله، ثم أتلو ما

---

(١) البحر المحيط ٦٩/٢ (٢) الأنعام ١٥٣ - ١٥٥
(٣) الأنعام ٨٤ (٤) ينظر روح المعانى ٥٩/٨

أتاه الله موسى) (١)

وهو كما ترى لايعدو أن يكون بحثا عن وجه لصحة معنى الترتيب، ولايظهر وجه إيثار ثم فيما هو موضع الواو.

وقد جعل صاحب التحرير والتنوير ذكر إيتاء موسى الكتاب تمهيدا لذكر إنزال القرآن، فيكون مجموعهما أعظم درجة من المعطوف، وثم للترتيب الرتبى. قال ابن عاشور بعد أن ذكر أقوال السابقين : (والوجه عندى أن "ثم" مافارقت المعروف من إفادة التراخى الرتبى، وأن تراخى رتبة إيتاء موسى عليه السلام الكتاب عن تلاوة ماحرم الله فى القرآن، وما أمر به من ملازمة صراط الإسلام، إنما يظهر بعد النظر إلى المقصود من نظم الكلام، فإن المقصود من ذكر إيتاء موسى عليه السلام الكتاب ليس لذاته، بل هو التمهيد لقوله : "وهذا كتاب أنزلناه مبارك" ليرتب عليه قوله "أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا" إلى قوله " وهدى ورحمة" فمعنى الكلام : وفوق ذلك فهذا كتاب أنزلناه مبارك، جمع فيه ما أوتيه موسى عليه السلام، وهو أعظم ما أوتيه الأنبياء من قبله، وما فى القرآن الذى هو مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه) (٢)

وهذا الوجه مستمد من كلام الزمخشرى، وإن بدا من قوله "والوجه عندى" انه مما افترعه، وهو لايختلف فى مضمونه عما جاء فى الكشاف وإن اختلفا شكلا فى المعطوف عليه، فهو عند الزمخشرى "ذلكم وصاكم به" وعند ابن عاشور : "قل تعالوا" ومضمون مادُعوا إليه يستجمعه اسم الإشارة "ذلكم". وإليك نص الكشاف (فإن قلت :" كيف صح عطفه عليه بثم، والإيتاء قبل التوصية بدهر طويل؟ قلت : هذه التوصية قديمة، لم تزل توصاها كل أمة على لسان نبيهم، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : "محكمات لم ينسخهن شىء من جميع الكتب" فكأنه قيل : (ذلكم وصاكم به يابنى آدم قديما وحديثا، ثم أعظم من ذلك

---

(١) معانى القرآن وإعرابه ٢/٣٣٦ (٢) التحرير والتنوير ق ج٢ ١٧٥

أنا آتينا موسى الكتاب، وأنزلنا هذا الكتاب المبارك) (١)

والعَلَمُ فيما عكس فيه الترتيب إيماءً إلى تعظيم المؤخر قوله تعالى : **﴿فلا اقتحم العقبة. وما أدراك ما العقبة. فك رقبة. أو إطعام فى يوم ذى مسغبة. يتيما ذا مقربة. أو مسكينا ذا متربة. ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾** (٢)

فمن الثابت أن أعمال البرّ من عتق وصدقه وغيرهما لايدعى إليها إلا من آمن، فتقديمها على الإيمان، وعطفه عليها بحرف التراخى ضرب من التجوز فى الترتيب، قصد به الترقى من أعمال الجوارح الظاهرة إلى عمل القلوب وهو الإيمان، إشارة إلى أن الله لايعتد بعمل صالح مالم يكن باعثَه إيمان صادق، ونيّة تخلص هذا العمل لوجه الله الكريم. لذلك أبطل الله أعمال البر إذا ماقارنها الرياء، وجعلها كأعمال الكفار، الذين لايقبل الله منهم صرفا ولاعدلا، **﴿كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شىء مما كسبوا﴾** (٣). وهذا ماصرح به الزمخشرى كشفا عن سر مخالفة الظاهر فى الترتيب. فقال : (جاء بثم لتراخى الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة، لافى الوقت، لأن الإيمان هو السابق المقدّم على غيره، ولايثبت عمل صالح إلا به) (٤)

وللدكتورة بنت الشاطىء فى تقديم فك الرقبة والإطعام رأى، تنحو به منحى التركيز على المقدّم والاهتمام به، وبيان قوة أثره فى تحقق الإيمان، فإذا ماضعف الشعور بالأخوة الإنسانية، وانعدمت الدوافع النبيلة، لفك العانى وإطعام الجائع، فلا قيمة لهذا الإيمان، فبين المتعاطفين من التلازم مالاتصح معه المباعدة التى ترمز إلى التفاوت فى الدرجة. تقول بنت الشاطىء : (عَطْف الإيمان بثم على ماقبله يبيح

---

(١) الكشاف ٦٢/٢ (٢) البلد ١١ - ١٧

(٣) البقرة ٢٦٤ (٤) الكشاف ٢٥٧/٤

لنا أن نفهم أن تحقيق الكرامة الإنسانية بفك الرقبة، والعدالة الاجتماعية بإطعام يتيم ذى مقربة، أو مسكين ذى متربة، لازمان للإيمان ومابعده، من تواص بالصبر والمرحمة. الإنسان لايكون مؤمنا مالم يكن له من نفسه وازع يرده عن الطغيان، ويلزمه حده، فلايسترقُّ بشرا مثله، ولايتجاهل حق يتيم ومسكين. وأنَّى للإنسان أن يؤمن بوجود إله خالق قادر عليم، مالم يتحرر أولا من غرور جاهه وقوته وثرائه، ذلك الغرور الذى يعطل شعوره نحو أخيه الإنسان، ويجعله يحسب أن لم يره أحد، ولن يقدر عليه أحد، فالإيمان بالله نعمة لاتتاح لقساة القلوب، غلاظ الأكباد، عمى البصائر ألا يميزوا بين الخير والشر. كل هذا مما يعطيه سبق فك الرقبة والإطعام، على الإيمان الذى جاء معطوفا عليهما بلفظ "ثم". لكن المفسرين عطّلوا هذا الملحظ الجليل، بل عكسوا الوضع، فجعلوا "ثم" مقصودا بها إلى إبعاد الإيمان عن فك رقبة، وإطعام يتيم أو مسكين، فلا يكون الإيمان معهما فى مرتبة واحدة) (١)

ومع مايبدو فى هذا التفسير من وجاهة فى التعليل لتقدم المعطوف عليه، فإنه يتغاضى عن بيان السر فى إيثَار حرف المهلة، حيث كان العطف بالواو مؤديا إلى ماذَهَبْتْ إليه. وإغفالُ الفروق بين معانى الحروف يذهب بأسرار النظم.

ولعلى أرى عكس ماقالت، ذلك أن حرف التراخى بما أومأ إليه من التباعد الرتبى بين المتعاطفين، ينبه إلى وجوب أن تجرد هذه الأعمال من التظاهر، وابتغاء المجد والجاه بها، فإن وراءها مرتبة أعظم، حين يكون الإيمان هو الذى يشيع الفضائل النفسية، ويشكل السلوك والدوافع النبيلة، لذلك جعل التفاضل بالإيمان مقرونا بالتواصى بالصبر والرحمة، وهما من الفضائل النفسية التى يكون فك الرقبة والإطعام من آثارها. وهذا ما أحسن التعبير عنه صاحب الظلال حين قال : (فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام، وهو الذى يجعل للعمل الصالح وزنا فى ميزان الله، لأنه يصله بمنهاج ثابت

---

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم ١٨٨/١

مطرد، فلايكون الخير فلتة عارضة ترضيه، كمزاج متقلب، أو ابتغاء مَحْمَدة من البيئة أو مصلحة، وكأنما قال :(فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة، وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتوصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)(١)

ومن المواطن التى تبدو فيها مخالفة الأصل فى الترتيب، قوله تعالى : ﴿**إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون**﴾ (٢) ذلك أن خلق آدم كان بهذه الكلمة، وهى فى تصور العقل أسبق فى الوجود، لأن الخلق مترتب على أمر التكوين، وإن كانا فى الحقيقة يقعان فى آن، لأن أمر التكوين هو تعلق القدرة بتنجيز ماتعلقت به إرادته سبحانه، وعلى أية حال فليس الخلق بأسبق وجودا من الأمر بكَوْنه، فتعين أن يكون الترتيب مجازيا، إشارة إلى أن المعطوف أدل على قدرة الله، وأعظم مما عطف عليه، فإذا كان خلق آدم من تراب عظيما، فإن أعظم منه أن يوجد هذا الخلق العظيم بالكلمة، لا بالمعالجة والصناعة، وليس ثمة ضرورة إلى تكلف القول بأن "خَلَقَه" معناه : ابتدأ خلقه، لأن المقام مقام تعجيب وإظهار لكمال القدرة، فلا يناسبه تجزئة هذا الخلق، كما لايناسبه القول بأنه خلقه جسدا من طين، ثم نفخ فيه الروح فصار بشرا، لأن المشابهة بين عيسى وآدم فى تكوّنهما بهذه الكلمة، وإيجادهما بغير أب، وإن كان خلق آدم أغرب، لأنه وجد بغير أب وأم، فشبه الغريب بالأغرب، فالحديث عن هذا التطور يطعن فى تمام المشابهة. هذا فضلا عن أن خلقه جسدا من طين هو بأمر التكوين أيضا، فلماذا يخص تصويره بشرا بهذا الأمر ؟ لقد أصاب ابن عاشور فى بيان سر العطف والتجوز به حين قال : (و"ثم" للتراخى الرتبى، فإن تكوينه بأمر "كن" أرفع رتبة من خلقه من تراب، وهو أسبق فى الوجود. والتكوين المشار إليه بكن هو تكوينه على الصفة المقصودة، ولذلك لم يقل : كوّنه من تراب، ولم يقل : كونه من تراب ثم

---

(١) فى ظلال القرآن ٦/٣٩١٢ (٢) آل عمران ٥٩

أحياه، بل قال : "خلقه ثم قال له كن". وقول كن تعبير عن تعلق القدرة بتكوينه حيا ذا روح، ليعلم السامعون أن التكوين ليس بصنع يد، ولانحت بآلة، ولكنه بإرادة وتعلق قدرة، وتسخير الكائنات التى لها أثر فى تكوين المراد) (١).

وهذا ينسحب على العطف بثم فى قوله تعالى : **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾** (٢) حيث دلت "ثم" على أن خلق الله للإنسان فى هذه الصورة البديعة هو أعظم من الخلق ذاته، وهو مجال الامتنان بما ميّز الله الإنسان من حسن الهيئة والشكل، وإن اشترك مع الحيوان فى كونه مخلوقا، وكأن الله تعالى أراد أن يلفت الإنسان إلى عظيم نعمته فيما أبدع من صورته، وتلك نعمة ظاهرة فى الخلق، تقوده إلى نعم أخرى خفية، من كمال الإحساس، والقدرة على التمييز والتفكير والإبداع، ففى التصوير شرف الإنسان على سائر صور المخلوقين وإليه أومأ حرف المهلة. أما ماذهب إليه الأخفش من أن "ثم": هنابمعنى الواو(٣)، هربا من حقيقة أن التصوير لايتراخى عن الخلق، فهو مما يمحو خصائص الحروف، وتمايز دلالاتها، لذلك خطّأه الزجاج قائلا : (زعم الأخفش أن "ثم" ههنا فى معنى الواو، وهذا خطأ لايجيزه الخليل وسيبويه، وجميع من يوثق بعربيته. إنما ثُم للشىء الذى يكون بعد المذكور قبله لاغير، وإنما المعنى فى هذا الخطاب ذكر ابتداء خلق آدم، فإنما المعنى : إنا بدأنا خلق آدم ثم صورناه) (٤)

أحسن الزجاج فى رده ماقال الأخفش، لكنه لم ينفذ إلى سر العطف بهذا الحرف، وكان تأوّله الخلق بالبدء كلامَ نحاة يبحثون عن صحة المعنى فحسب، فإن التصريح بآدم فى أمر الملائكة بالسجود له بعد الخطاب العام، دليل على أن المخاطبين أوّلاً هم بنو آدم، ليطرد الخطاب فى هذه الآية مع الخطاب فى الآية قبلها : **﴿ولقد مكناكم فى**

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦٣/٣ (٢) الأعراف ١١

(٣) معانى القرآن للأخفش ٢٩٤/١ (٤) معانى القرآن وإعرابه ٣٥٤/٢

الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرن. ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ وليكون ذكر السجود لآدم تشريفا لهذا الجنس. و "ثم" فى الموضعين دلت على تفاوت صفات الخلق والتصوير والسجود، فالتصوير حالة كمال فى الخلق، وسجود الملائكة لآدم أعظم تكريم للإنسان، يفوق التكريم الحسى المتمثل فى جمال الخلق والتصوير.

وقد أبدع الطيبى فى كشفه عن سر العطف بثم فى قوله " ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم" فيما نقله الألوسى عنه : (يمكن أن تحمل "ثم" على التراخى فى الرتبة، لأن مقام الامتنان يقتضى أن يقال : إن كون أبيهم مسجود للملائكة أرفع درجة من خلقهم وتصويرهم. وفيه تلويح إلى شرف العلم، وتنبيه للمخاطبين على تحصيل مافاز به أبوهم من تلك الفضيلة، ومن ثم عقب فى البقرة الأمر بالسجود مسألة التحدى بالعلم)[١]

وبهذا تتناغم المتعاطفات متصعّدة فى درج الارتقاء، من الخلق إلى التصوير الذى هو إبراز للجمال المادى، ثم إلى السجود الرامز إلى الجمال المعنوى الذى به شرف الإنسان الحقيقى، وهو العلم، حثا على اكتساب مابه كان شرفه وغاية وجوده.

والعجيب أن الزمخشرى يفسر الخلق هنابخلق آدم طينا غير مصور[٢]، ليتسنى عطف التصوير بثم حملا على حقيقة معناها، فيجىء كلامه أشبه بكلام النحاة، ثم يحلق فى سماء البلاغة حين يعرض لقوله تعالى من سورة الزمر : **﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾**[٣] فيقول : (فإن قلت :ماوجه قوله " ثم جعل منها زوجها" ومايعطيه من التراخى؟ قلت : هما آيتان من جملة الآيات التى عددها دالا على وحدانيته، وقدرته تشعيبَ هذا الخلق الفائت للحصر. من نفس آدم، وخلق حواءمن قصيراه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرة، والأخرى لم تجر بها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل،

---

(١) روح المعانى ٨٦/٨ (٢) انظر الكشاف ٦٨/٢ (٣) الزمر ٦

فكانت أدخل فى كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى، للدلالة على مباينتها لها فضلا ومزيّة، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخى فى الحال والمنزلة، لا من التراخى فى الوجود) (١)

الدلالة على أن المعطوف أغرب وأعجب هى التى أشاعها حرف المهلة هنا، وهو من لطيف المعانى التى كثيرا ماينفرد بها جار الله، لكن ربما يعكر على هذا المعنى اللطيف، أن القرآن فيما أشبه هذا النظم من سورتى النساء والأعراف جاء العطف فيهما بالواو، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام**﴾ (٢) وقال فى الأعراف : ﴿**هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها**﴾ (٣)

فلماذا أوثر الحرف الدال على أن المعطوف أعجب وأغرب فى سورة الزمر دون ما أشبهه من النظم فى سورتى النساء والأعراف،

أجاب الغرناطى بقوله : (وأما الجواب عن السؤال الثالث، وهو زيادة "ثم" فى سورة الزمر، فلما قصد من الامتنان والإنعام على هذا الجنس الآدمى، ولتفاوت مابين الآيتين العجيبتين، من خلق الصنف الإنسانى من شخص واحد، وخلق زوجه منه، فجىء بثم المنبهة على معنى الاعتناء بذكر ماعطف بها، والتأكيد لشأنه، للمزية على المعطوف عليه، القائمة مقام التراخى فى الزمان) (٤)

والحق أننى لا أجد فى هذا التعليل مقنعا، فمقام الامتنان والإنعام بالواو ألصق، لأن الغرض منه هو تعديد النعم، لا إبراز التفاوت بينها، والتعديد أثير الواو من بين حروف العطف، أما إبراز التفاوت،

---

(١) الكشاف ٣٨٨/٢ (٢) النساء ١

(٣) الأعراف ١٨٩ (٤) ملاك التأويل ١٨٨/١

والترقى من خلق غريب إلى خلق آخر أشد غرابة، فذلك مقام الإدلال بالقدرة والإبداع فى الصنع، توصلا إلى الإقرار بعظمة الصانع الحكيم.
وذلك ماتنفرد به ثم، وهو الذى استوجبه السياق فى موقعها من سورة الزمر، ردا على من ادعوا لله شريكا، ونسبوا إليه الولد، فساق الله تعالى لهم من عجائب الصنع، ودلائل القدرة مايشهد بتفرده وعدم احتياجه إلى مانسب إليه. تأمل هذا السياق اللافح ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار. خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار. خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون﴾ (١)

" إن هذا السياق الهادر يبدو وكأنه يصب فى آذان المفترين العذاب صبا. ألا ترى إلى هذه التعبيرات : "هو الله الواحد القهار" " ألا هو العزيز الغفار" "ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون" وكيف تتساقط كلماتها وحروفها تساقط السياط الملهبة لظهور المفترين؟ ثم تأمل استدلاله على وحدانيته وغناه عما نسبوه إليه من الشريك والولد، كيف يسوق فيه من الآيات أعجبها، وأدلها على القدرة، من مثل : "يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل" :وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج" مؤثرا التجوز بالمسبٌب عن السبب فى وضع الأنعام موضع الماء، ليشيع جوا من الغرابة، ويثير العقول والمشاعر بما يخرجها عما ألفته من الارتباط العادى بين الماء والنبات والأنعام، إلى إنزال الأنعام، وكأنه يجذب العقول بعنف، ويدفعها إلى إعادة النظر فى أسرار الخلق. وهذا الكشف عن عجائب الخلق فى الأرحام "يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث".

---

(١) الزمر ٤ - ٦

هذه العجائب من خلق الله الناطقة بعظيم الصنعة والقدرة يتناغم معها حرف المهلة، بدلالته على التفاوت بين نوع من الخلق عظيم، هو إيجاد البشر من نفس واحدة، وبين خلق أعجب وأغرب لبعده عما جرت به العادة من تناسل الناس وتكاثرهم، وهو خلق حواء من ضلع مَن خُلِقَ من تراب. وذلك ماتفردت به آية الزمر، واستحقت حرف المهلة، بخلافها فى الآيتين الأخريين، حيث كان الغرض فى آية النساء حث المخاطبين على التواصل والتواصى بصلة الأرحام، وإشاعة روح المودة بين يدى تشريع المواريث، حتى يقتلع من النفوس ماجبلت عليه من الأَثَرَة وحب المال، مما يكون سببا فى تقطيع الأرحام، والجور على ماشرعه الله لهم من حقوق، فكان قوله : "خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء" تذكيرا لهم بهذه الأرحام التى تجمعهم، وصلات القربى التى تؤلف بينهم. وذلك بحاجة إلى حرف يقرّب، لاحرف يباعد.

وفى سورة الأعراف كان الغرض من العطف بيان نعمة التكاثر إبقاء على الجنس، والتى هيأ لها بما أودعه فى نفس الإنسان من ميل فطرى بين النوعين، ليكون التناسل إرادة إلهية قادرة، يندفع إليها الإنسان بحكم غريزته وسكن الرجل إلى زوجه، وذلك فى معرض حكاية نشأة الخلق. ومثل هذا المقام الذى يبرز التقارب وشدة الائتلاف، ينافيه "ثم" بدلالتها على التفاوت والبعد.

التقارض بين حرفي المهلة والجمع

مما التبس فيه موضع الواو بثم قوله تعالى :﴿**وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على مايفعلون**﴾(١) لما كانت شهادة الله على أفعال المشركين سابقة لرجوعهم إليه. اندفع بعض النحاة واللغويين إلى القول بأن ثم فى هذه الآية بمعنى واو العطف، على ماصرح به الثعالبى فى فصل عقده لوقوع

---

(١) يونس ٤٦

بعض حروف المعانى موقع بعض [١]. وتأول الزمخشرى والرضى وغيرهما الشهادة بالمجازاة على سبيل التجوز بالسبب عن المسبب. يقول الرضى : (وأماقوله تعالى : "فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد" أى ثم يجازيهم بما عملوا، لأنه كان شهيدا على مايعملون، فأقام العلة مقام المعلول) [٢]

وظاهر كلام الزمخشرى أن التراخى هنا حقيقى [٣]، وهو ماصرح به السعد فى حاشيته على الكشاف حيث قال : (فإنه لايستقيم معناه الظاهر، وهو كون شهادة الله على أفعالهم مترتبة على رجوعهم إليه، وإنما لم يحمله على التراخى فى الرتبة، بمعنى أن هذه أعلى رتبة من ذلك، لقلة الربط فى ذلك وكماله فيما ذُكِر، ولا خفاء فى أن التراخى فيما اختار من الوجهين على ظاهره، ليس فى أولهما ترتبى، لظهور أن عقابهم إنما هو بعد رجوعهم إليه) [٤].

وأرى - والله أعلم - أن حملها على المجاز باستعارة معناها للترتيب الرتبى أليق بمقام التهديد، وذلك لأن قوله "فإلينا مرجعهم" وعيد بأنه سيأخذهم بسوء فعالهم، وتقديم المجرور المفيد للاختصاص تشديد فى هذا الوعيد على ماصرح به الزمخشرى فى قوله تعالى **﴿إن إلينا إيابهم﴾** [٥] فقال هناك : (فإن قلت : مامعنى تقديم الظرف؟ قلت : معناه التشديد فى الوعيد، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام) [٦] وجاء قوله (ثم الله شهيد على مايفعلون) بلوغا بالتهديد إلى الغاية فى الإحاطة بكل أفعالهم، ومجازاتهم عليها، لأنه يشاهدها ويحصيها، كما جاء قوله **﴿ثم إن علينا حسابهم﴾** تصعيدا فى التهديد، بعد قوله "إن إلينا إيابهم" حيث قال ابن المنير فيه : (ومعنى "ثم" الدلالة على أن الحساب أشد من الإياب، لأنه موجب العذاب وبادرته) [٧] وإذا كان الزمخشرى وغيره يفسرون الشهادة بالمجازاة، وهى لاشك أشد

---

(١)ينظر فقه اللغة وسر العربية ٣٥٦ (٢) شرح الكافية ٣٦٧/٢

(٣) ينظر الكشاف ٢٣٩/٢. (٤) حاشية السعد ٥٥٢/٢ (٥) الغاشية ٢٥

(٦) الكشاف ٢٤٨/٤ (٧) الإنصاف ٢٤٨/٤

من المحاسبة التى هى بوادر العذاب فلم لم يقولوا هناك ماقيل هنا من الترقى فى التهديد ؟!

ومما عدل فيه عن الواو إلى "ثم" قوله تعالى فى ختام قصة نوح عليه السلام : **﴿قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين. قال رب إن قومى كذبون. فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين. فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون. ثم أغرقنا بعد الباقين﴾**(١) فالإغراق أسبق من إنجاء موسى ومن آمن به، لأن تمام النجاة باستواء السفينة على الجودى، بعد ابتلاع الأرض ماءها وإقلاع السماء عن صب جام غضبها، كما صورته سورة هود : **﴿وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين. قال ساوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى﴾** (٢) فدل قوله "فكان من المغرقين" على سبق غرق ابن نوح مع المغرقين قبل استواء السفينة ونجاة من فيها. فإن لم تكن النجاة متأخرة عن الإغراق، فلا أقل من أن تكون مقارنة له، وهو موضع الواو على أية حال، والدليل على ذلك وقوعها فى قوله عز وجل **﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين﴾** (٣). لذلك قال الشهاب : إن ثم هنا للتفاوت الرتبى (٤)، لكنه لم يكشف عن وجه التفاوت، ولا عن سر وقوع "ثم" هنا، والواو هنالك. والمعروف أنهم حين يقولون بالتفاوت الرتبى، فإنهم يقصدون أن المعطوف أرفع درجة من المعطوف عليه. فهل إغراق قوم نوح أعظم من إنجاء موسى؟ أقول نعم. إنه أعظم فى تحقيق الغرض الذى سيقت من أجله القصة، وهو بث نذر الهلاك والوعيد فى نفوس

---

(١) الشعراء ١١٦ - ١٢٠. (٢) هود ٤٢ - ٤٤

(٣) الأعراف ٦٤ (٤) حاشية الشهاب ٢٢/٧

المكذبين من المشركين، والتعريض بأنه ينتظرهم من العذاب مثلما وقع بأسلافهم من الكافرين. ثم إن إغراق أمة بأكملها دون أن ينجو منها أحد غيرَ مَن وعد الله بنجاته من المؤمنين، أدل على سوط القدرة، وأقوى أثرا فى العقل والعادة من إنجاء فئة قليلة من الناس.

أما اختصاص هذه السورة بحرف المهلة، دون ماجاء فى سورة الأعراف، فلأن السياق هنا فيه مبالغة من المكذبين فى تحدى نوح عليه السلام، وهو قولهم "لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين" فقوبلت هذه المبالغة فى التحدى بالمبالغة فى إهلاكهم بخلافها هناك، فإنه عَقَّب تكذيبهم بإنجائه وإغراقهم، دون أن نجد للمكذبين حديثا.

وهذا هو أيضا السر فى العدول عن الواو إلى "ثم" فى قصة موسى مع فرعون. فقد عطف الإغراق على الإنجاء بالواو، فى قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ (١) وعطف بحرف التراخى فى قوله تعالى من سورة الشعراء : ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثَمَّ الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين﴾ (٢) فكان للترتيب الرتبى دلالته على أن نعمة الإغراق كانت أعظم بعد هذا التحدى من فرعون الذى بلغ ذروته حين تعقب موسى ومن معه، وصار منهم قاب قوسين أو أدنى، مما ملأ قلوب أتباع موسى رعبا، كما ينطق به السياق ﴿فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون. وإنا لجميع حاذرون. فأخرجناهم من جنات وعيون. وكنوز ومقام كريم. كذلك وأورثناها بنى اسرائيل . فأتبعوهم مشرقين. فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾(٣). فكان الإغراق بعد هذا التحدى والإرهاب، أعظم النعم على بنى إسرائيل. فلما لم يظهر لفرعون وقومه أثر فى سورة البقرة، وكان الغرض تعديد النعم

---

(١) البقرة ٤٩ (٢) الشعراء ٦٣ - ٦٥ (٣) الشعراء ٥٢ - ٦١

وقعت الواو موقعها الذى لايصلح فيه غيرها، كما وقعت ثم موقعها الذى أبرزت فيه هول الإغراق وجلال القدرة فى إهلاك هذه الجموع بعد أن كادت تطبق على قوم موسى حتى قال أصحابه "إنا لمدركون".

وانظر إلى هذه المباعدة وماتبعها من المبالغة فى التجريم حين اقترضت "ثم" موضع الواو فى قوله تعالى : **﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد﴾** (١)، وكيف التقت المباعدة فى حرف المهلة، مع المباعدة فى الضلال التى عبر عنها قوله " فى شقاق بعيد" ؟!

قارن ذلك بقوله تعالى فى مجال تعديد الجرائم على المشركين فيما اشتبه نظمه بهذه الآية : **﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن اله لايهدى القوم الظالمين﴾**(٢)

تأمل موقع الواو فى قوله "وكفرتم وشهد شاهد" وقوله "فآمن واستكبرتم" حيث لم يقل ثم كفرتم - ثم استكبرتم، لأن الغرض هو تعديد الجرائم وليس المباعدة بين المتعاطفين، كما هو الشأن فى آية فصلت. حيث أزاحتها "ثم" هناك، لإبراز إغراق المكذبين بالقرآن فى الضلال، بعد أن فنّد أوهامهم وافتراءاتهم فى قوله عز وجل : **﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز. لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم. ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء. والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك فى ضلال بعيد﴾** (٣)فقابل بحرف البعد إبعادَهم فى التكذيب والضلال، على ماصرح به فى تذييل الآيات "أولئك فى ضلال بعيد " "فى شقاق بعيد" فكان ذلك ضربا من الإعجاز

---

(١) فصلت ٥٢ (٢) الأحقاف ١٠ (٣) فصلت ٤١ - ٤٤

فى الملاءمة بين الألفاظ ومعانيها.

قال الغرناطى فى بيان المغايرة بين الموضعين بحرفى المهلة والجمع : ("ثم" للترتيب الزمانى واقتضاء المهلة فيه. وتأتى أيضا لبيان مايعطف بها، وأن له موقعا وخطرا وبه اعتناء. وقد مر بيان ذلك، وإن تفاوتت الرتب كتفاوت الزمان. ولاتوقف فى أن كفرهم بالقرآن، بعد علمهم أنه من عند الله كما هو، وكما قد علم من سعد بالإيمان، وإن كذبوا هم فلاشك أن ذلك مرتكب شنيع، وضلال بعيد. فجىء هنا بثم لتحرز عظيم اجترائهم، وشنيع مرتكبهم، فجاءت على مايجب.

ولما قصد فى آية الأحقاف زيادة شهادة عليهم بتصديق من تقرر عندهم علم الكتاب المنزل قبل كتابنا ممن يُعْرف علمه، فشهد بما عنده من العلم أن هذا الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو من عند الله، وكان ذلك أبين فى الحجة عليهم لم يرد بثم، لاقتضائها مهلة لم تقصد هنا)(١)

---

(١) ملاك التأويل ٨٤٦/٢

ثالثا : التجوز فى التراخى

الفرق بين التجوز في الترتيب، والتجوز في التراخي

التراخى معنى من معانى "ثم"، وبه امتازت عن شقيقتها الفاء، ويقصد به تخلل الزمن بين المتعاطفين. فإذا ماقامت قرينة على عدم إرادة المهلة الزمنية تأولها رجالات البيان ببعد المراتب والأحوال. وقد التبس هذا التراخى الرتبى بالترتيب الرتبى فى كلام المفسرين ورجالات البيان، وأطلقوهما إطلاقا واحدا فى كل موطن عكس فيه الترتيب، أو تعذرت المهلة بين المتعاطفين. وإليك مثلا من هذا الالتباس. ففى قوله تعالى : ﴿**ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون. ثم آتينا موسى الكتاب**﴾[1] وهو مثل واضح لعكس الترتيب يقول الشيخ ابن عاشور : ("ثم" هاهنا عاطفة على جملة "قل تعالوا". فليست عاطفة للمفردات، فلايتوهم أنها لتراخى الزمان، بل تنسلخ عنه حين تعطف الجمل، فتدل على التراخى فى الرتبة، وهو مهلة مجازية) [2] فعبر بالتراخى الرتبى بدلا من الترتيب الرتبى.

وفى قوله تعالى : ﴿**قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون**﴾[3] والترتيب فيه على حقيقته، لتقدم الإنجاء على الإشراك، يقول : (و"ثم" من قوله "ثم أنتم تشركون" للترتيب الرتبى، لأن المقصود أن اشراكهم مع اعترافهم بأنهم لايلجأون إلا إلى الله فى الشدائد أمر عجيب، فليس المقصود المهلة) [4] فيطلق الترتيب الرتبى على ماهو تراخ فى الرتبة، إذ الدافع إلى حمل ثم على التجوز هو عدم إرادة المهلة الزمنية، مع صحة الترتيب الحقيقى. وهو فى نهاية العبارة يقول : "فليس المقصود المهلة الحقيقية". وهذا تعليل للتجوز فى التراخى لا فى الترتيب.

---

(١) الأنعام ٥٣ - ٥٤

(٢) التحرير والتنوير ج٨ ق ١٧٥/١

(٣) الأنعام ٦٤

(٤) التحرير والتنوير ٢٨٣/٧

والفصل بين الضربين : أن الترتيب الرتبى نوع من التجوز باستعارة "ثم" الدالة على الترتيب الزمنى لمعنى التدرج فى المراتب. ويكون فيما تقطع القرائن بأن المعطوف يسبق المعطوف عليه فى الوجود، أو يواكبه فى الوقوع، فيؤول الترتيب بالتدرج والارتقاء فى المنزلة ويكون القصد من تأخير ماحقه التقديم الإشارة إلى علو منزلته. وبذلك نُبقى على معنى الترتيب فى "ثم" ولكنه ترتيب معنوى لاحسى .

أما التراخى الرتبى فهو ضرب آخر من التجوز كذلك، يستعار فيه التراخى فى الزمان للتراخى فى الرتبة، وهو يومىء إلى التفاوت والبعد بين منزلة المعطوف ومنزلة ماعطف عليه. ويكون فيما يدل السياق على عدم إرادة المهلة الحقيقية. فهناك يستعار الترتّب الوجودى لترتب المنازل، إيماء إلى أن المعطوف أرفع درجة من المعطوف عليه. وهنا يستعار البعد الزمانى للبعد بين المنزلتين، والتفاوت الشديد بينهما، فالفرق بين الترقى والتفاوت هو الفرق بين الترتيب الرتبى والتراخى الرتبى. ففى الأول ترقٍّ من أمر غريب أو عظيم إلى ماهو أغرب أو أعظم. وفى الثانى يومىء البعد الزمنى إلى عظم التفاوت بين المتعاطفين. فهو مقارنة بين أدنى الدرجات وأبعدها. والمثال على ذلك قوله تعالى : ﴿**ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**﴾(١) فإن "إذا" بدلالتها على المفاجأة قرينة على عدم إرادة المهلة الحقيقية بين الخلق من تراب، وصيرورتهم بشرا يملأون الأرض حركة وحياة، فكان لابد من تأويل التراخى بالتفاوت الرتبى. وهو مارجحه أصحاب الأذواق من أهل البيان. قال الألوسى : (وقال العلامة الطيبى : إنها للتراخى الرتبى، لأن المفاجأة تأبى الحقيقى. ورد بأنه لامانع من أن يفاجىء أحدا أمرٌ بعد مضى مدة من أمر آخر، أو أحدهما حقيقى والآخر عرفى. وتُعُقّب بأنه على تسليم صحته يأباه الذوق، فإنه كالجمع بين الضبّ والنون. فما ذكره الطيبى أنسَب بالنظم القرآنى) (٢) والتراخى الرتبى هنا يومىء إلى بعد مابين التراب الذى

---

(١) الروم ٢٠ (٢) روح المعانى ٢١/٣٠

هو منشأ الخلق، وهو مادة ميتة، لاصلة لها بهذا الإنسان الذى يجرى الدم فى عروقه، ويملأ الأرض حياة وحركة، فما أبعد البشر فى صورهم وهم ينتشرون فى الكون، من هذا التراب الجامد الذى يطأونه بأقدامهم. فالغرض من التراخى هو إبراز التفاوت، وبعدما بين الخلقين.

أما الترتيب الرتبى فإن الغرض فيه الدلالة على أن الثانى أعظم درجة من الأول، كما تراه فى قوله تعالى : **﴿هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده﴾** (١) فقد عطف "قضى أجلا" على "خلقكم من طين" والترتيب بينهما ليس حقيقيا، لأن قضاء الأجل أسبق من الخلق، ولذلك جعله المفسرون ترتيبا ذكريا أو إخباريا (٢)، وهو استعارة للترتيب فى المنازل، لأن قضاء الأجل فى مجال التهديد أشد وأعظم، لما فيه من التعريض بالحساب والعقاب. فهو تدرج وارتقاء، لاإبرازٌ للتفاوت.

أسرار التراخى الرتبى

لخص صاحب البرهان الأغراض البلاغية للخروج من تباعد الزمن إلى التباين فى الأحوال والصفات بقوله : (والحاصل أنها للتراخى فى الزمان، وهو المعبر عنه بالمهلة، وتكون للتباين فى الصفات وغيرها، من غير قصد مهلة زمانية، بل ليعلم موقع مايعطف بها وحاله، وأنه لو انفرد لكان كافيا فيما قصد فيه، ولم يقصد فى هذا ترتيب زمانى، بل تعظيم الحال فيما عطف عليه، وتوقعه، وتحريك النفوس لاعتباره). (٣)

هذا كلام دقيق فى توجيه الغرض من التجوز بالمهلة عن تعظيم حال المعطوف بها، وتركيز الاهتمام عليه لإدراك مافيه من الزيادة فى الفضل أو الشدة، واستقلاله بتحقيق الغرض من الكلام.

---

(١) الأنعام ٢ (٢) ينظر حاشية الشهاب ١٣/٤، وروح المعانى ٨٧/٧.

(٣) البرهان فى علوم القرآن ٢٦٨/٤

التفاوت في الفضل

والزمخشرى .. وهو رائد القول بالتراخى الرتبى تجوزا ببعد الزمان عن البعد فى الحال والمنزلة، يذهب دائما إلى الترقى، بحيث يكون المعطوف أعلى درجة فى الفضل أو الشدة، وذلك معنى اختَصَّ به حرف التراخى، بخلاف الفاء فإنه أجاز فيها أن يكون المعطوف أعلى درجة على سبيل الترقى، أو أدنى درجة فيكون تقديم اللفظ دليلا على التقدم فى الشرف والرتبة وقد فصلنا ذلك فى حديثنا عن الفاء.

ولعل السر فى ذلك أن الفاء تستعار للترتيب الرتبى فحسب، والترتيب لايستوجب البدء بالأدنى، بل الأكثر أن يقدم الأشرف اعتناء به، ليومىء بتقدم اللفظ إلى التقدم فى الفضل، ومن ثم استعيرت الفاء للترتيب المعنوى بنوعيه.

أما ثم فإن الترتيب يقترن فيها بالتراخى، والتراخى فسحة فى الزمن تتيح للمتأخر فرصة الإفادة من المتقدم والبناء عليه، فهى بالترقى والتصعد أحق وأجدر. وذلك ماتؤيده النصوص القرآنية، وتشى به أغراضها، وهو الذى جعل الزمخشرى يقول به أبدا فى كل مواقع التجوز بحرف المهلة.

وأمّا ماذهب إليه صاحب الإنصاف من أن علو درجة المعطوف أمر أغلبى لا كلى، معترضا على صاحب الكشاف فانه لم يَسْلَم له ما اعترض به. وذلك عند قوله تعالى : **﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾**[١] قال الزمخشرى : (وإنما عطف على قيام السموات والأرض بثم، بيانا لعظيم مايكون من ذلك الأمر، واقتداره على مثله، وهو أن يقول : يا أهل القبور قوموا، فلاتبق نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر) [٢].

إن تعظيم المعطوف مراعى فيه المخاطبون من المشركين الذين استبعدوا البعث وأنكروه، فردّ عليهم فى الآيات السابقة بقوله : **﴿الله**

---

(١) الروم ٢٥ (٢) الكشاف ٣/ ٢٢٠.

يبدأ الخلق ثمّ يعيده ثم إليه ترجعون﴾ (١) وضرب لهم أمثلة للحياة بعد الموت فيما يشاهدونه، ويتكرر على أعينهم **﴿يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾**(٢) فشبه بعثهم وإخراجهم من قبورهم بما يرونه من صور الأحياء (فى كل لحظة يخرج حى من ميت، ويخرج ميت من حى، وفى كل لحظة يتحرك بُرْعم ساكن من جوف حبة أو نواة فيفلقها، ويخرج إلى وجه الحياة، وفى كل لحظة يجف عود أو شجرة تستوفى أجلها، فتتحول إلى هشيم أو حطام، ومن خلال الهشيم والحطام توجد الحبة الجديدة الساكنة المتهيئة للحياة والإنبات، ويوجد الغاز الذى ينطلق فى الجو أو تتغذى به التربة، وتستعد للإخصاب، وفى كل لحظة تدبّ الحياة فى جنين، إنسان أو حيوان أو طائر، والحبة التى ترمى فى الأرض، وتختلط بالتربة، وتشحنها بالغازات هى مادة جديدة للحياة، وغذاء جديد للنبات) (٣)

هؤلاء الذين استبعدوا البعث كيف إذا أُخبروا بأن الله يبعثهم بالكلمة، ولا يستغرق زمن بعث الأولين والآخرين أكثر من دعوتهم للقيام؟ إن قيام السموات والأرض بأمر الله يجرى مجرى العادة المتكررة على الحس، أما ما أخبر به عن كيفية البعث فهو غريب عجيب. فهذا التعظيم للمعطوف مراعى فيه حال المخاطب، وكون البعث يتم بأمر التكوين لا بالمعالجة، لذلك لم يقل "ثم تخرجون"، وإنما قال "ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون" فإذا كان البعث أمرا عظيما فى ذاته فإن كونه بهذه الكيفية أعظم وأعجب. وقد لفت الزمخشرى النظر إلى اختلاف المواقع والأغراض، وماتقتضيه من تهوين الأشياء أو تهويلها (فإن قلت : مابال الإعادة استعظمت فى قوله "ثم إذا دعاكم دعوة" حتى كأنها فضلت على قيام السموات والأرض بأمره، ثم هونت بعد ذلك؟ قلت : الإعادة فى نفسها عظيمة، ولكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء) (٤)

---

(١) الروم ١١ (٢) الروم ١٩ (٣) فى ظلال القرآن ٢٧٦٢/٥ (٤) الكشاف ٢٢٠/٣.

لكن ابن المنير لم يقنعه جواب الزمخشرى، ولم يسلم بأن الإعادة أفضل من قيام السموات والأرض بأمر ربها، فقال : (والمخلص - والله أعلم - جعل "ثم" على بابها لتراخى الزمان، لا لتراخى المراتب، وإن سلم أنها لتراخى المراتب، فعلى أن تكون مرتبة المعطوف عليه العليا، ومرتبة المعطوف هى الدنيا، وذلك نادر فى مجيئها لتراخى المراتب، فإن المعطوف حينئذ فى أكثر المواضع أرفع درجة من المعطوف عليه) (١)

لقد كان الزمخشرى أكثر نفاذا إلى أغوار النص، وأرهف أذنا فى إصغائه لهمس السياق، فى حين وقف ابن المنير يوازن بين خلق السماء والأرض، وبين بعث الموتى أيهما أعظم. دون التفات إلى أغراض النظم ودواعيه. وقد أجاد الشهاب فى رده عليه، فقال : (والمراد عظمه فى نفسه، وبالنسبة إلى المعطوف عليه، وكونه أعظم من قيام السماء والأرض، لأنه المقصود من الإيجاد والإنشاء، وبه استقرار السعداء والأشقياء فى الدرجات والدركات، وهو المقصود من خلق الأرض والسموات، فاندفع اعتراض صاحب الانتصاف بأنه - على تسليمه - مرتبة المعطوف عليه هنا هى العليا، مع أن كون المعطوف فى مثله أرفع درجة أكثرىِ لاكلى، كما صرح به الطيبى هنا، فلا امتناع فيما منعه، وهى فائدة نفيسة) (٢)

ومما دل فيه التراخى على التفاوت فى الفضل قوله تعالى : **﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا﴾** (٣)

قلت : إن "ثم" أداة رقيقة هامسة، تنساب معها المعانى إلى النفس فى لطف، وتحرك الزمن فى هدوء، وهذا معنى يصاحبها فى حقيقتها ومجازها. والتعبير هنا (يرسم مشهد الظل، ويد الله الخفية التدبير، تمده فى رفق، وتقبضه فى لطف "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل" "ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا" . والظل هو ماتلقيه الأجرام من الظلمة

١٠

(١) الإنصاف ٢١٩/٣ (٢) حاشية الشهاب ١٩/٧ (٣) الفرقان ٤٥ - ٤٦

الخفيفة حين تحجب أشعة الشمس فى النهار، وهو يتحرك مع حركة الأرض فى مواجهة الشمس، فتتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله. والشمس تدل عليه بضوئها وحرارتها، وتميز مساحته وامتداده وارتداده، ومتابعةُ خطوات الظل فى مده وانقباضه يشيع فى النفس نداوة وراحة، كما يشيع فيها يقظة لطيفة شفيفة) (١)

إنك لاتشعر بالظل وهو يفيض ببطء، ولاتحس به وهو ينحسر، وإنما يتخلل إليك وعنك فى رفق ولطف، وهذا مايناسب حرف المهلة بما فيه من مطل الزمن، لكن هذا لاينسيك أن جعل ضوء الشمس دليلا عليه لايتراخى عن مد الظل، بل هو مصاحب له، فلا يظهر الظل ولاحركته إلا بضوء الشمس، فالمهلة مستعارة لإبراز فضل الشمس، وأثرها العظيم على الحياة والأحياء، فإذا كان الظل نعمة عظيمة فإن نعمة الضوء والحرارة فى الشمس أعظم، ولولا الشمس لتحول الكون ظلاما دامسا لايرى فيه للظل أثر. أما فضل القبض على المد المعطوف بثم، فإنه مرتبط بالوصف "قبضا يسيرا" (وفى هذا القبض اليسير شيئا بعد شىء من المنافع مالايعد ولايحصر، ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا) (٢)

ومن روائع أمثلة التراخى الرتبى فى الذكر الحكيم، قوله تعالى : **﴿والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين﴾** (٣)

فقد كان الظاهر أن يعطف ذكر النعمة بالفاء، لأن ذكر النعمة ضرب من الشكر، فيجب أن يعقب حدوث النعمة والانتفاع بها، كما تقول : أعطيته فشكر، ولاتقول : أعطيته ثم شكر، لكن العدول إلى حرف التراخى هنا وراءه نكتة لطيفة، هى الإيماء إلى أن شكر النعمة

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٥٦٩/٥ (٢) الكشاف ٩٤/٣ (٣) الزخرف ١٢ - ١٣

عند الله أعظم من النعمة نفسها، لذلك يثيب الله الشاكرين على شكرهم لنعمائه **﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾** (١) مع أن أعظم الناس شكرا لربه لايستطيع أن يوفيه حق نعمة واحدة من نعمه، لكن الله بكرمه وفضله يعده من الشاكر إحسانا، ويكافئه عليه مكافأة المحسنين. فكان العطف بثم فى قوله "ثم اذكروا نعمة ربكم" تعظيما لأجر الذاكرين، ولهذا أوثر الذكر على الحمد والشكر، لأن الذكر عمل قلبى، وهو الذى يحرك الألسنة حتى تلهج بالثناء والشكر للمنعم. ففيه جمع بين الذكر بالقلب واللسان. وهذا المغنى للتراخى الرتبى هنا لم أجد أحدا أشار إليه.

التفاوت في الشدة

قال عز وجل : **﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون﴾** (٢). التراخى الزمنى بين عدم الإنظار وإنزال الملَك غير ممكن، لأن مدلول عدم الإنظار نفى للتراخى، فلابد من حمله على التراخى الرتبى، وبه تصير المفاجأة بالعذاب، لونا آخر من التعذيب أشد وأقسى من القضاء بالعذاب، وهو فى مجال التهديد أقسى إيجاعا مما لو دخلت الفاء المناسبة لعدم الإنظار، إذ لو قيل : "فلاينظرون" لجعلته عقابا واحدا معجلا، فتضيع معه المبالغة فى إبراز شدة وقع المفاجأة على نفوس كانت تستعجل العذاب، وتسخر من التهديد به، وذلك مالايؤدى على وجهه بغير حرف المهلة على سبيل التجوز. ورحم الله الزمخشرى حين قال : (ومعنى "ثم" بعد مابين الأمرين : قضاء الأمر وعدم الإنظار، وجعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة) (٣)

ومنه قوله تعالى على لسان إبليس **﴿ فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين﴾** (٤)

---

(١) آل عمران ١٤٤ (٢) الأنعام ٨ (٣) الكشاف ٢/٥ (٤) الأعراف ١٦ - ١٧

عطف "لآتينهم" على "لأقعدن" بحرف المهلة، والمهلة الزمنية ليست مرادة، لأن المقام مقام تحفّز ومسارعة، لامقام تريث وانتظار، فالتراخى مستعار للتفاوت بين القعود والإتيان، إذ الأول تزيين وترصد واستهواء، والثانى مهاجمة بكل الوسائل، فالفرق بينهما كالفرق بين الجالس يحارب بالكلمة ويناضل باللسان، والمنازل فى ساحة القتال بالسيف والسنان. ألا ترى كيف بالغ فى طرق المهاجمة وتنوع منافذها "من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم" حتى لايترك وسيلة من الوسائل لتحقيق ما أراد. إنه تدرج فى الكيد، وارتقاء فى الوسائل، ومباعدة بين مراحل الحرب وتطوراتها.

ومنه قوله تعالى : **﴿سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيى﴾** (١)

فليس بين تعذيب الأشقى فى النار، وبين مايكون عليه من حال تنعدم فيها الحياة والموت انقطاع ولامهلة، لأنها حال مصاحبة للصلْى بالنار، والمهلة الزمنية تعنى انقطاع العذاب بين المتعاطفين، وهو مايأباه مقام التشديد فى الوعيد، فدل الترخى بمعناه المجازى على أن الترجح بين الحياة والموت لون آخر من العذاب أشد وأقسى من الصلى، حتى إن الكافر ليتمنى الموت ليستريح من العذاب والإحساس بآلامه، **﴿ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾** (٢)

وانظر إلى ماتوسوس به "ثم" فى قوله تعالى : **﴿لئن لم ينته المنافقون والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا﴾** (٣) حيث خولف الظاهر من عطف الإجلاء، المعبر عنه بعدم المجاورة بالفاء، المشعرة بتعجيل طردهم من المدينة وعدم إمهالهم بها، ووضعت "ثم" موضعها، لتدل على أنه يجمع لهم بين التنكيل بهم فى المدينة وإجلائهم عنها، وأن الإجلاء شر ماينتظرهم وأقسى عقوبة تنزل بهم، بخلاف الفاء التى تدل بما فيها من معنى التعقيب على أنها

---

(١) الأعلى ١٠ - ١٢ (٣) الزخرف ٧٧ (٣) الأحزاب ٦٠

عقوبة واحدة هى الطرد من البلاد. وذلك ماحققه الزمخشرى : (فإن قلت: أما كان من حق "لايجاورونك" أن يعطف بالفاء، وأن يقال لنغرينك بهم فلايجاورونك؟ قلت : لوجعل الثانى مسببا عن الأول لكان الأمر كما قلت، ولكنه جعل جوابا آخر للقسم معطوفا على الأول، وإنما عطف بثم، لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم، وأعظم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه" (١).

ومن التفاوت فى الشدة والمباعدة فى الدرجة بين عذاب وعذاب أعظم منه، قوله تعالى : ﴿**الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون. إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون. فى الحميم ثم فى النار يسجرون. ثم قيل لهم أين ماكنتم تشركون. من دون الله قالوا ضلوا عنا**﴾ (٢)

إن مقام التهديد بإيقاع أشد العذاب بالمكذبين يأبى التراخى الحقيقى بين سحبهم مغللين فى النار على وجوههم، وسَجْرهم فيها، وإنما هو التفاوت بين طور من العذاب، وطور أشد وأعظم، لأن السَّجْرَ معناه أن تغطيهم النار، وتحيط بهم من كل جانب، فيحرقوا ظاهرا وباطنا، من سَجَر التنُّورَ إذا ملأه إيقادا، ولاشك أن ذلك أشد من السحب فى النار، ثم كان تأكدهم من خذلان شركائهم وضياعهم، وذهاب ماكانوا يؤملون نفعه أقسى من العذاب نفسه، لأنهم حينئذ يوقنون بخلودهم فى النار، وتنقطع كل آمالهم فى النجاة.

وعلى غراره جاءت ثم فى قوله تعالى : ﴿**خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم. ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم. ذق إنك أنت العزيز الكريم**﴾ (٣). ذلك أن صب الحميم على رؤوسهم تصهر به بطونهم وجلودهم يفوق فى شدته جرهم إلى النار، ألا ترى كيف سلط الصب على العذاب بدلا من الحميم على سبيل الاستعارة" وكأن الذى

---

(١) الكشاف ٢٧٥/٣ (٢) غافر ٧٠ - ٧٤ (٣) الدخان ٤٧ - ٤٩

يصب عليهم هو العذاب، لا أسبابه ووسائله، وذلك مالايقاس به هولا وفظاعة سحبُهم إلى النار، وهو الذى جسّده حرف المهلة، وكأنه يقول : خذوهم فجروهم جرا عنيفا حتى تلقوهم فى وسط النار، بل اصنعوا بهم ماهو أشد وأفظع، وهو أن تصبوا عليهم العذاب صبا.

التراخى المجازى فى عطف المكرر

عطف التوكيد بين النحاة والبلاغيين :

يقول ابن قتيبة : (أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم، وعلى مذاهبهم. ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز، لأن افتنان المتكلم والخطيب فى الفنون، وخروجه عن شىء إلى شىء، أحسن من اقتصاره فى المقام على فن واحد. وقد يقول القائل فى كلامه : والله لا أفعله، ثم والله لا أفعله. إذا أراد التوكيد وحسم الأطماع من أن يفعله) (١)

هذا الإلف العربى فى توكيد المعانى وتقريرها بتكرير المفردات والجمل، تختلف طرائقه وأغراضه فى النظم الكريم، وتدق أسراره ووجوه بيانه. قال صاحب الطراز : (اعلم أن ما نورده فى هذا القسم ينبغى إمعان النظر فيه، لغموضه ودقة مجاريه، ومن أجل ورود التأكيد من جهة اللفظ والمعنى، والتكرير فى كتاب الله تعالى، ظن بعض من ضاقت حوصلته، وضعفت بصيرته عن إدراك الحقائق، والتطلع إلى مآخذ الدقائق أنه خال عن الفائدة، وأنه لامعنى تحته إلا مجرد التكرير لاغير، وهذا خطأ وزلل، فإن كتاب الله تعالى لم يبلغ حد الإعجاز فى البلاغة والفصاحة سواه من بين سائر الكلمات، ولو كان فيه ماهو خال من الفائدة بالتكرير لم يكن بالغاً هذه الدرجة، ولاكان مختصا بهذه المزية) (٢)

وأول ما يلاحظ فيما تكرر من ألفاظ القرآن أنه يأتى فى مقامات تقتضى زيادة تقرير المعانى، وتتطلب مزيدا من الحسم وقطع الأطماع. وأكثرها يأتى فى مواطن التهديد والوعيد. وهى مواطن يكون التكرير فيها بمثابة تتابع قرع الأجراس، وزيادة الضغط على مواطن الإحساس، للتنبيه على مايحدق بالمخاطبين من الأخطار. مثل قوله تعالى : ﴿ويل

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٣٥ (٢) الطراز ١٧٧/٢

للمكذبين﴾ التى تكررت فى سورة المرسلات، وقوله **﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾** فى سورة القمر، وقوله **﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾**(١) وقوله: **﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾** (٢)

وثانى هذه الملاحظات، وهى لب حديثنا هنا أن الجمل التى تكررت بألفاظها، تأتى تارة مفصولة بلاعاطف بين الجملتين المكررتين، وأخرى تأتى موصولة بالواو، وثالثة بالفاء، ورابعة بحرف التراخى.

وإذا كان الغرض الأصيل من التكرار هو توكيد المعانى وتقريرها، فإن الفصل هو الأحق بها على ماقرره علماء المعانى، وفى مقدمتهم شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر فى قوله : (واعلم أنه كما كان فى الأسماء مايصله معناه بالاسم قبله، فيستغنى بصلة معناه له عن واصل يصله، ورابط يربطه، وذلك كالصفة التى لاتحتاج فى اتصالها بالموصوف إلى شىء يصلها به، وكالتأكيد الذى لايفتقر كذلك إلى مايصله بالمؤكَّد، كذلك يكون فى الجمل ماتتصل من ذات نفسها بالتى قبلها، وتستغنى بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهى كل جملة كانت مؤكَّدة للتى قبلها ومبينة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئا سواها) (٣) ثم يقول وهو يوجز أحوال الجمل فصلا ووصلا : (فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على ثلاثة أضرب، جملة حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكَّد، فلايكون العطف فيها البتة، لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشىء على نفسه) (٤)

هنا مكمن الإشكال، ذلك أن لسان العرب حافل بأمثلة عطفت فيها جملة التوكيد على الجملة المؤكَّدة، مما أدى إلى تضارب الآراء فى إجازة مثل هذا العطف أو منعه، أو إجازته بحرف المهلة وحده، دون سواه من حروف العطف، أو إجازته فى "ثم" والفاء ومنعه مع الواو. يقول العلوى فى حاشيته على الكشاف : (قال المصنف فى قوله تعالى : **﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾**(٥) أى كذبوا تكذيبا عقب تكذيب.

---

(١) الطارق ١٧ (٢) القيامة ٣٤ - ٣٥

(٣) دلائل الأعجاز ٢٢٧ (٤) السابق ٢٤٣ (٥) القمر ٩

وفى الكتاب العزيز : ﴿وما أدراك مايوم الدين. ثم ما أدراك مايوم الدين﴾ (١). وفيه : ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾ (٢). فقد عطف التأكيد فى الآيتين على المؤكَّد، وكأنه إنما يمنع عطف التأكيد على المؤكّد إذا كان بالواو) (٣)

ولست أدرى كيف ينسب العلوى إلى الزمخشرى منع العطف بالواو، مع أن الزمخشرى قال بالتوكيد أكثر من مرة فيما كان معطوفا بالواو !! ففى قوله تعالى : ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون. ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ (٤) قال فى الكشاف : (وهذا لتأكيد التكرير فى أمر القبلة وتشديده، لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة، وتسويل الشيطان، والحاجة إلى التفصلة بينه وبين البداء، فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدوا) (٥).

وفى قوله تعالى : ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ (٦) قال الزمخشرى : "ولو شاء الله ما اقتتلوا" كرره للتأكيد) (٧)

وليس الزمخشرى وحده من بين المفسرين الذين يقولون بالتوكيد فيما عطف بالواو، فإن كثيرا منهم ، ومنهم رجالات البيان قالوا به فى الكتاب العزيز، وإن رفضوه فى مؤلفاتهم البلاغية. فهذا الفخر الرازى يقول فى كتابه "نهاية الإيجاز"، وهو يعدد مواطن الفصل : (فالقسم الأول : هو أن تكون إحدى الجملتين كالتوكيد للجملة الأخرى، أو كالصفة لها .. على ماسيأتى أمثلتها، فلا يجوز إدخال العاطف عليه، لأن الصفة والتوكيد متعلقان بالموصوف والمؤكد لذاتيهما. ولما كان التعلق الذاتى حاصلا، استغنى عن لفظ يدل على ذلك التعلق). (٨)

---

(١) الانفطار١٧-١٨ (٢) التكاثر ٣ - ٤ (٣) تحفة الأشراف ٢٥٣/١ (٤) البقرة ١٤٩ - ١٥٠.
(٥) الكشاف ٣٢٢/١ (٦) البقرة ٢٥٣ (٧) الكشاف ٣٨٣/١ (٨) نهاية الإيجاز ٢٢٧.

هذا الرفض لدخول العاطف بين التوكيد والمؤكَّد - كما أملته قواعد الصناعة - لا نجده عند الرازى بهذا الحسم فى تطبيقاته على النص القرآنى. ففى قوله تعالى : **﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله﴾** (١) يقول فى أحد وجوه ذكرها فى الغرض من عطف الأمر بالتقوى على مثله، وهو الذى قدمه على سواه : (الأول تأكيد للأمر والحثّ عليه، كقولك للرجل : اعجل اعجل، فيكون أبلغ من قولك : اعجل) (٢)

وقال البيضاوى فى قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** (٣). قال البيضاوى : ("واتقوا الله" تكرير للتأكيد) (٤)

وحين يقول بعطف التوكيد أمثالُ الزمخشرى والرازى والبيضاوى وهم من أهل الذوق والبيان فإن ذلك يقلل من أهمية القول بأن إجازة عطف التوكيد هو قول المفسرين والنحاة على حد ماصرح به الشهاب : (والمؤكّد قد يعطف، كما صرح به المفسرون والنحاة، وتصريح أهل المعاني بمنعه لما بينهما من شدة الاتصال مخالف له بحسب الظاهر) (٥)

على أن جمهور النحاة لم يصرحوا بجواز عطف المؤكّد بالواو، وإنما صرحوا بجوازه إذا كان العاطف "ثم" كما قال ابن مالك فى التسهيل : (وفصل الجملتين بثم إن أمن اللبس أجود من وصلهما) (٦)

وقال الشيخ محيى الدين عبد الحميد فى عدة السالك : (نص أبوحيان فى الارتشاف على أن حرف العطف الذى يعطف الجملة المؤكّدة على ماقبلها هو "ثم"، ولكنه لم يصرح بأنه لايجوز العطف بغير هذا

---

(١) النساء ١ (٢) تفسير الفخر الرازى ١٧١/٩ (٣) الحشر ١٨

(٤) تفسير البيضاوى ١٢٨/٨ (٥) حاشية الشهاب ٣٩٤/٨ (٦) تسهيل الفوائد ١٦٦

الحرف) (١)

أما الرضى فقد أجازه فى ثم والفاء، وإن جردهما من حقيقة التعقيب والتراخى حين يعطفان الجملة المكررة. وعبارته : (وقد تكون ثم والفاء أيضا لمجرد التدرج فى الارتقاء، وإن لم يكن الثانى مترتبا فى الذكر على الأول، وذلك إذا تكرر الأول بلفظه، نحو : بالله وتالله ووالله ثم والله. وقوله تعالى : ﴿وما أدراك مايوم الدين. ثم ما أدراك مايوم الدين﴾. وقال تعالى : ﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾ (٢)

والغريب أن المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى يجعل ترك العطف بين التوكيد والمؤكد هو رأى النحاة، وأن البلاغيين تابعوهم فى ذلك، وليس وراء الفصل فى كمال الاتصال أغراض بلاغية، وإنما هى قوانين النحاة. يقول رحمه الله : (ومثل هذا الفصل لما يسمونه كمال الاتصال، وهو أن تكون الجملة الثانية تأكيدا للأولى، أو بدلا منها، أو عطف بيان لها، فترك العطف فى هذا لايرجع إلى مقام يقتضيه، وإنما يرجع إلى امتناع العطف فى النحو بين التأكيد والمؤكَّد، والبدل والمبدل منه، والبيان والمبيَّن، لأن العطف يقتضى التغاير بين المعطوف والتأكيد عين المؤكَّد) (٣)

وهذا عكس ماصرح به الشهاب فيما نقلناه عنه من أن إجازة عطف التوكيد رأى النحاة، وأهل المعانى يمنعونه، كما أنه يناقض ماذكرناه من أقوال النحاة.

والظاهر من كلام البلاغيين أنهم يمنعون العطف مالم يكن فى المعطوف زيادة يغاير بها معنى ماعطف عليه، وإلا كان من عطف الشيء على نفسه، كما أثبتوه فى حديثهم عن كمال الاتصال، يستوى فى ذلك أن يكون العاطف ثم أو غيرها من حروف العطف، لأن المدار على

---

(١) عدة السالك إلى أوضح المسالك ٣/٣٣٦. (٢) شرح الكافية ٢/٣٦٧

(٣) البلاغة العالية ١٠٦

مايتضمنه المعطوف من زيادة فى المعنى. وهذا مايفهم من كلام العصام فى قوله تعالى : **﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾** (١) قال: (ولما استشعر أن يستبعد كون الكلام تكريرا، لأن العاطف يستدعى كون المراد بالثانى غير الأول، قال لدفعه : "وفى"ثم" دلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول، يعنى أن "ثم" مستعار من التراخى الزمانى إلى التدرج فى درج الارتقاء، من غير اعتبار التراخى والبعد بين تلك الدرج. فإن قلت : إذا كان الإنذار الثانى أبلغ لم يكن تكريرا، قلت : كونه أبلغ باعتبار زيادة اهتمام المنذَر به، لا بأنه زاد فى المفهوم شيئا))(٢)

لقد أطلت الحديث فى تحقيق آراء النحاة والبلاغيين، لأن مثل هذا العطف إذا لم يكن له غرض سوى التوكيد يصبح دخول العاطف فيه ضربا من الزيادة العارية عن الفائدة، وهو فوق مصادمته لقوانين أهل الفن، لاينبغى القول بمثله فى الكتاب العزيز.

وإذا كان هذا العطف ثابتا فى الذكر الحكيم، وخاصة فى عطف الجمل المكررة، وبحروف العطف الثلاثة : الواو والفاء وثم، فإن الجهود يجب أن توجه إلى البحث عن أسراره. وما أضافه دخول العاطف فيما كان الظاهر عدم دخوله، وقد حاولت استجلاء أسرار العطف بالواو فى بحث لى تحت عنوان "الواو ومواقعها فى النظم القرآنى" (٣).

ويهمنى هنا الكشف عن بلاغة العطف بحرف المهلة، وهو الأثير فى الدخول بين الجمل المكررة، حتى جعله البعض خاصا بها دون سواه من حروف العطف، وهو الذى كثر وقوعه فى الذكر الحكيم.

وإذا كانت الفاء قد جاءت عاطفة للجملة المكررة كذلك، فإن الفرق بين العطفين يرجع إلى خصائص الحرفين التى تصاحبهما عند استعارتهما، من الترتيب والتعقيب فى الفاء، أو الترتيب والتراخى فى "ثم". ذلك أن الحرف عند استعارته لاتنمحى دلالاته الوضعية تماما،

---

(١) التكاثر ٣ - ٤　　　(٢) الأطول ٢/٤٤

(٣) رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

بل يبقى منها ماينم عليها ويذكّر بخصائصها على ماقرره بدقة بالغة أبو البقاء الكفوى حين قال : (كل حرف كان له معنى متبادر، كالاستعلاء فى "على" مثلا، ثم استعمل فى غيره، فإنه لايترك ذلك المعنى المتبادر بالكلية، بل يبقى فيه رائحة منه، ويلاحظ معه) (١)

ويبدو هذا الفرق حين نقارن بين قوله تعالى : **﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾** (٢) وبين قوله عز وجل : **﴿كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون﴾** (٣). قال الزمخشرى فى بيان سر العطف بالفاء : (كذبوه تكذيبا عقب تكذيب، كلما مضى منهم قرن مكذّب تبعه قرن مكذب) (٤)، فأشاع معنى التعقيب فى هذا العطف، الدلالة على تتابع التكذيب واستمراره على مدى قرون وأجيال، مما يبرز الإصرار والعناد، وعدم جدوى الدعوة معهم، تمهيدا لأخذهم بجرمهم، وإنزال العذاب عليهم.

وفى الآية الثانية يقول صاحب الكشاف : (و "ثم" للدلالة على أن الإنذار الثانى أبلغ من الأول وأشد، كما تقول للمنصوح : أقول لك، ثم أقول لك : لاتفعل) (٥) فتجاوز الزمخشرى القول بالتأكيد - وهو الذى يمكن أن يؤدى بغير عاطف -إلى استلهام معنى الحرف، واستعارة التراخى الزمانى للتراخى فى الرتبة، ليكون الإنذار الثانى أشد وأبلغ، فكشف بذلك عن نكتتين، إحداهما : المغايرة بين المتعاطفين لتفاوتهما فى الشدة، وثانيتهما : إيثار حرف المهلة على غيره من حروف العطف، لأنه وحده هو الذى يمايز بين التهديدين، ويطيل المسافة بينهما بقدر مافيه من اتساع الزمن وبعده.

وقد كشف السبكى عن السرفى كون الإنذار الثانى أبلغ من الأول، فى قوله : (وسره أن فيه تنبيها على أن ذلك تكرر مرة بعد أخرى، وإن تراخى الزمن بينهما، ومن شأن ذلك أنه لايكون إلا فى شىء لايقبل أن يتطرق إليه تغيير، بل هو مستمر على تراخى الزمان) (٦)

---

(١) الكليات ١٤٨/٥ (٢) القمر ٩ (٣) التكاثر ٣ - ٤

(٤) الكشاف ٣٧/٤ (٥) السابق ٢٨١/٤ (٦) عروس الأفراح ٢٢٩/٣

فقوله " وإن تراخى الزمان بينهما" هو الخيط الدقيق الفاصل بين الفاء وثم. وإن كانا معا يستعاران للدلالة على التفاوت فى المنازل، وبه اختص حرف المهلة فى صورته المجازية بالإيماء إلى ثبات الموقف، وحسم الأطماع على حد تعبير ابن قتيبة.

هذا الحسم للأطماع وقطع الأوهام فى تغيير المواقف بتغير الزمن، هو الذى من أجله آثر عليه السلام حرف المهلة فى قوله ردا على بنى هشام بن المغيرة حين استأذنوه فى أن يُنكحوا ابنتهم عليا : (فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن إلا أن يطلق علىٍّ ابنتى وينكح ابنتهم) فقطعت "ثم" بهذا العطف كل أمل يراودهم فى أن يغير الرسول موقفه بمرور الزمن، وكأنه يقول : لا آذن الآن، ولا آذن غدا، ولا آذن ماحييت. وذلك شىء فوق التأكيد الذى رآه ابن الأثير (أشد موقعا من الإيجاز لانصباب الغاية إلى تأكيد القول، فى منع على رضى الله عنه من التزويج بابنة أبى جهل بن هشام [١]) لأن هذا التأكيد يفهم بغير دخول العاطف، وهو لايدل على مادلت عليه. ثم" من ثبات الرسول على موقفه مهما تغيرت الظروف وتباعدت الأحوال.

ويشير ابن يعقوب إلى الحركة النفسية المصاحبة للتراخى، وأثر الوقت فى إحماء الشعور، وتقوية العزم على تطوير الفعل والمبالغة فيه : فقال فى تفسير أبلغية الإنذار الثانى، وكونه أوكد من الأول : (وفى العطف بثم دلالة على أن الإنذار الثانى الذى اعتبره المتكلم أوكد، وهو فى رعايته وقصده أبلغ، كما يقول القائل : أقول لك : لاتفعل، ثم تتقوى قريحته على النهى بأبلغ من الأول، فيقول : ثم أقول لك لاتفعل. وبيان ذلك أن أصل "ثم" إفادة التراخى والبعد الزمانى، وقد استعير للتراخى والبعد المعنوى) [٢]

وكأن ابن يعقوب يستمد من المعنى الحقيقى لحرف التراخى مايشيع هذا الأثر النفسى عند المتكلم، ويحفزه على تطوير أسلحته فى التهديد، ومهاجمة الخصم بما هو أشد وأعتى من الأول.

---

(١) المثل السائر ١٠/٣ (٢) مواهب الفتاح ٢١٩/٣

ولعل ذلك ليس بعيدا مما قاله أبوحيان فى قوله تعالى دعاء على الوليد بن المغيرة **﴿إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر﴾** (١). قال : (وجاء التكرار بثم ليدل على أن الثانية أبلغ من الأولى، للتراخى الذى بينهما، كأنه دعا عليه أولا، ورجا أن يقلع عما كان يروقه فلم يفعل، فدعا عليه ثانيا) (٢).

الفرق بينهما أن أبا حيان يبقى الحرف على حقيقته، ويستدل بالتراخى الزمانى على أن الدعاء الثانى أبلغ من الأول، لأنه دعاء اليائس، الذى فقد كل أمل فى أن يفىء المدعوُّ عليه إلى رشده، فتمنى له أشد أنواع الهلاك، جزاء تماديه.

أبوحيان يربط التفاوت بحالى الداعى والمدعو عليه، ويخلل الزمن بين الدعاءين ليشيع روح اليأس. ويضاعف من الرغبة فى الانتقام. أما البيانيون فإن نظرتهم تنصب على التفاوت بين الدعاءين ويستعيرون له دلالة البعد فى حرف المهلة، لتنفخ فى روح الجملة المكررة معنى جديدا يتصاعد به التهديد والتعجيب من حال المدعو عليه، كما تجده فى قول الشهاب (الجملة الثانية أبلغ فى التعجب من الأولى، للعطف بثم الدالة على تفاوت الرتبة، فكأنه قيل : قتل بنوع مامن القتل، لا بل قتل بأشده وأشده، ولذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد) (٣) ذلك التفاوت المعنوى، والارتقاء فى الدعاء، هو الذى سوغ العطف فى نظر أهل المعانى.

مثل هذا التكرار فى الدعاء، ولكن للإغاظة وزيادة المناكدة ورد فى قول الحماسى :

وما لى من ذنب إليهم علمته سوى أننى قد قلت ياسرحة اسلمى

نعم فاسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تكلمى

فهو يرد على من أنذره بسفك دمه، لأنه دعا لسرحة التى كنى بها

---

(١) المدثر ١٨ - ٢٠ (٢) البحر المحيط ٣٧٤/٨ (٣) حاشية الشهاب ٢٧٥/٨

عن امرأة فيهم، فكرر الدعاء لها بالسلامة ليغايظهم ويناكدهم، [١] وقد ارتقى فى هذا الدعاء، وازداد فى مناكدتهم مبتدئا بالفاء، الدالة على التفاوت، وترقى منها إلى "ثم" الدالة على شدة التفاوت، وانتهى بزيادة التاء على "ثم" إمعانا فى المبالغة وشدة المغايظة، وكأنه يقول لهم : لن يخيفنى تهديدكم، وسأظل أدعو لها إلى آخر يوم فى حياتى، فلا تنتظروا منى تراجعا، ولن يغير الزمن من موقفى.

ولأن "ثم" تكسب عطف الجملة المكررة زيادة تغليظ وتشديد فى مقام التهديد، فقد يصاحبها من الزيادة فى التعبير مايؤكد هذه المبالغة وينميها، كما فى قوله تعالى : ﴿**لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين**﴾[٢] فإن عطف الرؤية بحرف المهلة يومىء إلى أن الرؤية الثانية أشد هولا، حتى لكأن مارأوه من الجحيم أولا غير ما رأوه ثانيا فى فظاعته وهوله، وذلك لما هو معروف فى دنيا الناس من أن الذى عذب بشىء فظيع ينتابه من الهياج وانهيار الأعصاب ماينتابه إذا ماذكّر به، فكيف برؤيته ثانيا، فهو لايُقبل عليه إلا سوقا، وهذا مايحدث لمن يرى هول عذاب الجحيم، فإن إراءته إياه ثانية أشد وأفظع، وقد ازداد هذا التهويل بقوله " عين اليقين" لأن فيه قطعا لكل وهم، ودفعا لأى تجوز يمكن أن يفهم من الرؤية.

وانظر كيف يقابل الله تعالى الغلو فى التكذيب والمكابرة، بالمبالغة فى التهديد والوعيد، فى قوله تعالى وصفا للمشركين : ﴿**فلا صدق ولاصلى. ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى. أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى**﴾ [٣]

فلم يكتف المشرك بالتكذيب والإعراض، حتى تفاخر به وتعاظم بين قومه، فكان ذلك عند الله تعالى أشد من تكذيبه وإعراضه، بدليل عطفه بثم الدالة على التفاوت بين التكذيب والإعراض، وبين ذهابه إلى أهله يتمطى كبرا واختيالا، فقابل الله تعالى ذلك بتكرير التهديد

---

(١) ينظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١٣٧٤/٣ (٢) التكاثر ٦ -٧

(٣) القيامة ٣١ - ٣٥

بالويل "أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى" وعطف الثانى على الأول بثم، وكأنه يقسم ألوان العذاب على أفعال الكافر، فيقول له : ويل لك على تكذيبك وإعراضك، وويل أشد وأعظم على تباهيك واختيالك بهذا الكفر والإعراض، وفى ذلك تنبيه على أن المجاهرة بالذنب معصية أخرى، أشد وأعظم من المعصية نفسها، لما لها من أثر على سلوك الناس، وتشجيعهم على المعاصى وإفشائها.

ولعل هذا ليس بعيدا من التهويل بالتكرير فى قوله تعالى : **﴿وإن الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين. وماهم عنها بغائبين. وما أدراك مايوم الدين. ثم ما أدراك مايوم الدين. يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾** (١)

فالتعبير عن الكفار بالفجار فيه دلالة على التناهى فى الكفر والإغراق فيه، لأن الفَجْر : شق الشىء شقا واسعا (٢). فهو كفر مشفوع بالتحدى والمجاهرة وشقّ ستر الديانة (٣) فقابل الله هذا الفجور واللجاجة فى الكفر بزيادة التهويل من يوم القيامة، ومايصحبه من أهوال تشيب لها الولدان، مؤثرا العطف بثم "وما أدراك مايوم الدين. ثم ماأدراك مايوم الدين".

وفى مجال الامتداح بالأعمال الصالحات والترغيب فيها تكسب "ثم" الجملة المكررة معنى الثبات والدوام، وتومىء إلى أن الفضل كل الفضل فى المداومة، حتى لكأن الإيمان والتقوى لاقيمة لهما مالم يتسما بالاستمرار والدوام، وذلك قوله تعالى: **﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾** (٤)

---

(١) الانفطار ١٤ - ١٩ (٢) المفردات فى غريب القرآن ٣٧٣
(٣) السابق ٣٧٣ (٤) المائدة ٩٤

إنها مراحل من التدرج والارتقاء فى معارج القبول، بدأت بالخوف من الله والإيمان به والعمل الصالح، ثم ترقت إلى الرضا واليقين، اللذين أشاعا فى النفس الأريحية الباعثة على مداومة ما اطمأنت إليه، وانتهت بالوصول إلى درجة الإحسان التى ترقى بصاحبها إلى مرحلة المشاهدة واليقين، حتى يعبد الإنسان ربه عبادة من يراه ويشاهده. وهذا ما أفاض به الطيبى فيما نقله الشهاب : (المعنى : أنه ليس المطلوب من المؤمنين الزهادة عن المستلذات وتحريم الطيبات، وإنما المطلوب منهم الترقى فى مدارج التقوى والإيمان إلى مراتب الإخلاص واليقين، ومعارج القدس والكمال، وذلك بأن يثبتوا على الاتّقاء عن الشرك، وعلى الإيمان بما يجب الإيمان به، وعلى الأعمال الصالحة لتحصيل الاستقامة التامة، التى يمكن بها الترقى إلى مرتبة المشاهدة، ومعارج أن تعبد الله كأنك تراه، وهو المعنىّ بقوله "وأحسنوا") (١)

---

(١) حاشية الشهاب ٣/٢٨٠.

التراخى بين الحقيقة والمجاز

كثيرا ماتختلف نظرات المفسرين إلى معنى التراخى فى حرف المهلة، طبقا لما يشيعه البعد بضربيه الحسى والمعنوى فى النص من دلالات، ومايُبرق به من أسرار، قد يراها أحدهم كامنة فى رداء الزمن، ويراها آخرون فيما يستعار له هذا الرداء من معانى التدرج والارتقاء.

ففى قوله تعالى : **﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون﴾** (١) قال الزمخشرى : (ومعنى "ثم" إظهار التفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق) (٢) فآثر الزمخشرى المعنى المجازى الدال على تعظيم المعطوف، لأنه رأى أن الغرض الأصيل من امتداح الإنفاق فى هذه الآية وتعظيم أجر المنفق، هو الحث على تنقيته من شوائب مايبطله ويذهب بأجره من إيذاء الفقراء وأصحاب الحاجات والمن عليهم، بدليل أن الآية قد سبقت بما يدل على تعظيم الإنفاق فى ذاته، وبيان عظيم أجره عند الله، وهو قوله : **﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾** (٣) وليس بعد هذه المضاعفة للأجر المنفَق، التى لم تقف عند حد المضاعفة إلى سبعمائة ضعف، بل أطلقت فى ذلك الوعد المصدر بلفظ الجلالة "والله يضاعف لمن يشاء" ليضفى الله على النفقة من جلاله مايعظمها فى عين المؤمن، ثم شفعها بقوله "والله واسع عليم" ليفيض عليها من سعة كرمه مالايقف بثوابها عند عدّ أو حساب. ليس بعد هذا التعظيم لعمل المنفق، ومقابلته بهذا الفيض من الثواب، حاجة إلى زيادة حث أو إغراء، فكانت الآية التى تلتها - وهى موضع حديثنا- دعوة إلى إخلاص هذا الإنفاق مما يذهب بأجره العظيم، وكان ذكر الإنفاق فى سبيل الله بين يدى دعوة المنِفق إلى ترك المن والأذى

---

(١) البقرة ٢٦٢ (٢) الكشاف ١ /٣٩٤ (٣) البقرة ٢٦١

توطئة لهذا الغرض الأصيل، وهذا هو السر الذى جعل الزمخشرى يستعير فيه معنى التراخى لبعد المرتبة، وكأن الله يقول : أرأيت إلى هذا الإنفاق الذى يضاعف الله أجره هذه المضاعفة، لاقيمة له مالم يكن خالصا من الرياء، نقيا من المن والإيذاء، بل هذه الصدقة التى عظَّمها الله تعالى ورفع شأنها تتضاءل وتتطامن حتى تصبح الكلمة الطيبة أعظم منها إذا ماصحبها منٌّ أو أذى ﴿**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى**﴾(١) وليست المفاضلة بين القول الطيب والصدقة المشفوعة بالأذى مفاضلة بين حسن وأحسن منه، ولكنها مفاضلة بين الطيب والخبيث.

ويعلل الشيخ الطاهر بن عاشور المفاضلة بين المتعاطفين فى تفسيره لكلام الزمخشرى بقوله : (لأن العطاء قد يصدر عن كرم النفس وحب المحمدة، فللنفوس حظ فيه، مع حظ المعطَى، بخلاف ترك المن والأذى، فلا حظٌ فيه لنفس المعطِى، فإن الأكثر يميلون إلى التبجح والتطاول على المعطَى، فالمهلة فى "ثم" مجازية. إذ شبه حصول الشىء المهم - فى عزة حصوله - بحصول الشىء المتأخر زمنه، وكأن الذى دعا الزمخشرى إلى هذا أنه رأى معنى المهلة هنا غير مراد، لأن المراد حصول الإنفاق وترك المن معا) (٢)

هذا التعليل لتفاوت مرتبة المتعاطفين دقيق رائع، وكشفه عن دافع الزمخشرى إلى التجوز بما يبرز إيثار حرف المهلة على مايبد وأنه موضع الواو دقيق أيضا، لكننا نقف معه فى إجرائه للاستعارة، حيث يجريها فى مدخول الحرف كما هو واضح فى عبارته، وهو إن صح أن يكون رأيا خاصا بابن عاشور، ولا أراه يصح عنده، لأنه كثيرا ما أجراها فى معنى الحرف، فلا يصح بحال أن يفهم ذلك من كلام الكشاف، فإنه فى كل موضع فسر فيه استعارة المهلة كان كلامه صريحا فى استعارة معنى الحرف، من مثل قوله : (وكلمة التراخى دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين)(٣) فهو يستعير البعد فى الوقت لبعد

---

(١) البقرة ٢٦٣ (٢) التحرير والتنوير ٤٢/٣ (٣) الكشاف ٥٤٨/٢

المنزلة، كما هو بين لائح.

ولابن المنير رأى طريف فى استعارة الحرف فى هذه الآية وما أشبهها، مما يدل المعطوف فيه على الدوام والثبات. ومجمله أن يستعار تراخى زمن وقوع الفعل الذى هو حقيقة "ثم" لتراخى زمن بقائه، فيدل بذلك على دوام المعطوف واستمراره. وإليك ماقال مما نسوقه بتمامه لطرافته : (وعندى فيها وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها، وإرخاء الطول فى استصحابه، فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه، وعليه حمل قوله تعالى "ثم استقاموا"، أى داموا على الاستقامة دواما متراخيا، ممتد الأمل، وتلك الاستقامة هى المعتبرة، لا ماهو منقطع إلى ضده من الحَيْد إلى الهوى والشهوات، وكذلك قوله " ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى" أى يدومون على تناسى الإحسان، وعلى ترك الاعتداد به والامتنان، ليسوا بتاركيه فى أزمنة إلى الإذاية) (١)

لكن الإمام محمد عبده يحمل "ثُم" على حقيقتها فى الآية، ويستخرج من التراخى الزمانى نكتة العطف بهذا الحرف. يقول صاحب المنار : (وقال الأستاذ الإمام : قد يشكل على بعض الناس التعبير بثم التى تفيد التراخى، مع العلم بأن المن أو الأذى العاجل أضر وأجدر بأن يجعل تركه شرطا لتحصيل الأجر.

وجوابه أن من يقرن النفقة بالمن والأذى، أويتبعها أحدهما أو كليهما عاجلا لايستحق أن يدخل فى الذين ينفقون فى سبيل الله، أو يوصف بالسخاء المحمود عند ربه، وإذا كان من يمن أويؤذى بعد الإنفاق بزمن لايعتد الله بإنفاقه ولا يأجره عليه، ولايقيه الخوف والحزن، أفلا يكون المتعجل به أجدر بذلك؟ بلى. وإنما الكلام فى السخى الذى ينفق

---

(١) الإنصاف ٣٩٢/١

فى سبيل الله مخلصا، متحريا للمصلحة والمنفعة، لاباغيا جزاء من ينفق عليه، ولا مكافأة، ولكن قد يعرض له بعد ذلك مايحمله على المن والأذى المحبطين للأجر، كأنه يرى ممن كان أنفق عليه غمطا لحقه، أو إعراضا عنه، وتركا لما كان من احترامه إياه، فيثير بذلك غضبه حتى يمن أو يؤذى) (١)

وجه البلاغة فى العطف بهذا الحرف على ماذهب إليه الشيخ الإمام هو المبالغة فى امتداح هؤلاء المنفقين، الذين لايستطيع الزمن مهما تراخى بهم أن يحبط عملهم، ولا أن يدفعهم تبدل أحوال المنفَق عليهم إلى فعل مايذهب بأجر النفقة ويبطلها. وكأن ترك المن والأذى بعد تقادم العهد بالنفقة شرط لاستحقاق هذا الأجر العظيم. وهذا هو سر العدول عن الواو أو الفاء، إذ لو قيل ولايتبعون، أو فلايتبعون لمادل ذلك على كما المدح، لأن طول الزمن أقدر على التغيير فى النفوس. وأدل على اختبار صدق النوايا.

هذا كلام فى ميزان البلاغة ثقيل الوزن. لكنه ليس بجديد، بل هو من بحار الكشاف يغترف. وإذا شئت العثور عليه، فأنت واجده فى أحد وجهين ذكرهما الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون**﴾(٢) قال الزمخشرى : (فإن قلت : مامعنى "ثم" ههنا وهى للتراخى، وعدمُ الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان، لأنه وصف فيه، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة، التى حقيقتها التيقن وانتفاء الريب؟ قالت : الجواب على طريقين : أحدهما أن من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضللين بعد ثلج الصدر، فشككه وقذف فى قلبه مايثلم يقينه، أو نظر هو نظرا غير سديد يسقط به على الشك، ثم يستمر على ذلك راكبا رأسه، لايطلب له مخرجا، فوصف المؤمنون حقا بالبعد عن هذه الموبقات، ونظيره قوله " ثم استقاموا". والثانى أن

---

(١) تفسير المنار ٣/٥٢ (٢) الحجرات ١٥

الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان، تنبيها على مكانه، وعطف على الإيمان بكلمة التراخى إشعارا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا) (١)

رحم الله الزمخشرى " لم يترك لمن بعده مايتفاخرون بافتراعه. ففى الوجه الأول يذهب إلى التراخى الزمانى فى "ثم"، ليدل على أن مرور الزمن لايزيد المؤمنين الصادقين إلا ثباتا ويقينا، ولن يتسرب إلى قلوبهم مايتسرب إلى قلوب ضعاف الإيمان من الشك والارتياب. إنه نفس الوجه الذى ذكره الأستاذ الإمام فى آية البقرة.

والوجه الثانى يذهب إلى أنه من عطف الخاص على العام، تنبيها على أن عدم الريب هو قمة الإيمان ودليل رسوخه. وذلك هو سر العطف. أما عطفه بثم فهو للإشعار باستقراره فى الأزمنة المتراخية، وذلك عين ماقال به صاحب الإنصاف، وجعله ضربا من المجاز، باستعارة تراخى زمن المعطوف لتراخى زمن بقائه، كما نقلناه عنه فى آية البقرة، لأن حقيقة التراخى فيها أن تكون المهلة بين المتعاطفين، لابعد وقوع المعطوف. وإذا كان الزمخشرى لم يصرح بهذه الاستعارة، فإن عبارته لاتمنعه. غير أن كلامه فى غير هذا الموطن يجعل التجوز بالثبات والدوام فى الفعل، ويبقى ثم على استعارتها لتباين المنزلتين، فيكون فيه ضربان من المجاز : أحدهما فى الحرف، والثانى فى الفعل. كما فى قوله تعالى : ﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ (٢) ففسر الاهتداء بالثبات على التوبة والإيمان، لأنه ليس شيئا غيرهما، وفسر التراخى فى "ثم" بالتباين بين منزلة الفعل والاستقامة عليه. قال الزمخشرى : (الاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح. ونحوه قوله تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ (٣) وكلمة التراخى دلت على تباين المنزلتين دلالتها على تباين الوقتين فى

---

(٣) الكشاف ٥٧١/٣ (١) طه ٨٢ (٢) فصلت ٣٠

"جاءنى زيد ثم عمرو" أعنى أن منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه، لأنها أعلى منها وأفضل) [١]

فتفسيره للاهتداء بالثبات على الهدى تجوز فى الفعل، وبمثله قال فى الآية الكريمة : **﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾** [٢] ففسر طلب الهداية من قوم مهتدين بطلب الزيادة أو التثبيت [٣]، وعلق السيد الشريف على عبارته هناك بقوله : (فإن حمل الهدى على التثبيت مجاز) [٤]

وقرينة التجوز هنا عطف الاهتداء على مايستلزمه من التوبة والإيمان، لأن من تاب وآمن وعمل صالحا لايكون غير مهتد، فحمل الاهتداء على الثبات لتحقيق المغايرة بين المتعاطفين، فرارا من عطف الشيء على نفسه، وتلك هى نكتة التجوز فى الفعل، ولايختلف الأمر لوعطف الفعل بالواو.

أما إيثار حرف التراخى على الواو، فنكتته الدلالة على فضل المعطوف، تنبيها على أن الثبات على الفعل خير من الفعل نفسه، فاستعير التراخى الزمنى للتراخى فى الرتبة.

وهنايتضح الفرق بين الزمخشرى وابن المنير، حيث يجعل الأول الدلالة على الثبات من أثر التجوز فى الفعل، ويجعلها الأخير من وحى التجوز فى الحرف.

يؤكد ذلك ماقاله الزمخشرى فى قوله تعالى : **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا﴾** [٥]: ("ثم" لتراخى الاستقامة عن الإقرار فى المرتبة، وفضلها عليه، لأن الاستقامة لها الشأن كله، ونحوه : قوله تعالى : "إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا". والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته) [٦] فقوله "ثم لتراخى الاستقامة عن الإقرار

---

(١) الكشاف ٥٨٤/٢ (٢) الفاتحة ٦ (٣) الكشاف ٦٧/١
(٤) حاشية السيد على الكشاف ٦٧/١ (٥) فصلت ٣٠ (٦) الكشاف ٤٥٣/٣

فى المرتبة" صريح فى استعارتها للتراخى الرتبى. وقوله "المعنى : ثم ثبتوا على الإقرار" مفسرا الاستقامة بالثبات صريح فى التجوز فى الفعل.

قرينة المجاز بين المنع والجواز :

من الثابت لدى علماء البيان أن المجاز اللغوى ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة [1]، لكننا كثيرا مالانجد قرينة ظاهرة تمنع من إرادة الحقيقة فيما قيل باستعارة "ثم" للاستبعاد أو التراخى الرتبى، وهذا ماجعل المفسرين يختلفون فى إرادة الحقيقة أو المجاز فى كثير من النصوص. فيحملها بعضهم على الحقيقة، وآخرون على المجاز، بل إن الواحد منهم ربما قال باحتمال الحقيقة والمجاز فى الموضع الواحد، كما رأينا فى الأمثلة التى مرت آنفا.

ومن الأمثلة التى خفيت فيها القرينة المانعة من إرادة الحقيقة، قوله تعالى : **﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين. شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم. وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين﴾** [2]

فقد عطف إيحاء الله إلى رسوله باتباع ملة إبراهيم بحرف التراخى، والمهلةُ بين ماحكاه الله عن إبراهيم والإيحاء إلى رسوله باتباع ملته قائمة، ولامانع من إرادتها. لكن الزمخشرى حملها على التراخى فى الرتبة. فقال : (فى "ثم" هذه مافيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلّ ما أولى من النعمة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قِبَل أنها دلت على تباعد هذا

---

(١) المطول ٤٠٧ (٢) النحل ١٢٠ - ١٢٣

النعت فى المرتبة من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها) (١)

وكأنى بالزمخشرى - رحمه الله - نظر إلى أن ماحكاه الله تعالى عن إبراهيم جزء من الوحى، إذ لاسبيل لمعرفة الرسول به إلا منه، فليس بين ما أوحى إليه من قصة إبراهيم، وما أوحى إليه باتباع ملته تراخ، ولو مضى الأمر فى القصّ على حقيقته لكان ذلك موضع الواو، وكان الظاهر أن يقال : وأوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم، فلجأ الزمخشرى إلى المجاز، ليكشف عن سر إيثار حرف التراخى على ماظاهره أنه موضع الواو، ورأى أن هذا الإيحاء باتباع ملة إبراهيم نعمة أخرى امتن الله بها على خليل الله، وغوير بينها وبين ماقبلها فى حرف العطف، إظهارا للتفاوت بينها وبين ماسبقها من النعم، تعظيما للنبى الكريم الذى كان اتباعه خير ما أنعم الله به على إبراهيم، واستتبع ذلك تعظيم إبراهيم عليه السلام، لأن خير النبيين تابع لملته. كما أشار إلى ذلك عمر الفارسى فى شرحه لعبارة الكشاف : (أراد أن فيه تعظيما لايكتنه كنهه، أما الإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله صلوات الله عليه، فمن دلالة "ثم" على تباين هذا المؤْتَى، وسائر ما أوتى من الرتب والمآثر، وأما تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن حيث إن الخليل مع جلالة محله عند الله تعالى أجلُّ رتبته أن أوصى إلى حبيب الله تعالى باتباع ملته. وفى لفظ "أوحينا" ثم الأمر باتباع الملة، لا اتباع إبراهيم مايدل على أنه ليس بتابع، بل هو مستقل بالأخذ عمن أخذ إبراهيم عنه) (٢)

فالقرينة التى تدفع إلى التجوز فى حرف المهلة قارة فى أغراض النظم، وقدرةِ المجاز على استيعاب أسراره بما لاتستطيعه الحقيقة، وطريق التعرف على المجاز إمكان وقوع مالايدل على المهلة من حروف العطف موقعها، فإذا أمكن وقوع الواو مثلا موقع ثم، كان إيثارها دليلا على التجوز بالتراخى الحقيقى عن التراخى الرتبى. والا فإن حملها على الحقيقة فيما لامهلة فيه، يلغى معنى التراخى فيها، وهو الذى

---

(١) الكشاف ٤٣٤/٢ (٢) كشف الكشاف ١٢٦٢/٤

يميزها عن سائر حروف العطف، وإلغاء خصائص الحروف مما تجل عنه لغة القرآن.

فالمهلة خصوصية زائدة على مطلق الجمع، وعلى الترتيب الذى تشارك الفاء فيه ثم، ومعلوم أنه مامن أمر زائد على مجرد الإثبات والنفى إلا كان هو الغرض من إثباته أو نفيه، كما قرر الإمام عبد القاهر. ففى قولك : جاء زيد ثم عمرو، يكون الغرض إثبات مجىء زيد بعد عمرو بمهلة، فإذا قلت : ماجاء زيد ثم عمرو، كنت تنفى هذه المهلة فحسب، ولا مانع أن يكون زيد وعمرو قد جاءا معا، أو جاء عمرو عقبه بلا مهلة.

وإرادة هذه الخصوصية أو عدم إرادتها هى القرينة على المجاز أو إرادة الحقيقة، والمثال الظاهر على ذلك قوله تعالى : **﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾** (١)

فماذا لو أجريت "ثم" على حقيقتها فى قوله "ثم يدركه الموت"؟ سيكون المعنى حينئذ أن هذا الأجر يثبت لمن أدركه الموت بعد خروجه من بيته مهاجرا بمهلة، ولاأجر لمن خرج مخلصا نيته للهجرة فأدركه الموت عقب خروجه، وهو بالقطع غير مراد، لأن الآية فى سياق يعظم إخلاص النية فى الخروج للهجرة، ويطمئن من خرج متجردا للهجرة محتسبا لها وحالت العوائق دون إتمامها، فمات قبل بلوغ مهجره أن الله يضمن له أجر المهاجرين. لاينقص منه شيئا، وسواء فى ذلك أن يدركه الموت عقب خروجه أو بعد زمن، لأن النية المقرونة بالخروج هى مدار الجزاء، ولأنه فيهما معا لم يصل إلى دار الهجرة، والدليل على ذلك أن الآية نزلت فى حبيب بن ضمرة الليثى حمله بنوه على سرير متوجها إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت، فصفق بيمينه

---

(١) النساء ١٠٠

على شماله، فقال : اللهم هذه لك، وهذه لرسولك، أبايعك على مابايعتك يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات حميدا، فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : لو وافى المدينة لكان أتم أجرا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. (١)

وهو قاطع فى أن ثبوت الأجر غير مقيد بحصول المهلة بعد الخروج، فما التنعيم الذى مات به حبيب ببعيد عن مكة حتى يستحق المهلة، وإنما هو التراخى المجازى الدال على تعظيم الموت فى سبيل الله، وبعد منزلته من منزلة الخروج، لتجتمع فى الآية مبالغتان، هذا التراخى الرتبى، والتعبير بقوله : "يدركه الموت" بدلا من "يمت" كما نبه إلى ذلك الألوسى فى قوله : (ووضع "يدركه الموت" موضع "يمت"، إشعارا بمزيد الرضا من الله تعالى، وأن الموت كالهدية منه سبحانه له، لأنه سبب الوصول إلى النعيم المقيم، الذى لاينال إلا بالموت، وجيء بثم بدل الواو تتميما لهذه الدقيقة، وأن مرتبة الخروج دون هذه المرتبة)(٢)

فالعدول عن الواو إلى ثم قرينة على إرادة التراخى الرتبى الذى تختص به "ثم" حيث لم يكن إلى قصد المهلة من غرض.

وأكثر من ذلك وضوحا على عدم إرادة الحقيقة لتنافى خصوصية حرف المهلة مع الغرض قوله تعالى : ﴿**ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا**﴾ (٣). فقد جمع المخطىء بين أمرين : الإثم والرمى، وجمع الله فى جزائه بين البهتان والإثم، والبهتان مقابل للرمى، وهوفى الجزاء مقدم، وفى الشرط مؤخر معطوف بثم، فدل العطف بالواو فى الجزاء، وتقديم ما أخر فى الشرط على أن التراخى الزمنى غير مراد، هذا فضلا عن أن الغرض يتعارض مع حقيقة المهلة، إذ لو أريدت لكان الجزاء مشروطا بوقوع الرمى بعد الإثم بمهلة، ومفهومه أنه لو جمع بين الإثم والرمى، ولم يكن الثانى بعد

---

(١) أسباب النزول للواحدى ١٣٢ (٢) روح المعانى ١٢٨/٥ (٣) النساء ١١٢

الأول بمهلة لما استحق هذا العقاب، وذلك ظاهر الفساد. لذلك قال الشهاب : (وفى "ثم" دلالة على بعد مرتبة البهتان من ارتكاب الإثم نفسه) (١)

وفى هذا البعد المجازى إشارة إلى عظم الجرم فى رمى الأبرياء، وتلطيخ سمعتهم وشرفهم، فكل إثم يقترفه الآثم هو دون الرمى فى فظاعته وقبحه.

وكثيرا مايكون الفاصل الزمنى المعبر عنه بالمهلة مفسدا للمعنى، فلايكون هناك بدّ من القول بالتراخى الرتبى، كما فى قوله تعالى : **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾** (٢)

فإن التراخى الحقيقى بين إزالة ما ألقى الشيطان وإحكام الله الآيات، يوهم أن وساوس الشيطان قد ظلت ملتبسة بهذه الآيات زمنا قبل أن يُحكم الله آياته، وهو معنى فاسد، بدليل الفاء فى قوله "فينسخ الله" الدالة على سرعة إزالة تلك الأوهام من رءوس ضعاف الإيمان قبل أن تعلق بآياته، صيانة لكلامه من أن يلتبس فيه الحق بالباطل ولو لزمن يسير، وهو عين الوقت الذى يحكم الله فيه الآيات، إلا أن إزالة الأوهام دون الإحكام فى المرتبة، من حيث إن إحكام الآيات هو الهدف، ومن أجله كان نسخ ما ألقى الشيطان.

ولعل الفاء فى "فينسخ" بما فيها من معنى المسارعة خير دليل على وهن قصة الغرانيق، لأن دعوى أن الرسول نطق بعد قوله **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾** (٣) بقوله " تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" وسماع الناس إياها، واستفاضتها على ألسنتهم، مما سيناقض معنى الفاء التى تدل على أن النسخ يعقب إلقاء الشيطان، فلايتمكن من لَبْس كتاب الله المحكم بما

---

(١) حاشية الشهاب ٣/١٧٦ (٢) الحج ٥٢ (٣) النجم ١٩

يبثه من أوهام وأباطيل. وقد أحسن ابن كثير حين قال : (وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق، وماكان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا، ولكنها طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح) (١)

المهم أن المهلة بين النسخ وإحكام الآيات ليست مرادة، بل إنها تؤدى إلى معنى غير صحيح. وهذا هو قرينة التجوز فى حرف المهلة.

وقد يكون المقام مما يأبى التراخى الزمانى، كما تجده فى مواطن التعذيب والتهديد به، فإن المهلة بين مراحل العذاب تدل على أن هناك فترات تتخلل هذه المراحل، ينقطع فيها التعذيب، وهو مايأباه مقام التشديد فى الوعيد. ومثاله قوله تعالى : **﴿خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه.ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه. إنه كان لايؤمن بالله العظيم﴾** (٢)

فلو قلنا بالتراخى الحقيقى لكانت هناك مهلة بين الغلّ والتصلية، وبينها وبين السلك، والمقامُ مقام غضب وانتقام، لايلائمه ماتوهمه المهلة الحقيقية من انقطاع العذاب، وتخلل الزمن بين كل لون من العذاب وآخر، فلم يكن مفرٌ من القول بالتراخى الرتبى، وبه يتصاعد العذاب، وينتقل المعَّذب من طور إلى طور أشد وأقسى وهو ماتومىء به ثم من التفاوت فى الشدة، على ماقال البيضاوى وعلق عليه الشهاب بقوله : (ولم يجعلها للمهلة، إذ مقام التهديد لايناسبه) (٣)

إلا أن المهم فى الحديث عن القرينة هو ماتجاذبته الحقيقة والمجاز من المواضع، وليس فيها مايمنع من إرادة الحقيقة، ومن ثم كانت عرضة لاختلاف الأذواق ففى قوله تعالى : **﴿ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم﴾** (٤) تجاذب حرفَ المهلة فى قوله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٢٩/٣ (٢) الحاقة ٣٠ - ٣٢

(٣) حاشية الشهاب ٢٣٩/٨ (٤) الزخرف ٧ - ٨

"ثم يصر مستكبرا" الحقيقةُ والمجاز، وليس فى النص قرينة تقطع بالمجاز وتمنع من إرادة حقيقة التراخى، وهو ماصرح به الشهاب فيما علق به على عبارة البيضاوى : (وثم لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات كقوله :

يرى غمرات الموت ثم يزورها) (١)

قال الشهاب : (فهى للتراخى الرتبى لا الحقيقى كما فى البيت المذكور، واختاروه، لأنه أبلغ وأنسب بالمقام، وإن أمكن إبقاؤه على حقيقته هنا) (٢)

مكمن الخطر فى هذا القول هو التصريح بإمكان الحقيقة مع التجوز باستعارة الحرف، لأنه يضعنا أمام ضرب من المجاز اللغوى لاتمنع فيه القرينة من إرادة الحقيقة، ويخضع فيه القول بالحقيقة أو المجاز للأذواق، لا لحسم القرائن. وبمثل ذلك قال الألوسى : (فإن "ثم" لاستبعاد الإصرار بعد سماع الآيات، وهى للتراخى الرتبى، ويمكن إبقاؤه على حقيقته، إلا أن الأول أبلغ وأنسب بالمقام) (٣)

مبنى الحكم بأبلغية التراخى الرتبى على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأما كونه أنسب بالمقام، فلعله راجع إلى أن مقام التسجيل على الكفار وإبراز عتوهم وعنادهم يتحقق بمبادرتهم إلى الإصرار على الكفر فور سماع القرآن، دون أن يولوه قدره من التأمل والنظر، وذلك شأن المستكبرين حين يرون فيما يدعون إليه طعنا فى كبريائهم، فهم يسارعون برفضه، كما حدث من المشركين الذين بادروا إلى التكذيب والكفر، فكان ذلك قرينة على أن التراخى غير حقيقى، وأنه أريد به استبعاد وقوعه فى منطق العقل والعدل بعد سماع مايوجب الإيمان به.

أما الذين يرون إبقاء التراخى على حقيقته، فإنهم يجدون فى الإصرار على الكفر بعد طول الاستماع إلى القرآن إبرازا لقبح الكفر، وسفاهة المصرين عليه، لأن الإصرار على الكفر بعد طول النظر

---

(١) تفسير البيضاوى ١٧/٨ (٢) حاشية الشهاب ١٧/٨ (٣) روح المعانى ١٤٣/٢٥

المستوجب للمعرفة والإيمان، أقبح من الإصرار قبل تبين الحقيقة واستيضاحها. لأنه كفر عن جهل، والأول عن علم ويقين. وأنت ترى أن مثل هذا الوجه من البلاغة لايستحقر. ولذلك كان التراخى الحقيقى أبلغ فى استبعاد إيمان اليهود، والإنكار على المسلمين طمعَهم فى إيمانهم، فى قوله تعالى : **﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون﴾** (١) ذلك أن تحريف كلام الله بعد طول الاستماع والتدبر الذى أكده بقوله "من بعد ماعقلوه" - ولايتم عَقْله الا بعد مهلة طال فيها الاستماع والتفهم - أدل على رسوخ الكفر، وأبعد فى الضلال، مما يجعل الطمع فى إيمانهم أشد بعدا وأعظم استنكارا.

وهذان الاحتمالان بالحقيقة والمجاز، أجازهما صاحب المنار فى قوله تعالى : **﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾**(٢) قال : (فللتراخى وجهان : أحدهما استبعاد توليهم، لأنه خلاف الأصل الذى يكون عليه المؤمن. وثانيهما أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وتروٍّ فى القبول وعدمه، وكان من مقتضى الإيمان ألايتردد المؤمن فى إجابة الدعوة إلى حكم كتابه الذى هو أصل دينه. أورده الأستاذ الإمام، وقال : على أنهم لم يكتفوا بالتردد حتى تولوا بالفعل، ولم يكن التولى عرضا حدث لهم بعد أن كانوا مقبلين على الكتاب، خاضعين لحكمه فى كل حال وآن، بل هو وصف لازم لهم، بل اللازم لهم ماهو شر منه، وهو الإعراض عن كتاب الله فى عامة أحواله) (٣)

فقد رأى القائلون بالمجاز أن الاستبعاد يبرز التناقض فى فكر أهل الكتاب وسلوكهم، إذ كان الشأن أن إيمانهم بكتابهم يسلم إلى الإيمان بما دعوا إليه من تحكيم كتاب الله بينهم، فإعراضهم عما دعوا إليه مستبعد فى حكم العقل.

---

(١) البقرة ٧٥ (٢) آل عمران ٢٣ (٣) تفسير المنار ٢١٩/٣

ورأى القائلون بالتراخى الزمنى أنه يبرز قبح توليهم وإعراضهم بإضافة التردد فيما كان الشأن ألا تردد فيه.

ومثل هذا الوجه من حقيقة التراخى ومايشيعه من تعظيم الجرم قال به ابن عطية فى قوله تعالى : **﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون﴾** (١) قال : (وقوله تعالى : "ثم اتخذتم"، تدل "ثم" على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر فى الآيات، وذلك أعظم فى دينهم) (٢) فى حين رأى أبوالسعود أن تقبيح هذا الفعل يُؤَدَّى بالتراخى المجازى فقال : (و"ثم" للتراخى فى الرتبة، والدلالة على نهاية فتح ماصنعوا) (٣)

بل إن هناك من أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز كما جاء فى التحرير والتنوير عند قوله تعالى : **﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾** (٤) فقال فى "ثم أنزل الله سكينته" : (و "ثم" دالة على التراخى الرتبى، فإن نزول السكينة ونزول الملائكة أعظم من النصر الأول يوم حنين، على أن التراخى الزمنى مراد، تنزيلا لعظيم الشدة وهول المصيبة منزلة طول مدتها (٥)

وهذا صريح فى الجمع بين الحقيقة والمَجاز، وهو مالم يجزه البيانيون، وإن أجازة الأصوليون ذاهبين إلى أن القرينة تمنع من الحقيقة وحدها، ولا تمنع من الجمع. قال الشيخ محمد الإنبابى تعليقا على قول الصبان فى تعريف المجاز : (وقرينة مانعة عن إرادته) : (قال العلامة الأمير : منه امتناع الجمع بين الحقيقة والمجاز، ومن أجازه من الأصوليين رأى أن القرينة تمنع من الحقيقة وحدها، أما عموم المجاز فجائز اتفاقا) (٦)

---

(١) البقرة ٩٢   (٢) المحرر الوجيز ٢٩٤/١

(٣) تفسير أبى السعود ١٣١/١   (٤) التوبة ٢٥-٢٦   (٥) التحرير والتنوير

وإذا كان ابن عاشور قد أجاز الجمع بين الحقيقة والمجاز فيما ذكرنا مخالفا أهل البيان، فإن غيره ممن أجازوا التراخى الرتبى والحقيقى فى المثال الواحد، لم يقولوا بالجمع بينهما، وإنما يرون صحتهما باعتبارين علي سبيل التبادل، لا على سبيل الجمع ، والممنوع فى المجاز هو إرادة الحقيقة مع المجاز. وذلك مانبه إليه العصام حين قال تعليقا على عبارة السعد عند تعريفه للكناية : "فظهر أنها تخالف المجاز من جهة إرادة المعنى الحقيقى مع إرادة لازمه" قال العصام : (والممنوع هو الجمع بين المعنى ولازمه، على وجه يكونان مقصودين استقلالا، ولامانع من الجمع على وجه يكون أحدهما تابعا للآخر، ووسيلة إلى قصده وفهمه)(١)

إن كثرة ترديد معنى "ثم" بين الحقيقة والمجاز راجع إلى أن قرائن المجاز فيها ليست قرائن لفظية، وإنما هى قرائن مستمدة من أغراض السياق. والفيصل فيها للأذواق وحدها. وذلك ما أثرى معانيها واتسع بدلالاتها وأسرارها، وكأن القرآن يعمد بذلك إلى استثارة العقول والأذواق، وإحماء الشعور لاستقبال الفيض الإلهى بما هو أهله من الوعى والتيقظ، للوقوع على أسرار نظمه، وإدراك مقاصده وأغراضه.

---

١٠. ١٥٧/١ (٦) حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية ٧٤

الفصل الثالث

التعقيب والمهلة فى مشتبه النظم

نظرة النحاة إلى اختلاف العاطِفَيْن :

من روائع مواقع الفاء وثم، وأدلها على إعجاز القرآن فى وضع الحرف موضعه الملائم له، ما تعاورتا فيه مواقعهما من مشتبه النظم الحكيم، ولدقة هذه المواضع وخفاء أسرارها اندفع الباحثون فى معانى الحروف إلى القول بصحة تبادل الحرفين مواضعهما، معللين ذلك بأن المعطوف الممتد زمنه إذا نُظر إلى ابتدائه قصر الزمن بينه وبين ماعطف عليه، فاستحق حرف التعقيب، وإذا نظر إلى انتهائه طال الزمن فاستوجب حرف المهلة. ورائد هذا القول هو الرضى، الذى تلقف تعليله هذا كثيرمن المفسرين، ورأوا فيه حلا لما التبس عليهم أمره فيما تبادل الحرفان فيه مكانيهما. قال الرضى : (ثم اعلم أن فائدة الفاء للترتيب بلا مهلة لاينافيها كون الثانى يحصل بتمامه فى زمن طويل، إذا كان أول أجزائه متعقبا لما تقدم، كقوله تعالى : ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة**﴾ (١)، فإن أخضرار الأرض يبتدىء بعد نزول المطر، لكن يتم فى مدة ومهلة، فجىء بالفاء نظرا إلى أنه لافصل بين نزول المطر وابتداء الاخضرار، ولو قال. ثم تصبح، نظرا إلى تمام الاخضرار جاز، وكذا قوله : "جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة" نظرا إلى تمام صيرورتها علقة، ثم قال : "فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما" نظرا إلى ابتداء كل طور، ثم قال : "ثم أنشأناه خلقا آخر" إما نظرا إلى تمام الطور الأخير، وإما استبعادا لمرتبة هذا الطور، الذى فيه كمال الإنسانية من الأطوار المتقدمة) (٢)

وبرغم إعجاب كثير من المفسرين بهذا التعليل للمغايرة بين الحرفين فى المواقع المتشابهة، فإننى أرى أن مثله لايقنع الباحث عن أسرار المغايرة، ومايشيعه كل حرف فى سياقه من دلالاته الخاصة،فضلا عن أنه لايجيب عن أهم سؤال، وهو لماذا أوثر كل حرف فى موضعه؟ أو بعبارة أوضح : لماذا نظر إلى الابتداء فجىء بحرف التعقيب تارة، ونظر

---

(١) الحج ٦٣ (٢) شرح الكافية ٣٦٧/٢

إلى التمام فجيء بحرف المهلة تارة أخرى؟ إن الإجابة على هذا السؤال هى التى تنكشف بها أسرار الحروف، وبغيرها تصبح مجرد تعليلات تبحث عن تصحيح وقوع الحرف، وتعُرض عن بيان وجه البلاغة فيه.

فليست فروق النظم مما تكشف عنها الأحكام العامة، وإنما تُتَلمس أسرارها فى دواعى الأحوال، ومقاصد الكلام التى يوسوس بها السياق، وهى وحدها التى تقطع بأن هذا الحرف أو ذاك وقع موقعه الذى لايمكن استبدال غيره به، وترجح اعتبارا على اعتبار آخر. وإليك الأمثلة :

الزمن فى أطوار النبات

ففى مقام التهوين من شأن الدنيا، واستقصار نعيمها إلى جانب ما أعده الله من النعيم المقيم فى الآخرة، أوثرت الفاء فى تصوير سرعة زوالها، لأنها وحدها التى تنهض بهذا الدور، فتضمر الزمن فى أحشائها، وتطوى عجلاته بسرعة لاتكاد العين تلمح دورانها، حتى لايفيق المشاهد إلا على أجراس نهاية الدنيا وزوال أثرها. قال تعالى : ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس**﴾ (١)

تأمل قوله " أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض"، كيف طوت فيه الفاء مابين إنزال الماء وتمام الإنبات، وهى مرحلة طويلة ممتدة، فلم تشهد الماء يختلط بالأرض ليحيى مواتها، وإنما رأينا النبات حيا ناميا يختلط بالماء لدى نزوله من السماء، وكأنما النبات نما وأزهر واستوى على سوقه قبل نزول الماء، حتى ينحصر زمن رؤيته فى التماعة خاطفة، فلايكاد يظهر حتى يختفى من الوجود، وهو الذى جسده الشرط وجوابه " حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها

(١) يونس ٢٤

أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا" فليس بين أخضرار الأرض وتزينها بالنبات، وبين إتيان أمر الله المعبر به عن الأهلاك زمن يذكر، لما أن الجواب يتعقب الشرط، وهكذا جاءت الفاء فى قوله "فجعلناها حصيدا" لتنهى هذا المشهد بمثل ما بدأته فى لمحة خاطفة، ويصبح كل شىء أثرا بعد عين. ذلك مثل الدنيا وزهرتها، فما أَحْمَقَ من يستبدلها بنعيم لاينقطع، ويتشبث بلحظة زائلة ليلقى نفسه فى عذاب مقيم.

وهكذا وبإيقاع أسرع جاء قوله تعالى : **﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا. المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾** (١)

فقد اختلطت رؤية النبات بنزول الماء، ولم تكد العين تقع عليه حيا مزهرا حتى ألْفَتْه هشيما يذهب أدراج الرياح، وكما لم تمهل العين للاستمتاع بالنظر فيما أنبتت الأرض، لم يمهل الفكر ليربط بين الماء وأثره فى حياة النبات، فعاجل الزمن الفكر بمثل ماعاجل البصر. إنها ظاهرة كونية واحدة أوجد الله بها وأعدم. رياح تمطر فتنبت، ورياح تعصف فتهلك، أرأيت دنيا تقوم وتنفض فى مثل ماتبدأ الريح وتنتهى؟! إنها أشبه ببيوت من الرمال يلهو بها الطفل، فهى تتهدم حالما تبنى.

يقول المرحوم سيد قطب : (وقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشهد، كما استخدمت وسيلة العرض الفنية لهذا الغرض. فهذا التعقيب الذى تمثله هذه الفاء فى تتابع المراحل، يتفق مع طريقة العرض السريعة. ثم هذا الماء النازل لاتختلط به الأرض فتنبت، بل يختلط به نبات الأرض مباشرة، وهذه حقيقة، ولكنها حقيقة تعرض فى الوضع الخاص الذى يحقق السرعة المطلوبة) (٢)

---

(١) الكهف ٤٥ - ٤٦ (٢) التصوير الفنى ١٠٨

ولعلك تسأل لم كان الإيقاع هنا أسرع من المثل السابق، ومشهد تصويره أقصر؟ والجواب أنه جاء عقب حوار بين كافر يتباهى بجنته، ويقطع بأنها لن تبيد أبدا، ومؤمن يحذره من عقاب الله تعالى، لينتهى هذا الحوار بقوله تعالى على لسان المؤمن : **﴿فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أويصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا. وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها﴾** (١)

فكما لم يمهل صاحب الجنة حتى يقلب بصره فى جنته قبل أن يقلب كفيه حسرة على ضياعها، كذلك جاء ضرب المثل للحياة الدنيا فى سرعة إيقاع سابقه، وكلاهما مثل لزهرة الدنيا وسرعة زوال نعيمها.

قلت : إن الدنيا أشبه ببيوت من الرمال يبنيها طفل على شاطىء ليلهو بها، فتنهدم حالما تبنى، لكن الطفل لاييأس من معاودة البناء كلما عاودها الهدم، وكأنه يرى متعته فيما يَعْجب الناظر إليه من صبره وطول أمله.

أترانى قد بعدت من قوله تعالى : **﴿أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾** (٢)

إنه تصوير للدنيا من داخل نفس الغارق فى ملذاتها، المخدَّر بزخرفها وزينتها، المتشبث بالأمل فى بقائها. إنه نفس الطفل الذى يلهو بما يصنعه من بيوت الرمال، لايمل من إعادة البناء ولايفقد الأمل فى أن تثمر محاولاته عن بيت يدوم له البقاء، إن الفرق بين الأمثلة السابقة التى ضربها الله للدنيا وبين هذا المثل، كالفرق بين إحساس

---

(١) الكهف ٤٠ - ٤٢ (٢) الحديد ٢٠

الطفل فى استمتاعه بما يبنى ويعيد من بناء دون أن يتطرق إليه اليأس، وبين مايراه الراقب له المتعجب لصبره وطول أمله، فهذا الأخير يرى الدنيا على حقيقتها، بناء يتهدم بنفس السرعة التى يبنى بها، وذلك الطفل يراها رخيّة طويلة يلهو بها ماوسعه الوقت للهو، ويتشبث بالبقاء وطول الأمل.

لذلك جاء حرف التراخى ليعكس صورة الدنيا فى أعماق نفس اللاهى بها فيطيل زمن إعجاب الكفار بنباتهم رمزا إلى استغراقهم فى ملذات الدنيا، وغفلتهم عما وراءها، ويدخل مرة ثانية بين اصفرار النبات وصيرورته حطاما، ليرمز إلى طول الأمل والتشبث ببقائه، حتى وهم يرون نهايته فى ذبوله واضمحلاله. وكأنهم أرادوا الاستمتاع بالدنيا إلى آخر لحظة فيها وفى أعمارهم، لذلك قابل الله طول الغفلة بمضاعفة العذاب" وفى الآخرة عذاب شديد".

ففى الأمثلة السابقة تصوير لحقيقة الدنيا كما يراها خالقها، وفى هذا المثل تصوير لها من خلال أعين الغارقين فيها، المستمتعين بلهوها ولعبها، وكان حرفا التعقيب والتراخى أداتى ضبط المسافات فى عدسة التصوير، تقّرب وتبعّد، وتكبّر وتصغّر طبقا لما يراه المصور.

وقد كان صاحب التصوير الفنى دقيقا حين ربط بين أداة العطف، ومايراد لها أن تؤديه لتحقيق أغراض الكلام ومقاصده، فقال : (فالصورة المعروضة لقصر الحياة متحدة تقريبا مع الصورة الأولى، ولعل هذا يخيل للبعض أن هناك تكرارا كاملا، ولكن الواقع أن هناك اختلافا دقيقا، إنه أطال عرض شريط الحياة الدنيا - كما يراه الكفار - فهى لعب ولهو، وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد، ليقول : إن هذا الذى تعجبون به كله، وهذا الذى تستطيلون أمده، إنما هو فى حقيقته قصير زائل) (١)

لقد قلت من قبل : إن هناك فارقا بين تصوير حقيقة الزمن،

(١) التصوير الفنى ١٠٩

وتصوير الإحساس به، وضربت لذلك مثلا بقوله تعالى فى قصة العزير: **﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم﴾** (١) فعبر الله فيما حكاه عن حقيقة الزمن، وجاء بثم الدالة على طول زمن موته، وعبَّر العزير عن إحساسه به فرآه يوما أو بعض يوم، فصدق فى التعبير عما أحسَّ به، وإن كان مخالفا لحقيقة الزمن، وهذا هو الفرق بين حقيقة الدنيا كما يريد الله أن يراها أولو الألباب، وبين إحساس الغارق فيها، المستطيل لأمدها حتى لم يعد يرى ماوراءها.

ثم انظر كيف يؤثر الله حرف المهلة فى مجال الامتنان بنعمة نزول الماء وأثره فى حياة الإنسان والنبات، فيطيل المشهد ويبطىء فى إيقاعه، ليتيح الفرصة للتدبر وإدراك عظيم قدرة الله تعالى، فيما نشاهد من عجائب صنعه، كما فى قوله تعالى : **﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب﴾**(٢)

فهذا مجال التذكر وإنعام النظر، وذلك يناسبه مطُّ الزمن وعرض المشهد فى بطء، ليدرك المشاهد تفاصيله، ويقع على ماخفى ودق منه، لذلك لم يعقب نزولَ الماء خروجُ النبات، وإنما نبه إلى أمر هو من أعظم دلائل القدرة، وإن غاب عن النظر، لكثرة دورانه على الحس، وهو قوله "فسلكه ينابيع فى الأرض" فأراك مرحلة طواها فى الأمثلة السابقة، وهى حركة الماء يجرى أنهارا فوق سطح الأرض، أويتسرب إلى باطنها، فيجرى تحت طباقها ليمثل مخزونا يتفجر آبارا وعيونا، وقد جاء حرف المهلة فى قوله "ثم يخرج به زرعا" ليطيل زمن التأمل فى الماء وهو يأخذ طريقه إلى باطن الأرض، يمهد لخروج النبتة الصغيرة، ويشق لها حجب الأرض، ويزيل عن سطحها أثقال الركام، وكل مايعيق طريقها إلى النور والهواء، وكأن الماء لايروى ظمأها فحسب، وإنما يفتح لها نوافذ

---

(١) البقرة ٢٥٩ (٢) الزمر ٢١

الخروج إلى الحياة ، وهذا هو سر التعبير بالإخراج، ولما كان الزرع باختلاف ألوانه يستدعى طول التأمل والنظر فيما أبدع الله من هذا التنوع فى الألوان والطعوم والروائح فى نبات تحتضنه تربة واحدة، ويسقى بماء واحد، دخلت ثم فيما عطف عليه لتطيل زمن المشاهدة "ثم يهيج فتراه مصفرا". حتى هذه المرحلة من الشيخوخة لايستعجل القرآن عرضها، لأنها طور من أطوار النبات، فلايتعجل بنهايته قبل بلوغ الغاية التى أرادها الله " ثم يجعله حطاما" وفى تأملها ضرب من الاستبصار.

إنه مقام الدعوة إلى تدبر أسرار الخلق، وتأمل بدائع الصنعة، والوقوف على جلائل النعم، وماسخر الله تعالى للإنسان من مقومات الحياة، (فبطء عرضها، ولُبث صورها)، وتملى مشاهدها، أجدر بالموقف، ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل) (١) وليس سوى حرف المهلة أداة ربط أخرى قادرة على الوفاء بهذا الغرض.

الزمن فى أطوار الإنسان

أماقوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ (٢) وهو الذى علل الرضى اختلاف العاطف فيه باختلاف النظر إلى بداية الطور أو تمامه، فإنه بحاجة إلى تحقيق، لأن اختلاف الاعتبارات فى النظر - على فرض التسليم به - تابع لاختلاف الدواعى والأغراض، وفيه يكمن السر فى إيثار حرف على آخر. لأن مدة كل طور من النطفة والعلقة والمضغة - كما حددها الرسول عليه السلام - هى أربعون يوما، فإما أن تستقصر جميعها فيؤتى بحرف التعقيب أو تستطال جميعها فيجتلب لها حرف المهلة. أما أن ينظر إلى بداية الطور تارة وإلى تمامه تارة أخرى فذلك لابد له من موجب، وهو مالم

---

(١) التصوير الفنى ١١٢ (٢) المؤمنون ١٢ - ١٤

يكشف عنه الرضى، لذلك رأى الشهاب أن مثل هذا الجواب ناقص، وأن تمامه فيما صرح به البيضاوى بقوله! " واختلاف العواطف لتفاوت الاستحالات" فقال الشهاب تعليقا عليه : (يعنى عطف بعضها بثم الدالة على التراخى، وبعضها بالفاء التعقيبية، مع أن الوارد فى الحديث من أن مدة كل استحالة أربعون يوما يقتضى أن يعطف الجميع بثم، إن نظر لتمام المدة، أو لأولها، أو بالفاء إن نظر لآخرها، كما قال النحاة : إن إفادة الفاء الترتيب بلا مهلة لاينافى كون الثانى يحصل بتمامه فى زمان طويل، اذا كان أول أجزائه متعقبا لآخر ماقبله، وهذا يصحح عطف بعضها على بعض بثم، وبعضها بالفاء. لكنه لايتم به الجواب - كما توهم - إذ لابد من المرجح للتخصيص، وإليه أشار المصنف بقوله : "لتفاوت الاستحالات" يعنى أن بعضها مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف بثم، فجعل الاستبعاد عقلا أو رتبة بمنزلة التراخى والبعد الحسى، لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جدا، وكذا جعل تلك النطفة البيضاء دما أحمر، بخلاف جعل الدم لحما مشابها له فى اللون والصورة، وكذا تثبيتها وتصليبها حتى تصير عظما، لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد، وكذا مد لحم المضغة عليه ليستره) (١)

فالتراخى بين النطفة والعلقة تجوز بالاستبعاد، للدلالة علي تفاوت مابين الخلقين، أما خلق المضغة من العلقة وتحويل المضغة عظاما فليس بينها من التفاوت والبعد مابين النطقة والعلقة، لذلك دخلت الفاء بينها.

وهذا كلام وجيه لو أنه أطَّرد فى الذكر الحكيم. لكن يعكر عليه ماجاء فى سورة الحج من قوله : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم**﴾(٢) فقد دخلت "ثم" بين المضغة والعلقة. وليس بينهما من التفاوت والبعد

---

(١) حاشية الشهاب ٦/٣٢٣ (٢) الحج ٥

مايستدعى حرف المباعدة كما قال.

ولصاحب المنار كلام أكثر دقة فى الكشف عن سر اختلاف العواطف فى الموضع الأول. قال (فالسلالة المستخرجة من الطين هى المكون الأول الذى يعبرون عنه بلسان العلم الآن بالبروتوبلازما، ومنها تكون أصلنا فى ذلك الطور، لأنه تعالى يقول : خلقه من تلك السلالة، ثم انتقل إلى طور التولد بواسطة النطفة فى القرار المكين، وهو الرحم، ثم انتقل الى طور تحول النطفة إلى علقة، والعلقة إلى مضغة، والمضغة إلى هيكل من العظام يكسى لحما، وقد عد هذا طورا واحدا، ثم أنشأه خلقا آخر، وهو آخر أطواره) (١)

فالعلقة والمضغة والعظام طور واحد، ولذلك دخلت الفاء بين مراحله للدلالة على اتصالها، ودخلت ثم بين الأطوار الأخرى للدلالة على تباينها، وشدة التفاوت بينها. يدل لذلك ماجاء فى سورة غافر فى بيان أطوار خلق الإنسان، حيث اكتفى بالعلقة عن المضغة والعظام، وجعلها طورا مستقلا، ولو كانت كل من المضغة والعظام طورا قائما بذاته، لما كانت صالحة للاختزال. قال تعالى : **﴿هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا﴾** (٢) فالتقت هذه الآية مع ماجاء فى سورة المؤمنون من بيان الأطوار الأربعة : السلالة، وهى التراب، والتولد بواسطة النطفة، ومراحل تكون الجنين فى بطن الأم، وإخراجه طفلا، المعبر عنه هناك بالخلق الآخر، فلم يختزل من الأطوار الرئيسة شيئا، واختزل من طور تكون الجنين بعض مراحله.

يبقى بعد ذلك بيان السر فى عطف المضغة على العلقة فى سورة الحج بثم مع أنها مرحلة متصلة بها، داخلة فى طورها.

وأراه - والله أعلم - نابعا من اختلاف الخطاب، فالخطاب فى الموضع الأول للمؤمنين وهم الذين استهلت بهم السورة **﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم فى صلاتهم خاشعون﴾** (٣) وتتابعت أوصافهم

---

(١) تفسير المنار ٣/٢٦٣ (٢) غافر ٦٧ (٣) المؤمنون ١ - ٢

التى أورثوا بها الفردوس الأعلى، إلى أن جاءت قصة الخلق هذه ليكشف الله تعالى فيها للمؤمنين عن أسرار خلق الإنسان، وأطوار تكونه، بدءا من أصل سلالته، وانتقالا إلى طور التولد، ومرورا بتفصيل مراحل نموه فى بطن أمه، وانتهاء بخلقه بشرا سويا.

فالمقام مقام إعلام سيقت فيه للمخاطب أطوار الخلق بحقائقها وتفاصيل مراحلها، ليعلم بها ماكان جاهلا، وينكشف له ماكان خافيا، والمخاطب هنا باحث عن المعرفة، مستقبل لها استقبال الموقن بصدق الخبر.

أما آية الحج فالمخاطب فيها منكر للبعث وسيقت له قصة الخلق لبيان قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، فاستدعى مقام الإنكار تعديد الأطوار، وإبراز مراحل الطور الواحد فى صورة أطوار متعددة، باعد بينها حرف التراخى، ليظهر عظيم قدرة الله فى أن يخلق الشىء من أبعد مايكون عنه مادة وجنسا، ومايستحيل فى العقل والعادة أن يُكوّن منه، كما يستحيل أن يكون التراب ماء، أو يتحول الماء دما، أويصير الدم الجامد لحما تنبض فيه الحياة. حتى يخجل المعاند حين يرى فى كل طور من أطوار خلقه ماهو أعظم من البعث، ويرعوى عن مكابرته، ويسلم بأن الذى بدأ هذا الخلق هو الذى يعيده، وهو أهون عليه، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض. ألا ترى كيف بدأت آية الحج بهذا الخطاب "يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب .." إن هذا الخلق فى كل طور من أطواره يشهد بقدرة الله تعالى على البعث، بل إن أقل المراحل بعدا، وأقربها إلى الاتصال، وهى الانتقال من العلقة إلى المضغة لهى مستبعدة فى حكم العقل، فلا تستحيل العلقة مضغة إلا على يد قادر عظيم، لايستبعد من مثله أن يعيد الخلق كما بدأه، فكان حرف التراخى هو الأجدر بمقام التعديد والاستبعاد، وبه صارت المضغة طورا آخر مباينا للعلقة، فى قوله "ثم من مضغة" فى حين دخلت الفاء فى خطاب المؤمنين المصدقين، لتصل بين مراحل الطور الواحد، وذيلت قصة الخلق فى خطابهم بقوله

"فتبارك الله أحسن الخالقين" لتلهج ألسنتهم بما أيقنت به قلوبهم، وشفعت قصة الخلق فى خطاب المنكرين بقوله : **﴿ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير. وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾** (١) فكان اختلاف الخطاب سبيلا إلى اختلاف العواطف.

طىّ زمن التذكير ومَطْله

ومما اختلفت فيه العواطف من مشتبه النظم الكريم، قوله فى سورة الكهف : **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا﴾**(٢) فعطف على التذكير بالفاء، فى حين عطف بثم فى قوله تعالى من سورة السجدة : **﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾** (٣)

والحقيقة أن الإعراض أعقب التذكير فى الحالين، فالموضع موضع الفاء، وقد اقترض حرف المهلة موضع الفاء، مرتديا ثوب المجاز بالاستبعاد، إيماء إلى سفه المعرضين، ومخالفتهم لما يقضى به العقل والمنطق من لين القلوب بالتذكير، واستجابتها لدعوة الحق. هكذا علل أهل البيان من المفسرين دخول ثم فى هذه الآية، لكنهم سكتوا عن بيان السر فى ترك هذه المبالغة فى التشديد والإنكار المفادة بحرف المهلة فى سورة الكهف، حيث جىء بالفاء الدالة على المسارعة، وهو ماهدى الله تعالى الخطيب الإسكافى إلى بيانه، من خلال الربط بين دلالات الحرف ومقتضيات السياق. يقول الخطيب : (والجواب أن يقال : إن الفاء وثم مشتركان فى أن مابعدهما فى اللفظ متأخر عما قبلهما فى المعنى، ومختلفان فى أن فى الفاء قرب مابعدها مما قبلها، وفى ثم تراخيا عنه وبعدا، فكان استعمال الفاء فى سورة الكهف أولى، واستعمال "ثم"

---

(١) الحج ٦ - ٧ (٢) الكهف ٥٧ (٣) السجدة ٢٢

هناك أحق وأحرى. وذلك أن مافى سورة الكهف فى ذكر قوم يستدعون إلى الإيمان، ولم تختم أعمالهم بالكفر، لقوله تعالى : **﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا﴾**(١) فكأنهم عقبوا التذكير بآيات الله الإعراض. وقبولُهم للدين، وإقبالهم عليه مرجوان منهم، وليس كذلك "ثم أعرض عنها" الآية فى وصف الكفار بعد موافاتهم القيامة، لقوله : **﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم﴾** (٢) إلى قوله : "**ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون. ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها**" أى ذكّر مدة عمره بآيات ربه، وتطاول الأمر بزجره ووعظه، ثم ختم ذلك بترك القبول وبالإعراض، فكان هذا قولا يقال فيهم عن الانتقام منهم) (٣)

ولايضير الإسكافى أن أجرى "ثم" على حقيقتها بخلاف الزمخشرى ومن لف لفَّه، ممن جعلوها مجازا بالاستبعاد، لأنهما يلتقيان فى أنها أكثر تشديدا وزجرا من الفاء، والأعراض بها أقبح وأفظع، إما لغرابته وبعده فى ترتبه على مايوجب الإقبال، كما هو مدلول المجاز، وإما لما فيه من الإصرار والتمادى على الباطل بعد طول التذكير، كما هو مفهوم الحقيقة.

تعجيل النظر وتأجيله

ومن عجيب المغايرة فى مشتبه النظم، تلك الآيات التى دعا الله فيها إلى السير فى الأرض للنظر فى آثار الهالكين، والاتعاظ بمصائرهم، فعطف النظر على السير بالفاء فى أحد عشر موضعا، وعطف بحرف التراخى مرة واحدة، فمما عطف بالفاء قوله تعالى : **﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾** فى ثلاثة مواضع (٤). وقوله : **﴿أو لم يسيروا فى الأرض**

---

(١) الكهف ٥٦ (٢) السجدة ١٢

(٣) درة التنزيل ٢٨٣ (٤) يوسف ١٠٩، وغافر ٨٢، ومحمد ١٠

فينظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فى ثلاثة مواضع أخرى [١] وجاء بصيغة الأمر **﴿فسيروا فى الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[٢] **﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾**[٣] **﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾** [٤]

والمرة الوحيدة التى عطف فيها بحرف المهلة قوله تعالى من سورة الأنعام : **﴿قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** [٥] فتكاثرت الآراء فى بيان سر هذه المخالفة. قال الزمخشرى: (فإن قلت : أى فرق بين قوله "فانظروا" وبين قوله "ثم انظروا"؟ قلت : جعل النظر مسببا عن السير فى قوله " فانظروا" فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر، ولاتسيروا سير الغافلين. وأما قوله "سيروا فى الأرض ثم انظروا" فمعناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجاب النظر فى آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم لتباعد مابين الواجب والمباح) (٦)

فجعل التعقيب دليلا على إخلاص السير لأجل النظر، والتراخى دليلا على الانشغال بأعمال أخرى مباحة كالتجارة وغيرها قبل النظر، وهو كلام يحتاج إلى تعليل اختيار "ثم" لهذا الموضع وحده، لتدل على مادلت عليه من إباحة السير للتجارة وغيرها. وهو الذى دفع أباحيان الى اعتراضه بقوله : (ودعوى أن الفاء تكون سببية لادليل عليها، وإنما معناها التعقيب فقط، وأما مثل : ضربت زيدا فبكى، وزنى ماعز فرجم، فالتسبيب فهم من مضمون الجملة، لا لأن الفاء موضوعة له، وإنما يفيد تعقيب الضرب بالبكاء، وتعقيب الزنا بالرجم فقط، وعلى تسليم أن الفاء تفيد التسبيب، فلم كان السير هنا سير إباحة، وفى غيره سير واجب؟ فيحتاج ذلك إلى فرق بين هذا الموضع، وبين تلك المواضع) [٧]

---

(١) الروم ٩ وفاطر ٤٤ وغافر ٢١. (٢) آل عمران ١٣٧، والنحل ٣٦ (٣) النمل ٦٩
(٤) الروم ٤٢ (٥) الأنعام ١١ (٦) الكشاف ٧/٢ (٧) البحر المحيط ٨١/٤

وبالرغم من أننا لانوافق أبا حيان على سلب معنى السببية من الفاء وهو الذى أثبته جمهور النحاة، فإننا نرى اعتراضه على اختصاص ثم بهذا الموضع دون تفسير سبب اختصاصها به وجيها. لذلك لم يسترح صاحب الإنصاف الى تأويل الزمخشرى، ذاهبا إلى التجوز فى حرف المهلة بالتراخى الرتبى. فقال : (وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحدا، ليكون ذلك سببا فى النظر، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية، وحيث دخلت "ثم" فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لاغير، وشتان بين المقصود والوسيلة) (١)

لكن هذا أيضا لايدفع اعتراض أبى حيان، إذ يبقى السؤال قائما، وهو لماذا خصت آية الأنعام بجعل النظر هو المقصود والسير وسيلة إليه؟

والأولى فى نظرى حمل ثم على حقيقتها، والبحث فى دواعى السياق ومقتضياته عن السر فى تراخى النظر فى هذه الآية، وهو ماوقع عليه صاحب درة التنزيل، وكشف عنه فى عبارة دقيقة واضحة : (فقوله فى سورة الأنعام : "قل سيروا فى الأرض ثم انظروا" لم يجعل النظر فيه واقعا عقيب السير، متعلقا وجوده بوجوده، لأنه بعث على سير بعد سير، لما تقدم من الآية التى تدل على أنه تعالى حداهم على استقراء البلاد، ومنازل أهل الفساد، وأن يستكثروا من ذلك ليروا أثرا بعد أثر، فى ديار، بعد ديار، قد عم أهلها بدمار، لقوله تعالى : **﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم﴾** ثم قال : **﴿فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾** ثم ذكر فى قوله "كم أهلكنا من قبلهم من قرن" يعنى قرونا كثيرة قبلهم أهلكناهم، ثم قال "وأنشأنا بعدهم قرنا آخرين" فدعا الى العلم بذلك بالسير فى البلاد ومشاهدة هذه الآثار، وفى ذلك ذهاب أزمنة كثيرة، ومدد طويلة تمنع النظر من ملاصقة السير، كما قال فى

---

(١) الإنصاف ٢/٧

المواضع الأخر التى دخلتها الفاء، لما قصد من معنى التعقيب واتصال النظر بالسير، إذ ليس فى شىء من الأماكن التى ستعملت فيها الفاء مافى هذا المكان من البعث على استقراء الديار)[١]

فليس التراخى فى النظر دليل الانشغال بغيره، وإنما استدعاه الإكثار من السير وتفقد آثار الأمم الكثيرة البائدة فى العصور المتباعدة، واستيفاء الإحصاء، والوقوف على المقدمات قبل الوصول الى النتائج، لأن النظر المراد هنا نظر الفكر والتأمل، فلما كانت الدعوة إلى السير متسعة فى هذا الموضع زمانا ومكانا بقدر اتساع الهالكين وآثارهم تراخت الدعوة إلى النظر حتى لاتكون نظرة عجلى حمقاء تحمل الكل على الجزء.

أثر الزمن فى مضاعفة العذاب

ومن دقيق ما اشتبه نظمه وغوير فيه بين العواطف. قوله تعالى فى سورة الصافات : ﴿**أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم. إنا جعلناها فتنة للظالمين. إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين. فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون. ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم**﴾ [٢] فعطف الشرب على الأكل بحرف المهلة. وفى سورة الواقعة جاء قوله عز وجل : ﴿**ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الهيم. هذا نزلهم يوم الدين**﴾ [٣] فعطف الشرب بحرف التعقيب، مع أن المأكول منه فى الموضعين واحد، وهو شجرة الزقوم، وفيهما معا يأكلون حتى تمتلىء بطونهم، فما سر هذا الاختلاف؟

لقد ذكر الزمخشرى وجهين للتراخى فى سورة الصافات، ذهب فى أحدهما إلى الحقيقة، وفى الثانى إلى المجاز، والسر فى الأول زيادة

---

(١) درة التنزيل ١١٢ (٢) الصافات ٦٢ - ٦٧ (٣) الواقعة ٥١ - ٥٦

تعذيبهم بالعطش، وفى الثانى التدرج فى التعذيب، والارتقاء إلى ماهو أكره وأبشع. يقول جار الله فى بيان الوجهين (أحدهما أنهم يملأون البطون من شجر الزقوم، وهو حارّ يحرق بطونهم ويعطشهم، فلايسقون إلا بعد ملى، تعذيبا بذلك العطش، ثم يسقون ماهو أحر، وهو الشراب المشوب بالحميم. والثانى أنه ذكر الطعام بتلك الكراهة والبشاعة، ثم ذكر الشراب بما هو أكره وأبشع، فجاء بثم للدلالة على تراخى حال الشراب عن حال الطعام، ومباينة صفته لصفته فى الزيادة عليه) (١)

إلا أن القول بالتراخى الزمنى يأباه ماجاء فى الموضع الآخر معطوفا بالفاء، وهو ماكان مثار الاعتراض عليه. قال الألوسى : (واعترض بأنه يأباه عطف الشرب بالفاء فى قوله تعالى : "فمالئون منها البطون. فشاربون عليه من الحميم" فلابد من عدم توسط زمان. وأجيب بأنه يجوز أن يكون الشراب المزوج بالحميم متأخرا بزمان عن ملئهم البطون، دون شرب الحميم وحده. وكذا يجوز أن يكون الحال مختلفا، فتارة يتأخر الشرب مطلقا زمانا، وأخرى لايتأخر كذلك. وقال بعضهم : ملؤهم البطون أمر ممتد، فباعتبار ابتدائه يعطف بثم، وباعتبار انتهائه بالفاء) (٢)

ولايخفى عليك أن هذه التجويزات تعليلات عقلية، وتصورات لادليل عليها، كما أن القول الأخير بامتداد زمن ملء البطون، وأن المغايرة راجعة إلى اختلافات النظر بين الابتداء والانتهاء لايفسر وجه اختلاف الاعتبارات. فهل يصح أن يعكس الأمر وينظر إلى الابتداء فى سورة الواقعة، فيقال : ثم شاربون عليه من الحميم، بوضع حرف المهلة موضع حرف التعقيب، أو يقال فى سورة الصافات : فإن لهم عليها لشوبا، بوضع الفاء موضع ثم؟

إذا كانت الإجابة نعم فإنه يخرج عن دائرة النظم المعجز، الذى لايمكن أن يستبدل فيه حرف بآخردون أن يتغير المعنى ويختلف الغرض. وإذا أجيب بلا، رجعنا إلى مابدأنا به وهو لماذا؟ وماسر كلٍّ فى

---

(١) الكشاف ٣٤٢/٣ (٢) روح المعانى ٩٦/٢٣

موضعه؟

وأراه - والله أعلم - أن الحديث فى سورة الصافات كان منصبا على شجرة الزقوم، والتهويل من شأنها. وتفظيع الأكل منها، بدليل أن الحديث بدأ بالتساؤل عنها، وبيان أوصافها مستغرقا خمس آيات، وعطف الشرب على الأكل منهافى آية واحدة، واتسمت أوصافها بما يبعث الرعب والفزع من شكلها ومأكلها، وحفلت بشتى وسائل التوكيد والإيضاح، حتى بدت وكأنها أفظع مافى الجحيم من ألوان العذاب. ألا ترى إلى قوله : "إنا جعلناها" ومافيه من ضمائر المعظم ذاته، إلى مافيه من التوكيد، مما يصبغ المجعول بسطوة المتكبر الجبار، وقوله " إنها شجرة" بما يبثه ضمير القصة مع التوكيد والتنكير من غرابة وغموض مخيفين، ثم هذا التشبيه الغريب المدهش "طلعها كأنه رءوس الشياطين" بما يوحيه من أنه لم تقع عين فى دنيا المرئيات على شبه لها فظاعة وقبحا، حتى انتزع لها مما استقر فى أوهام الناس ماهو أقبح الأشياء صورة وأشدها هولا.

فلما كان الغرض هو تفظيع هذه الشجرة والتهويل من شأن الأكل بها، كانت إطالة زمن الأكل منها هى الأنسب بهذا الغرض، وكأنهم كلما آلمهم الأكل منها، واشتد بهم العطش ليطفئوا من نارها فى بطونهم زيدوا من الأكل منها تشديدا فى العذاب عليهم. بخلاف السياق فى آية الواقعة، حيث كان الغرض أن يجمع للضالين بين ألوان من العذاب، متمثلة فى شر المأكل والمشرب وبولغ هناك فى الشرب بدليل تكراره، فدخلت الفاء للترقى من عذاب شديد فيما يأكلون إلى عذاب أشد فيما يشربون.

المجازاة بين المبادرة والإمهال

ومن مواضع المغايرة كذلك ماعطف فيه الإنباء بالعمل على الرجوع إلى الله بالفاء فى جميع ماجاء بالذكر الحكيم، عدا موضعا واحدا عطف فيه بحرف التراخى. فمما عطف بالفاء قوله تعالى خطايا

لليهود : **﴿قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** (١).
وقوله خطابا للمشركين: **﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولايرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولاتزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** (٢)

أما العطف بثم فقد جاء مرة واحدة فى قوله تعالى : **﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾** (٣)

وقد تطلبت تفسيرا للمخالفة فى سورة الأنعام التى انفردت بحرف التراخى، فلم أعثر على ضالتى فى كل ماقرأت، ولم يُقرنه أحد بموضع من مواضع الفاء ليستجلى سر المغايرة. وقد هدانى الله تعالى بعد طول تأمل ومراجعة إلى ما أرجو أن يكون مقصدا من مقاصد النظم فى إيثار حرف التراخى.

ذلك أن الرجوع إلى الله فى غير آية الأنعام، يقع كناية عن لقاء الله للمجازاة على عمله، وإنباءُ الله المجازين بعملهم ضربٌ من المحاسبة يعقب الرجوع إلى الله يوم القيامة، فهو كقوله **﴿فوجد الله عنده فوفاه حسابه﴾** (٤) فدخلت الفاء للدلالة على أن الحساب يعقب الرجوع الى الله بلاتراخ، والدليل على ذلك أن الآية الأولى التى خوطب بها اليهود من سورة الجمعة، عطف فيها ردّهم إلى عالم الغيب والشهادة، على ملاقاة الموت للفارين، فالرد إلى الله بالقطع ليس كناية عن الموت، لأنه عطف عليه، و"ثم" فيه لتراخى الزمن بين ردهم إلى الله يوم القيامة وموتهم. فعطف الإنباء عليه بالفاء لتعقبه ردّهم إلى ربهم.

وكذلك قوله تعالى فى الزمر "ثم إلى ربكم مرجعكم" كنى به عن مثولهم بين يديه للمحاسبة والمجازاة، لأنه تهديد بالمؤاخذة والجزاء على

---

(١) الجمعة ٨ (٢) الزمر ٧ (٣) الأنعام ٦٠ (٤) النور ٣٩

الشكر والكفر، وقد أعقب " ولاتزر وازرة وزر أخرى" الذى يلائمه أن يكون الرجوع هو المجازاة والفصل بين أصحاب الأوزر، وأخذ كل بما جنت يداه، لا بما جنت يد غيره. لذلك قال الرازى : (ثم بين أحواله بعد الموت بقوله ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾)(١) فصرح بأن الرجوع من أحوال القيامة وجعله دليلا عليها وعلى البعث، فكان عطف "فينبئكم بما كنتم تعملون" بالفاء، إشارة إلى سرعة المحاسبة والجزاء.

أما آية الأنعام فقد اختص الرجوع فيها بالكناية عن الموت، ووقع الإنباءبالعمل كناية عن المجازاة، وهو ماصرح به البيضاوى فى قوله : ("ثم إلى ربكم مرجعكم" بالموت، "ثم ينبئكم بما كنتم تعملون" بالمجازاة عليه) (٢) فكان ذلك موقع حرف المهلة لما بين الموت والمجازاة يوم القيامة من زمن طويل ممتد، فالتراخى على حقيقته، وذلك موضعه الذى لايصلح فيه سواه.

لكن يبقى أن يقال : لم خصت آية الأنعام بجعل الرجوع إلى الله كناية عن الموت، دون سواها؟ والجواب على ذلك هو أن الآية رد على منكرى البعث، وفيها ضرب الله المثل للإماته والإحياء فى شخص المنكر نفسه، وفيما يتكرر عليه صباح مساء، مما أحاله دوام المشاهدة والتكرر على الحس إلى عادة خفى معها الدليل الماثل على إمكان البعث. فما النوم إلا ضرب من الموت، ونموذج له، يفقد فيه النائم أهم خصائص الأحياء من الإحساس والتمييز. وما اليقظة سوى بعث وإعادة، يسترد معها المستيقظ مقومات الحياة التى سلبت منه بالنوم، لذلك سمى الله النوم وفاة، واليقظة بعثا، ثم جعلهما نموذجا ودليلا على الموت، المعبّر عنه بالرجوع إلى الله، والبعث المدلول عليه بالمجازاة والمحاسبة، فى قوله "ثم ينبئكم بما كنتم تعملون" فلو اختصرت مرحلة الموت، ،وجعل الرجوع والإنباء بالعمل معا كناية عن المجازاة والمحاسبة يوم القيامة، كما فى الآيات الأخرى، لما تطابق المثل والممثَّل له. وهذا أروع دلائل الإعجاز فى وضع الحرف موضعه الذى لاتتحقق أغراض النظم بحرف سواه.

---

(١) تفسير الرازى ٢٤٨/٢٦ (٢) تفسير البيضاوى ٧٥/٢

تطويع الزمن لأغراض النظم

ومما دق أمره وخفي وجه المغايرة فيه ماجاء على لسان النبى الكريم تحديا للمشركين وشركائهم، وماجاء على لسان هود متحديا قومه وآلهتهم، قال تعالى فى النّعْى على المشركين، وأمره للنبى بتحديهم وشركاءهم : ﴿**أيشركون مالايخلق شيئا وهم يخلقون. ولايستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون. وإن تدعوهم إلى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون. إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون**﴾[١] فعطف طلب الكيد بثم. وعدم الإنظار بالفاء.

وجاء على العكس في تحدى هود، فعطف طلب الكيد بالفاء، وعدم الإنظاربحرف المهلة. قال تعالى : ﴿**قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين : إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله وأشهدوا أننى برىء مما تشركون. من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون**﴾ [٢]

وحين نفتّش عن سبب هذه المغايرة، فيما يبدو كالموضع الواحد، نجد أن سورة الأعراف سبق فيها التحدى بتحقير الشركاء، والنعى على عقول عبدتها، لأنهم يعبدون مخلوقين أمثالهم، لايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا، فضلا عن أن يضروا عابديهم أو ينفعوهم، لذلك أمر المشركين أن يدعوا هؤلاء الشركاء، ويتضامنوا معهم فى الكيد له، وأمهلهم من الزمن مايتيح لهم فرصة الاستعداد والاحتشاد له، فعطف الأمر بالكيد على الأمر بدعوة شركائهم بحرف المهلة، إمعانا فى الاستهانة

---

(١) الأعراف ١٩١ - ١٩٥ (٢) هود ٥٣ - ٥٥

بالشركاء، وعدم مبالاة بكيدهم، وجاء عطف عدم الإنظار بالفاء، إغراقا فى التحدى والاستهانة، حين لايطلب لنفسه نفس المهلة للرد على كيدهم، فطلب معاجلته بالقضاء عليه إن استطاعوا، وفى ذلك من التحقير والتهكم مالامزيد عليه.

أما فى سورة هود فإنهم صرحوا بأن آلهتهم قادرة على إنزال الضُّرّ به، والكيد له، بل إنهم ادعوا حدوث ذلك فى قولهم : "إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء" فإذا كانوا يثبتون لآلهتهم هذه القدرة على إنزال البشرية، فليس بحاجة إلى أن يطلب منهم دعوتها، وإمهالهم لحشد قواهم، فهم قد بدءوا حربه بالفعل، فطلب منهم التعجيل بالكيد له والقضاء عليه، فأدخل الفاء على الأمر بالكيد لتدل على طلب المبادرة به، لما أن آلهتهم مستعدة لعقابه على مازعموه، فكان الإمعان فى التحدى أن يمهلهم وآلهتهم ليبلغوا بالكيد غايته، ويستنفدوا معه كل أسلحتهم، لذلك دخلت "ثم" بين الكيد وعدم الإنظار لتطيل زمن الكيد وترخى لهم العنان فيه، حتى يكون عدم إمهاله هو الغاية والهدف الأسمى من الكيد، على مايفيده التراخى الرتبى.

وانظر إلى هذا الإعجاز فى التناغم بين المهلة الزمنية التى أشاعتها "ثم" على فعل الكيد، وبين إثبات ياء المتكلم فى قوله "فكيدونى" لتطيل زمن النطق بالكلمة مع طول النطق بثم، فيتسق طول النطق فى التعبير مع طول الزمن فى الإمهال.

وبالمقابل حين قصر زمن الكيد بالعطف عليه بالفاء تجاوب قصر الزمن فى نطق الفاء مع حذف الياء فى قوله "ثم كيدون فلاتنظرون" ليتناغم قصر العبارة مع قصر زمن الكيد. وهذا آية من آيات الإعجاز فى الذكر الحكيم فسبحان من لاتحيط بأسرار بيانه الأفهام وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

● الأزهية فى علم الحروف - على بن محمد الهروى - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق - ت.عبدالمعين الملوحى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

● أسباب النزول - أبو الحسن الواحدى - نشر مكتبة الجمهورية العربية - الصناديقية بالقاهرة.

● الأطول - عصام الدين الاسفراييني - المطبعة العامرة - ١٢٨٤هـ

● أمالى ابن الشجرى - هبة الله بن على بن محمد الحسنى العلوى- ت.د.محمود الطناحى - مكتبة الخانجى - القاهرة الطبعة الأولى١٩٩٢م.

● إملاء مامنّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات . ابو البقاء العكبرى - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.

● الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال - ابن المنير الاسكندرى - بحاشية الكشاف - مطبعة مصطفى اليابى الحلبى ١٣٩٣هـ-١٩٧٢م.

● البحر المحيط - ابو حيان الأندلسى - دار الفكر للطبع والنشر الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

● البرهان فى علوم القرآن - الإمام بدر الدين الزركشى - ت. محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الجيل - بيروت ١٩٨٨م.

● البلاغة العالية - عبد المتعال الصعيدى - مراجعة د. عبدالقادر حسين مكتبة الآداب ومطبعتها - الطبعة الأولي ١٩٩١م.

● البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د. محمد محمد أبوموسى - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

● تأويل مشكَل القرآن - ابن قتيبة - شرح ونشر السيد أحمد صقر - دار التراث - القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ -١٩٧٣م.

● التحرير والتنوير - الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للطبع والنشر - تونس.

● تحفة الأشراف فى غوامض الكشاف - يحيى بن قاسم العلوى -تحقيق الجزء الأول.د. ابراهيم التلب مخطوط بكية اللغة العربية - القاهرة.

● تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد - ابن مالك - ت.محمد كامل بركات - نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٨م.

● التصوير البيانى - دراسة تحليلية لمسائل البيان . د. محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

● التصوير الفنى فى القرآن - سيد قطب - دار المعارف - الطبعة التاسعة ١٩٨٠.

● تفسير أبى السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم" - ابو السعود العمادى - دار إحياء التراث العربى - بيروت.

● تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) - ابن كثير الدمشقى - نشر المكتبة التوفيقية - الحسين - القاهرة.

● التفسير البيانى للقرآن الكريم - الدكتورة عائشة عبد الرحمن - دار المعارف - الطبعة الخامسة.

● تفسير البيضاوى " أنوار التنزيل" - القاضى البيضاوى - بهامش حاشية الشهاب - دار صادر بيروت.

● تفسير الجلالين - جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى - بهامش الفتوحات الإلهية - عيسى البابى الحلبى.

● تفسير الخازن (لباب التأويل فى معانى التنزيل) - الخازن - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.

● تفسير الطبرى - ابن جرير الطبرى - ت. محمود شاكر - دار المعارف - الطبعة الثانية.

● تفسير الفخر الرازى (التفسير الكبير) فخر الدين الرازى - دار الفكر للطباعة والنشر - الطبعة الثالثة - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

● تفسير القرطبى - ابو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى - دار الريان للتراث.

● تفسير المنار - السيد محمد رشيد رضا - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

● الجُمَل فى النحو - الخليل بن أحمد الفراهيدى - ت د. فخر الدين قباوة - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

● الجنى الدانى فى حروف المعانى - ابو الحسن بن قاسم المرادى - ت. د فخر الدين قباوة وآخر - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

● حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية - الشيخ محمد الإنبابى - المطبعة الأميرية ببولاق - الطبعة الأولى ١٣١٥هـ

● حاشية البغدادى على شرح بانت سعاد لابن هشام - للبغدادى - مخطوطة بدار الكتب المصرية.

● حاشية الدسوقى - محمد بن عرفة الدسوقى - بهامش شروح التلخيص - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان.

● حاشية السعد على الكشاف - السعد التفتازانى - تحقيق الجزء الأول د. عبد الفتاح البربرى - مخطوط بكلية اللغة العربية - القاهرة.

تحقيق الجزء الثانى د. فوزى السيد عبد ربه- مخطوط بكلية اللغة العربية - القاهرة.

● حاشية السيد على الكشاف - السيد الشريف الجرجانى - مع تفسير الكشاف - مصطفى البابى الحلبى - القاهرة ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

● حاشية السيد على المطول - السيد الشريف الجرجانى - على هامش المطول - مطبعة أحمد كامل - القاهرة ١٣٣٠هـ.

● حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى - شهاب الدين الخفاجى - دار صادر - بيروت.

● حاشية القطب التحتانى - قطب الدين الرازى - ت. د. إبراهيم الجعلى - مخطوط بكلية اللغة العربية - القاهرة.

● الحجة فى علل القراءات السبع - أبو على الفارسى - ت. على الجندى ناصف وآخران - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

● خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب - عبد القادر بن عمر البغدادى - ت. عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ط٢ - ١٩٧٩م.

● دراسات لأسلوب القرآن الكريم - الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة - مطبعة حسان - شارع الجيش - القاهرة.

● درة التنزيل وغرة التأويل - الخطيب الإسكافى - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٧م.

● دلائل الإعجاز - الإمام عبد القاهر الجرجانى - تعليق محمود شاكر - مكتبة الخانجى بالقاهرة.

● دلالات التراكيب - د. محمد محمد أبوموسى - مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩م.

● رصف المبانى فى شرح حروف المعانى - أحمد بن عبد النور المالقى -ت.د. أحمد الخراط - دار القلم - دمشق.ط ثانية - ١٩٨٥م

● روح المعانى - محمود شكرى الألوسى - دار إحياء التراث العربى - بيروت.

● شرح أبيات سيبويه - أبو سعيد السيرافى - ت محمد على الرّيّح هاشم - نشر مكتبة الكليات الأزهرية ودار الفكر للطباعة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

● شرح ديوان الحماسة - أبو على أحمد بن محمد المرزوقى - نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون - مطبعة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ط ثانية.

● شرح الفوائد الغياثية - عصام الدين أحمد بن مصطفى - الشهير بطاشكبرى زاده - دار الطباعة العامرة ١٣١٢هـ

● شرح الكافية - الإمام رضى الدين محمد بن الحسن - دار الكتب العلمية - بيروت.

● الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية - جمعها أبوبكر عبد الرازق - المكتب الثقافى للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

● صحيح البخارى - جمع محمد بن إسماعيل الجُعْفىّ البخُارى - مطبعة مصطفى البابى الحلبى - ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

● الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - يحيى بن حمزة العلوى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

● عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك - محمد محيى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت.

● عروس الأفراح - بهاء الدين السبكى - ضمن شروح التلخيص - دار الكتب العلمية - بيروت.

● عمدة القارى - شرح صحيح البخارى - الإمام بدر الدين العينى - مكتبة مصطفى البابى الحلبى - الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

● فتح البارى بشرح صحيح البخارى - الإمام ابن حجر العسقلانى - دار إحياء التراث العربى - بيروت.

● الفتوحات الإلهية - سليمان بن عمر الشهير بالجمل - مطبعة عيسى البابى الحلبى.

● فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب - الطيبى - مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٧٣ تفسير تيمور.

● الفرائد فى شرح الفوائد - محمود بن محمد الجونفورى - المطبعة المجيدية ١٣٣١هـ

● فقه اللغة وسر العربية - ابو منصور الثعالبى - ت - مصطفى السقا وآخران - مصطفى البابى الحلبى ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

● فى ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق - الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

● كتاب سيبويه - أبو بشر عمرو بن عثمان ت. محمد عبد السلام هارون - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.

● الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل - جار الله الزمخشرى - مصطفى البابى الحلبى - القاهرة - ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

● كشف الكشاف - سراج الدين عمر الكنانى الفارسى - ت. محمد محمود عبد الله السلمان - مخطوط بكلية اللغة العربية - القاهرة.

● الكليات - أبو البقاء الكفوى - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى - دمشق ط. ثانية ١٩٨١م.

● لسان العرب ابن منظور - ت عبد الله على الكبير وآخرون - دار المعارف.

● المثل السائر - ضياء الدين بن الأثير - ت. د. أحمد الحوفى ود. بدوى طبانة - مكتبة نهضة مصر - الفجالة.

● المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - ابن عطية الأندلسى - ت المجلس العلمى بفاس. بدأ طبع الجزء الأول ١٣٩٥هـ وأنتهى الجزء الأخير ١٤١١هـ.

● المصباح فى شرح المفتاح - السيد الشريف - ت.د فريد النكلاوى - مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة.

● المطول - سعد الدين التفتازانى - مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

● معانى القرآن - ابو زكريا الفراء :

الجزء الأول ت.أحمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م.

الجزء الثانى ت. محمد على النجار - الدار المصرية للتأليف والترجمة.

الجزء الثالث ت. عبد الفتاح إسماعيل شلبى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

● معانى القرآن - الأخفش الأوسط - ت.د. فائز فارسى - المطبعة العصرية - الكويت ١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩م.

● معانى القرآن وإعرابه - أبو إسحاق الزجاج - ت.د. عبد الجليل شلبى - منشورات المكتبة العصرية - بيروت . صيدا.

● معجم الأدوات والضمائر فى القرآن الكريم - ت.د. إسماعيل أحمد عمايرة ود. عبد الحميد مصطفى السيد - مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦م.

● معجم مقاييس اللغة - أحمد بن فارس - ت. عبد السلام هارون - دار الكتب العلمية - إيران.

● مغنى اللبيب - ابن هشام الأنصارى - ت. محمد محيى الدين عبد الحميد - نشر مكتبة ومطبعة محمد على صبيح.

● مفتاح العلوم - أبو يعقوب السكاكى - مصطفى البابى الحلبى - الطبعة الثانية ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

● المفردات فى غريب القرآن - الراغب الأصفهانى - مصطفى البابى الحلبى - ١٩٦١م.

● المقتصد فى شرح الإيضاح - عبد القاهر الجرجانى - ت.د. كاظم بحر المرجان - منشورات وزارة الثقافة والإعلام - العراق ١٩٨٢م.

● ملاك التأويل - ابن الزبير الأندلسى الغرناطى - ت د. محمد محمود كامل - دار النهضة العربية - بيروت - ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥م.

● من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوى - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الفجالة.

● مواهب الفتاح - ابن يعقوب المغربى - ضمن شروح التلخيص - دار الكتب العلمية - بيروت.

● نتائج الفكر فى النحو - أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السهيلى - ت. د محمد البنا - دار الرياض للنشر والتوزيع.

● نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز - الإمام فخر الدين الرازى - دراسة وتحقيق د. أحمد حجازى السقا - المكتب الثقافى للنشر والتوزيع - القاهرة. ط ١ ١٩٨٩م.

● الواو ومواقعها فى النظم القرآنى - د. محمد الأمين الخضرى - رسالة دكتوراة - مخطوطة بكلية اللغة العربية - القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثانى : مواقــع ثــم واسرارهــا

من ص ١٥١ إلى ص ٢٦٤

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٣/١١٠١٦
فى ١٢/١٢/١٩٩٣